يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ﴾

معلوم أن (إذَا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصر .

وقوله : ﴿ وَعْد ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشيء مضى ، وإنما بشيء مستقبل . و ﴿ أُولاَهُمَا ﴾ أي : الإفساد الأول .

وقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. ۝٥ ﴾ [الإسراء]

وفي هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا في حضن الإسلام ؛ لأن كلمة (عِبَاداً) لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذي قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدّث العلماء في قوله تعالى : ﴿ عِبَادًا لَّنَا .. ۝٥ ﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التي تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى في قصة عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن

كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

والشاهد في قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨) ﴾ [المائدة]

فأطلق كلمة « عبادى » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع أن يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سلطا على بنى إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكى موقفاً من مواقف يوم القيامة ، يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان]

فأطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. (٥) ﴾ [الإسراء]

ليس من الضرورى أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ، وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم منهم ، ويُسلِّط عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين ، فإذا أراد سبحانه أن ينتقم من الظالم سلّط عليه مَنْ هو أكثر منه ظلماً ، وأشدّ منه بطشاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وإذا كان أصحاب هذا الرأى لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة

عباد تُطلَق على المؤمنين وعلى الكافرين ، فسوف نأتى بما يدل على أنها لا تُطلَق إلا على المؤمنين[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

إلى آخر ما ذكرت الآيات من صفات المؤمنين الصادقين ، فأطلق عليهم « عباد الرحمن » .

دليل آخر في قول الحق سبحانه في نقاشه لإبليس : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

والمراد هنا المؤمنون .. وقد قال إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

إذن : هنا إشكال ، حيث أتى كُلٌّ بادلته وما يُؤيِّد قوله ، وللخروج من هذا الإشكال نقول : كلمة « عباد » و « عبيد » كلاهما جمع ومفردهما واحد (عبد) . فما الفرق بينهما ؟

لو نظرتَ إلى الكون كله مؤمنه وكافره لوجدتهم جميعاً لهم اختيارات في أشياء ، ومقهورين في أشياء أخرى ، فهم جميعاً عبيد

---

(١) قال الأزهرى : اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك . فقالوا : هذا عبد من عباد الله ، وهؤلاء عبيد مماليك . وقال الليث : يقال للمشركين هم عبدة الطاغوت ، ويقال للمسلمين : عباد الله يعبدون الله . [لسان العرب ـ مادة : عبد]

بهذا المعنى يستوى فى القهر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخَلْق عبيد فيما لا اختيارَ لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسِّمهم إلى قسمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون فى مظلة العباد ، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون فى مظلة عباد الله . كيف ذلك ؟

لقد جعل الله تعالى لك في أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفعْل ومقابله ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففى منطقة الاختيار هذه يتمايز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم فى المباحات ، فتراهم يُنفِّذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلَّموا جميع أمرهم لله فى منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى في المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مُرادهم وتركوا مُراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خَيَّرهم : تُؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً ؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكى نستكمل حلَّ ما أشكل فى هذه المسألة لابُدَّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا فى الدنيا فى دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُميِّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمرَّدوا واختاروا غير مراد الله عز وجل فى الاختياريات ، أما فى القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محلَّ للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجالَ فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد فى الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد فى الآخرة ، وليس الكل عباداً فى الدنيا . وعلى هذا نستطيع فَهْم معنى (عباد) فى الآيتين :

﴿ إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨) ﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان]

فسمَّاهم الحق سبحانه عباداً ؛ لأنه لم يَعُدْ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستوَوْا مع المؤمنين فى عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. (٥) ﴾ [الإسراء]

المقصود بها الإفساد الأول الذى حدث من اليهود فى ظلِّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جَاسُوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم مَنْ قتلوه ، وسَبَوْا مَنْ سَبَوْه .

وقوله : ﴿ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

أى : قوة ومنَعة ، وهذه كانت حال المؤمنين فى المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم فى مكة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

جاسُوا من جاسَ أى : بحث واستقصى المكان ، وطلب مَنْ فيه ، وهذا المعنى هو الذى يُسمِّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .

وهو اصطلاح يعنى دِقّة البحث عن المجرمين فى هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفى هذا ما يدل على دِقّة البحث ، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .

إذن : جاسُوا أى : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر .

ونلاحظ هنا أن القرآن آثر التعبير بقوله : ﴿ بَعَثْنَا .. ۝ ﴾ [الإسراء]

والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله ﷺ لم يكن فى حال اعتداء ، بل فى حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .

وكلمة : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ [الإسراء] تفيد العلو والسيطرة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ﴾ [الإسراء]

أى : وَعْد صدق لابد أن يتحقق ؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كأى وَعْد يمكن أنْ يَفِي به صاحبه أو لا يفى به ؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً : سألقاك غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج فى تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ ، ولا تجرى عليه مِثْل هذه العوارض ، فوعْدُه مُتحقِّق النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا تُقَال إلا فى الخير ، فكيف سَمَّى القرآن هذه الأحداث : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ۝٥ ﴾ [الإسراء]

قالوا : الوعيد يُطلَق على الشر ، والوعد يُطلَق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً فى ظاهره ، وهو خير فى باطنه ، وفى هذا الموقف الذى نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أنْ يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر فى ظاهره ، لكنه فى الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إنْ حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذى يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيَقْسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

الخطاب في هذه الآية مُوجَّه لبني إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحوُّل وانقلاب للأوضاع ، فبعد ما تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلَّطهم لتأديب بني إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذي ارتفعوا به ، وتنصَّلوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلَّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون في المدينة ، فأخذوا ينظرون في حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدَّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فانحلَّتْ الأمور الإيمانية في نفوس المسلمين ، وانقسموا دُولاً ، لكل منها جغرافيا ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فانحلَّتْ عنهم صفة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استحقوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت كفتهم وتخلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكموا إلى قوانين وضعية ، فسلَّط عليهم عدوهم ليؤدِّبهم ، فأصبحتْ الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

و ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي ، على خلاف الفاء مثلاً التي تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس]

فلم يَقُل الحق سبحانه : فرددنا ، بل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا ﴾ . ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التي كانت للمسلمين في عهد رسول الله ، وبين هذه الكَرَّة التي كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون ، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور ، الذي أعطى لهم الحق في قيام دولتهم في فلسطين ، وكانت الكَرَّة لهم علينا في عام ١٩٦٧ ، فناسب العطف بـ « ثم » التي تفيد التراخي .

والحق سبحانه يقول : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ .. (٦)﴾ [الإسراء]

أي : جعلنا لبني إسرائيل الغَلَبة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم ؛ لأنهم تخلّوا عن منهج ربهم ، وتنازلوا عن الشروط التي جعلتْهم عباداً لله .

و (الكَرَّة) أي : الغلبة من الكَرِّ والفَرِّ الذي يقوم به الجندي في القتال ، حيث يُقدِم مرة ، ويتراجع أخرى .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦)﴾ [الإسراء]

وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال في العالم كله ، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات ، وفي كل المجالات .

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين ، فهم فى ذاتهم ضعفاء رغم ما فى أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكى تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومى المزعوم فى فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التى ساندتْ اليهود وصادمتْ المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أنْ نعودَ كما كُنَّا ، عباداً لله مُسْتقيمين على منهجه ، مُحكِّمين لكتابه ، وهذا وَعْد سيتحقّق إنْ شاء الله ، كما ذكرتْ الآية التالية :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[1] مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

وما زال الخطاب مُوجّهاً إلى بنى إسرائيل ، هاكم سُنّة من سنن الله الكونية التى يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهى أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، ومَنْ أساء فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

---

(١) تبّره : دمره وأهلكه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف] مُتبَّرٌ : اسم مفعول أى مُدمَّر مُهلَك . [القاموس القويم ١/٩٧] .

المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سُنَّة كونية ، مَنِ استحق الغلبة فهي له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزَّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

فيه إشارة إلى أنهم في شكٍّ أنْ يُحسِنوا ، وكأن أحدهم يقول للآخر : دَعْكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكَرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تظل لهم الغلبة ، ولن تدوم لهم الكرَّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

أي : إذا جاء وقت الإفسادة الثانية لهم ، وقد سبق أنْ قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .. ④ ﴾ [الإسراء]

وبيَّنَّا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في المدينة .

وفي الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغلبة والقوة ، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

أي : تُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم ؛ لأن

الوجه هو السِّمة المعبِّرة عن نوازع النفس الإنسانية ، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر ، وهو أشرف ما في المرء ، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ⑦ ﴾[الإسراء] أي : أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى ، وسينقذونه من أيدي اليهود .

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

المتأمل في هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود ، بل كان في أيدي الرومان المسيحيين .

فدخوله الأول لم يكُنْ إساءةً لليهود ، وإنما كان إساءة للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى ، وهو في حوزة اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى ، ونُطهِّره من رِجْسهم .

ونلحظ كذلك في قوله تعالى : ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ⑦ ﴾ [الإسراء] أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لِنُبوءَة القرآن ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا : إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء]

كلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التى لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غَلَبة بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء]

يتبروا : أى : يُهلكوا ويُدمِّروا ، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة التى نشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقُلْ : ما علوتُم ، إنما قال ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة مَنْ وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح فى قَوْل الحق سبحانه عنهم :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [آل عمران]

فهم أذلاء أينما وُجِدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون فى ظلِّه ، كما كانوا فى عهد رسول الله ﷺ فى المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُوِيَّة لا تذوب فى غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون فى البلاد التى يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم فى كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميْلٌ للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف]

كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حَدِّ زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لتعود لنا صفة العباد ، ونكون أهْلاً لِنُصْرة الله تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ.. (٧) ﴾ [الإسراء]

فهو وَعْد آتٍ لا شكَّ فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصِّها في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا[1] (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمتأمل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقُّق وَعْد الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود في أرض فلسطين آية مُرادة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قُلْنا لبني إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : أُسْكُنْ فلابُدَّ أن يُحدد لك

---

(١) اللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنيء ، والمطيع والعاصي ، والقوي والضعيف . [لسان العرب ـ مادة : لفف] .

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد .. اسكن القاهرة .. اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أنْ يظلُّوا مبعثرين في جميع الأنحاء ، مُفرَّقين في كل البلاد ، كما قال عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكننة ونكد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هي في نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاج الإسلام ، فساعة أنْ يُهَاجَ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبَّه في الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهي إثارة الحيوية الإيمانية في النفوس ، فلو لم تُثَر الحيوية الإيمانية لَبهتَ الإسلام .

وهذه هي رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذي يشقى الناس به يُلفت الناس إلى الإيمان ، فلا يرونَ راحة

---

(١) سامه الأمر : كلّفه إياه . وقال الزجاج : أوْلاه إيّاه . وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هي الجزية . والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة . نقله ابن كثير في تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا فى الإيمان بالله ، ولو لم يكُنْ الكفر الذى يؤذى الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل فى الكون يعض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثرهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحَوْا إليهم بفكرة الوطن القومي ، وزيَّنُوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن فى قيام دولة إسرائيل وتجمّع اليهود بها نكايةً في الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن نضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم : ﴿ عِبَادًا لَّنَا.. ۝٥ ﴾ [الإسراء]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفرَّقون مُبعثرون فى كل أنحاء العالم ، فلن نحارب فى العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حى ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، فى كل بلد شرْذمة منهم ؟

إذن : ففكرة التجمُّع والوطن القومي التى نادى بها بلفور وأيّدتْها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة فى الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسهِّل علينا تتبعهم وتُمكّننا من القضاء عليهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤ ﴾ [الإسراء]

أى : أتينا بكم جميعاً ، نضمُّ بعضكم إلى بعض ، فهذه إذن بُشرى لنا معشر المسلمين بأن الكَرَّة ستعود لنا ، وأن الغلبة ستكون فى النهاية للإسلام والمسلمين ، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله ، ونتجه إليه كما قال سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا[1] تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

والمراد بقوله هنا : ﴿ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

هو الوعد الذى قال الله عنه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا[2] (٨) ﴾

و (عَسَى) حَرْف يدلّ على الرجاء ، وكان فى الآية إشارةٌ إلى أنهم سيظلون فى مذلّة ومَسْكنة ، ولن ترتفع لهم رأس إلا فى ظِلِّ حبل من الله وعَهْد منه ، وحبل من الناس الذين يُعاهدونهم على النُّصْرة والتأييد والحماية .

وقوله : ﴿ رَبُّكُمْ .. (٨) ﴾ [الإسراء]

---

(١) البأس : الشدة والقوة . ويقول تعالى : ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ (١٧٧) ﴾ [البقرة] أى : وقت الحرب الشديدة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

(٢) حصيرا : مَحْبساً ومَحْصَراً . وأصل الحصر والإحصار : المنع . [لسان العرب ـ مادة : حصر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٦) : « حصيراً أى : مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه » .

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذى ما يزال يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتى من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ .. ⑧ ﴾ [الإسراء]

لأن الربّ هو المتولّى للتربية والمتكفّل بضمان مُقوّمات الحياة ، لا يضنّ بها حتى وإنْ كان العبد كافراً ، فالكلُّ أمام عطاء الربوبية سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

الجميع يتمتع بنِعَم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو سبحانه لا يزال ربَّهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ .. ⑧ ﴾ [الإسراء]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان فى موقف يستحق فيه الرحمة ، واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون فى حِضْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التى تُعطى لهم فرصة التعايش مع الإسلام معايشة ، كالتى كانت لهم فى مدينة رسول الله ، يوم أن أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلتْ هذه المعايشة لدرجة أن النبى ﷺ كان إذا أراد أنْ يقترضَ لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفى هذا حكمة يجب أنْ نعيهَا ، وهى أن المسلم قد يستحى أن يطالب رسول الله إذا نسى مثلاً ، أما اليهودى فسوف يُلِحّ فى طلب حقّه وإذا نسى رسول الله سيُذكّره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله ﷺ ويُغالطونه مِراراً ، وقد حدث أن وفّى رسول الله لأحدهم دَيْنه ، لكنه أنكره وأتى

يطالب به من جديد ، وأخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول : ابْغِنى شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزّم الموقف في حضور أحد الصحابة ، واسمه خزيمة ، فهَبَّ خزيمة قائلاً : أنا يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودى دَيْنه ، فسكت اليهودى ولم يرد ولم يجادل ، فَدل ذلك على كذبه . ويكاد المريب أن يقول : خذونى .

لكن رسول الله ﷺ عندما اختلى بخزيمة بعد أن انصرف الدائن قال : يا خزيمة ما حملك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا أقضى لليهودى دَيْنه ؟ فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأصدِّقك في خبر السماء ، وأكذِّبك في عِدّة دراهم ؟

فَسُرَّ رسول الله من اجتهاد الرجل ، وقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه »[1] .

ثم يُهدِّد الحق سبحانه بنى إسرائيل ، فيقول : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا .. ⑧ ﴾ [الإسراء]

إنْ عُدتُّم للفساد ، عُدْنا ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على الذنوب في الدنيا يُبرِّئهم من عذاب الآخرة .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١٨/٢) والطبراني في المعجم الكبير (١٠١/٤) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمي في المجمع (٣٢٠/٩) : « رجاله كلهم ثقات » .

فالعقوبة على الذنب التى تُبرِّىء المذنب من عذاب الآخرة ما كان فى حضن الإسلام ، وإلاَّ لاَستوى مَنْ أقيم عليه الحدّ مع مَنْ لم يُقَمْ عليه الحد .

فلو سرق إنسان وقُطِعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقطع يده ، فلو استَوَوْا فى عقوبة الآخرة ، فقد زاد أحدهما عن الآخر فى العقوبة ، وكيف يستوى الذى قُطِعَتْ يده . وعاش بِذلّتها طوال عمره مع مَنْ أفلت من العقوبة ؟

هذا إنْ كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذى بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجودَ له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعفى صاحبها من عقوبة الآخرة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨)﴾ [الإسراء]

﴿جَعَلْنَا﴾ فعل يفيد التحويل ، كأن تقول : جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أى : صيَّرْتُه وحوَّلْتُه . فماذا كانت جهنم أولاً فيُحوِّلها الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى : ﴿جَعَلْنَا﴾ فى هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هى بمعنى خَلَقْنا ، أى : خلقناها هكذا ، كما نقول : سبحان الذى جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّله الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى : ﴿حَصِيراً .. (٨)﴾ [الإسراء]

الحصير فراش معروف يُصنع من القَشّ أو من نبات يُسمى

السَّمُر ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّى حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من الحَصْر ، وهو التضييق فى المكان للمكين ، وفى صناعة الحصير يضمُّون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أنْ تتماسكَ ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحصير ؟ نفرش الحصير ؛ لأنه يحبس عنَّا القذَر والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا . إذن : الحصر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمتتبع لمادة (حصر) فى القرآن الكريم يجدها بهذه المعانى ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ[1] الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ .. ۝٥ ﴾ [التوبة] أى : ضيِّقوا عليهم .

وقال تعالى فى فريضة الحج : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .. ۝١٩٦ ﴾ [البقرة] أى : حُبِسْتم ومُنِعتم من أداء الفريضة .

إذنْ : فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ۝٨ ﴾ [الإسراء]

أى : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهى لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه ؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا[2] .. ۝٢٩ ﴾ [الكهف]

---

(١) انسلخ الشهر : انقضى وانتهى . [القاموس القويم ٣٢٢/١] .

(٢) قال ابن الأعرابى : سرادقها : سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . وقال الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة ، وخرَّج ابن المبارك من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لسرادق النار أربع جُدُر ، كُثْف كل جدار مسيرة أربعين سنة » . قال القرطبى فى تفسيره (٤١٢٤/٥): « وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار ، وجدره ما وُصِف » .

فلا يستطيعون الخروج ، فإنْ حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا فى الدنيا يحتمُون فى أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء ، ويدخلون فى حضانة أهل الباطل ، أما فى الآخرة فلن يجدوا ناصراً أو مدافعاً .

يقول تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

وبعد أن تكلّم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجَعْله آيةً أرضية يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الناموس فى أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرقَ له الناموس فيما لا يعلمه القوم كان أدْعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد ﷺ لربه هى التى أعطتْه هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح ـ عليه السلام ـ عبداً شكوراً ، فهناك فَرْق بين عبودية الخَلْق للخالق ، وعبودية الخَلْق للخَلْق ؛ لأن العبودية للخَلْق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خَيْر سيده .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن بنى إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد فى الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكُلٌّ له عمله دون ظُلْم أو جَوْر .

لذلك ينقلنا السياق القرآنى إلى بيان المنهج الإلهى المنزّل من

السمـاء ليوضح عبودية الإنسـان لربه ، وكيف يكون عبداً مُـخْلَصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

فـمَنْ كان يريد الأسْوة الطيبـة فى عـبودية الرسـول لربه ، هذه العبـودية التي جعلتْه يسـرى به إلى بيت المقدس ، ثم يصـعد به إلى السمـاء ، ومَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح فى عـبوديته لربه فـأكرم ذريتـه من أجله ، فعليـه أنْ يسيـرَ على دَرْبهم ، وأنْ يقتـدىَ بهم فى عبوديتـهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهـود الذين أفسدوا فى الأرض مرتين .

والذى يرسم لنا الطريق ويُوضِّـح لنا الحق من الباطل هو القـرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا القرآن ؟

نقـول : لم يكن القـرآن كله قـد نـزل ، ولكن كل آية فى القـرآن تُسمَّى قرآناً ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملتْ كل المسائل التى تضـمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

فإن استشرف مُستشرف أنْ يستزيد على كتاب الله ، أو يأتى بجديد فليعلم أن منهج الله مُنزَّه عن النقص ، وفى غِنىً عن زيادتك ، وما عليك إلا أن تبحث فى كتاب الله ، وسوف تجد فيه ما تصبو إليه من الخير .

قوله : ﴿ يَهْدِى .. ⑨ ﴾ [الإسراء]

الهداية هى الطريق الموصِّل للغاية من أقرب وَجْه ، وبأقل تكلفة . وهو الطريق المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه يهدى الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زاده هُدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰ ﴾ [محمد]

ومعنى : ﴿ أَقْوَمُ .. ⑨ ﴾ [الإسراء]

أى : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمَّى أفعل التفضيل ، إذن : فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قَيِّم) كأن نقول : عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ⑨ ﴾ [الإسراء]

يدل على وجود (القيِّم) فى نُظم الناس وقوانينهم الوضعية ، فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وشرائع حينما تعضُّهم المظالم ويشقُّون بها ، فيُقنِّنون تقنينات تمنع هذا الظلم .

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه وإنْ كان قَيِّماً فما وضعه الله أقوم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أنْ

تُعضّ بشيء مُعوج غير قيّم ، وإلا فماذا يلفتك للقيم ؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ، فهناك فَرْق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب القوانين الوضعية يُعدّلون نُظمهم لعلاج الأمراض التي يَشْقَون بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدثتْ غفلة من المسلمين ، وأصابتهم بعض الداءات نتيجة انصرافهم عن منهج ربهم نقول لهم : عودوا إلى المنهج : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ..﴿٩﴾﴾ [الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نروى ما حدث معنا في مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدُ المستشرقين عن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة]

وفي آية أخرى يقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ . [التوبة]

فكيف يقول القرآن : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]

في حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملتَ الآية لوجدتَ فيها الردّ على سؤالك ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة]

ويقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتّباع ، ولم يقُل القرآن : إن الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضطرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلّى عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام ؛ لأنهم وجدوا فيها ضالّتهم .

فنظام الطلاق فى الإسلام الذى كثيراً ما هاجموه وانتقدوه ، ورأوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقى الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل فى قوانينهم ، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأنْ يُقنّنوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُباً فى الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حَلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد فى الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون فى حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا فى الإسلام ، فعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كِنز » وهو زعيم اقتصادى عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدى وظيفته كاملة فى الحياة إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لَجَج هؤلاء فى خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعنى أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفى ما فى التعامل الربوى من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مَرّ الزمن أنْ تُسدد حتى أقساط

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التى ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عضَّتهم قنَّنوا لها .

فظهور دين الله هنا يعنى ظهورَ نُظم وقوانين ستضطرهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتّباع .

إذن : فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأهْدى ، وفى القرآن الكريم ما يُوضّح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا فى قصة مولاه « زيد بن حارثة »[1] ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ التى وهبتْه بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد فى خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده فى مكة فأتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خَيَّره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء فى خدمة رسول

---

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي : صحابي ، اختطف في الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها ، فتبناه وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، جعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها ، توفى ٨ هـ .

الله وآثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على مَن اختارنى شيئاً »[1] .

وفى هذه القصة دليل على أن الرقّ كان مباحاً فى هذا العصر ، وكان الرقّ حضانةَ حنانٍ ورحمة ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يُكلّفه ما لا يطيق ، وإنْ كلّفه أعانه ، فكانت يده بيده[2] .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد ؛ لذلك آثره على أهله ، وأحب البقاء فى خدمته ، فرأى رسول الله أن يُكافىء زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد »[3] .

وكان التبنى شائعاً فى ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُحرِّم التبنى ، وأنْ يُحرِّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول

---

(١) أورده ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) فى ترجمة « زيد بن حارثة الكلبى » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) من حديث أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه » أورده ابن حجر فى الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الأحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوّج زيداً ابنة عمته زينب بنت جحش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾ [الأحزاب] .

الله ﷺ ، فقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

والشاهد هنا : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

فكان الحكم الذى أنهى التبنى ، وأعاد زيداً إلى زيد بن حارثة هو الأقسط والأعدل ، إذن : حكم الرسول ﷺ لم يكن جَوْراً ، بل كان قسْطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشرى يَفْضُله ما كان من عند الحق سبحانه وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسبه الأصلى ، وأصبح الناس يقولون « زيد ابن حارثة » ، فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِم من شرف الانتساب لرسول الله ﷺ فعوّضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يَنَلْه صحابى غيره ، هذا الوسام هو أن ذُكر اسمه فى القرآن الكريم ، وجعل الناس يتلونه ، ويتعبدون به فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

لأن المتتبع للمنهج القرآنى يجده يُقدّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط فى كل شىء . فى العقائد ، وفى الأحكام ، وفى القصص .

ففى العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ ينكر وجود إله فى الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدُّد الآلهة ، فجاء الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم فى هذه المسألة ، جاء ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدَّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو أقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فلّه يدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى]

وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبِّهة الذين شبَّهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطِّلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأوّلوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب نغفل عنها ، ونُعرِض عن تدبُّرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكِّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذي يُثْرى حياتنا ، ويُوفِّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مُقوِّمات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمَنْ أراد الكماليات فعليه أنْ يُعمِل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة في ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسهَّلَتْ عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثِقَل وجده

يتحرك بسهولة إذا وُضع تحته شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكَّنته من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبطَ فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوةً مُحرِّكة عندما شاهد القِدْر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

والعالِم الذي اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها « الريم » تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكي عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفةً ، لاحظ أن عينه قد برئتْ ، فبحث في هذه المسألة حتى توصَّل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخلْق ، ويمرُّون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أعدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إنْ أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

والاستعمار أنْ تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبني

وهذا يهدم ، إذن : لابد أن تُنظَّم حركة الحياة تنظيماً يجعل المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاضد ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى]

وإنْ كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبُّر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيِّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسُّس وتتبُّع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغَيْبهم .

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثرى حياة الناس في الكون ، وهَبْ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعتَ هذه السيئة الواحدة فربما أزهدتْك في كل حسناته ، وحرمتْك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .

وهَبْ أن صانعاً بارعاً في صنعته وقد احتجْتَه ليؤدىَ لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا في صنْعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإنْ كان أقلّ منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبُّع

غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبُّع غَيْبك والبحث عن أسرارك ؛ ولذلك ما أنعم الله على عبيده نعمةً أعظمَ من حِفْظ الغيب عنده هو ؛ لأنه ربٌّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غَيْبُ أخيه أو عيبٌ من عيوبه أذاعه وفضحه به .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلَعة[1] في استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفي الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلَعة في تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إنْ تتبعتَ غيب الناس والتمستَ عيوبهم حرمْتَ نفسك من مصادر يمكن أنْ تنتفع بها .

فالحق سبحانه يريد في الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البنّاء ، التنافس الذي يُثْرى الحياة ، ولا يثير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجدّ ليكون مثْله أو أفضل منه ، وكأن الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرُّقي ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغِلِّ والحقد والكراهية ، بل تنافس مَنْ يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس مَنْ لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى في عدوه ، ونحن

---

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشيء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها . [لسان العرب ـ مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يغضب وتُثار حفيظته إنْ كان له عدو ، ويراه مصدر شرٍّ وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار.

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله في إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده في الصديق ، لأن صديقك قد يُنافقك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبْوة ليذيعها ويُسمّع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت في الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

عِداىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىّ ومِنَّةٌ فَلاَ أبعَدَ الرحْمَنُ عَنِّي الأعَادِياَ

هُمُو بحثُوا عَنْ زَلّتى فَاجْتنبْتُها وهُمْ نَافَسُونى فاكْتَسبْتُ المعَالِيا

وهكذا نجد لكل شيء في منهج الله فائدة ، حتى في الأعداء ، ونجد في هذا التنافس المثمر الذي يُثرى حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكي يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمى الضعيف من بطش القوى ، فجاء منهج الله تعالى لِيُقنّن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حقّه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

ثم حذّر القوى أنْ تُطغيه قوته ، وتدعوه إلى ظلم الضعيف ، وذكّره أن قوته ليست ذاتية فيه ، بل هي عَرَضٌ سوف يزول ، وسوف تتبدل قوته في يوم ما إلى ضَعْف يحتاج معه إلى العون والمساعدة والحماية .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا : أنا أحمى الضعيف من قوتك الآن ، لأحمى ضعفك من قوة غيرك غداً .

أليس في هذا كله ما هو أقوم ؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله في مجال الإنفاق ، وتصرُّف المرء في ماله ، والمتأمل في هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذيرَ فيه ولا تقتير[1].

ولا شك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثرى حياته ، وأن يرتقى بها ، ويتمتع بترفها ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذّراً لا يُبقى من دخله على شيء ، بل لا بُدّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجد في جعبته ما يمكنه أن يُثرى حياته ويرتقى بها ويُوفّر لأسرته كماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) قتر على عياله : ضيق عليهم في النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان في الرزق . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

فللإنسان فى حياته طموحات تتتابع ولا تنتهى ، خاصة فى عصر كثُرت فيه المغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألاَّ يُبدِّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخْل والإمساك ؛ لأن البخل مذموم ، والبخيل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البُخْل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التى تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع فى حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخْله فى تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذنْ : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير فى أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم الذى ارتضاه لنا المنهج الإلهى .

وكذلك فى مجال المأكل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذى يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتُّخْمة ، قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف]

فقد علَّمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قَدْر طاقة الوقود الذى يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكيه أصحاب الإسراف فى المأكل والمشرب .

والمتأمل فى حال هؤلاء الذين يأكلون كلّ ما لَذَّ وطاب ، ولا يَحْرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كِبَرهم وتقدُّم السِّنّ بهم يُحْرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

الملذات ، فترى فى بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، فى حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :

لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها فى بداية الأمر ، فلا بُدَّ أنْ تُحرَم منها الآن .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « كُلُوا واشربوا وتصدقوا ، والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة »[1]

وأيضاً من أسباب السلامة التى رسمها لنا المنهج القرآنى ، ألاَّ يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيب كل شىء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهى يرسم لنا الطريق الأقوم الذى يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبرْتَ هذا المنهج لوجدته فى أىِّ جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

فى العقائد ، فى العبادات ، فى الأخلاق الاجتماعية العامة ، فى العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

هذا المنهج الإلهى هو أقوم المناهج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذى يعلم مَنْ خلق ، ويعلم ما يصلحهم ، كما قلنا سابقاً :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٨١ ، ١٨٢) ، وابن ماجه فى سننه (٣٦٠٥) والنسائى فى سننه (٥/٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صنْعته ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملْتَ الآلة حَسْب قانون صانعها أدّتْ مهمتها بدقة ، وسلمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته ، فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صنْعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل.

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نَعيمَيْ الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الآمن مع الخَلْق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

وفى الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيرى الدنيا والآخرة ، ففى المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلْماً منه ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم والجَوْر ، بل عَدْلاً وقِسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها .

ومعنى : ﴿ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ .. (٩) ﴾ [الإسراء]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل تُبقِى الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يُفسده .

وقوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) ﴾ [الإسراء]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يأتِ

---

(١) الضنك : الضيق من كل شىء . والمعيشة الضنك : الضيقة غير المتسعة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٥] .

بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فوَصْف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم .

كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وَصْف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرْض الله علينا أكبر من أيّ عمل دنيويّ ، وهذا يعني أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرْض الله أكبر من كل كبير .

ولأهمية العمل الدنيوي في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،

كما أن البائع يحب دائماً البيع ، ويحرص عليه ، بخلاف المشترى الذى ربما يشترى وهو كاره ، فتجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشترى غداً .

إذن : فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع ، فترْك غيره من الأعمال أوْلَى .

فإذا ما قُضيَت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب الأرض ، فأخرجنا للقائه سبحانه فى بيته من عمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .

إذن : فالعمل وحركة الحياة (كبير) ، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركة الحياة ؛ لأن نداء ربك هو الذى سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتُقبِل على عملك بهمّة وإخلاص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

وهذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومعطوفة عليها ؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

ثم عطف عليه : ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فالآية داخلة فى البشارة السابقة ، ولكن كيف ذلك ، والبشارة السابقة تُبشّر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخيْر يأتى فى المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب ؟ .

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم ، كما

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة]

وكما قال الحق سبحانه متهكماً : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ[1] الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

وكما تقول للولد الذى أهمل فأخفق فى الامتحان : مبروك عليك الفشل ، أو تقول : بشِّر فلاناً بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، وللكافر بالعذاب ، كلاهما بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسرُّه وتُسعده ، وتجعله يستشرف ما ينتظره من نعيم الله فى الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسرُّ المؤمن ؛ لأنه لم يقع فى مصيدة الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتُخيفه ، وهذا رحمة به وإحسان إليه .

وهذا المعنى واضح فى قول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرحمن]

فهذه كلها نِعَم من نِعَم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيِّل بقوله

---

(١) رجل عزيز : منيع لا يُغلب ولا يُقهر . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] . أى : ذُق بما كنت تُعَدّ فى أهل العز والكرم . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑱ ﴾ [الرحمن]

أما قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ㉟ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㊱ ﴾ [الرحمن]

فأيُّ نعمة فى أنْ يُرسل الله عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران ؟

نعم ، المتأمل فى هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نعَم الله ، ألا وهى زَجْر العاصى عن المعصية ، ومسرَّة للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ⑪ ﴾

(يَدْعُ) الدعاء : طلَب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون . إن الفعل : ماضٍ ومضارع وأمر . فالأمر : طلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكلّ طلب من الله لخلْقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إنْ كان الطلب من مُسَاوٍ لك فهو التماس أو رجاء . فإنْ كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلبِ العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق فى الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظِّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لى ، فيقول : اغفر ، فعْل دالّ على الدعاء ، لأنه لا يجوز فى حَقِّ المولَى تبارك وتعالى أن نقول : فعل أمر ، فالله لا يأمره أحد .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

فأوَّل مـا يُفهم من الدعاء أنه دلّ على صـفة العجـز والضعف في العبـد ، وأنه قد اندكتْ فيـه ثورة الغرور ، فعلِـم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجَّه إليه بالدعاء .

(بِالشَّـرِّ) بالمكروه ، والإنسـان لا يدعـو على نفسـه ، أو على ولده ، أو على مـاله بالشـر إلا في حـالة الحنَق والغـضـب وضـيق الأخلاق ، الذي يُخرِج الإنسان عن طبيعته ، ويُفقِـده التمييز ، فيتسرّع في الدعاء بالشر ، ويتمنى أن يُنفِّذ الله له مَا دعا به .

ومن رحمة الله تعالى بعبـاده ألاَّ يستجيب لهم هذا الدعاء الذي إنْ دلّ فإنما يدلّ على حُمْق وغباء في العبد .

وكثيراً ما نسمع أماً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لهـا ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن : فمن رحمـة الله بنا أنْ يفوت لنا هذا الحمق ، ولا يُنفِّذ لنـا ما تعجّلناه من دُعاء بالشر .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [يونس]

أي : لو استجاب الله لهم في دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

وإن كنت تُسَرّ وتسـعد بأن ربك سبـحانه وتعالى فـوّتَ لك دعوة بالشر فلم يَسْتجب لها ، وأن لعدم استجابته سبحانه حكمةٌ بالغةٌ .

فاعلم أن لله حكمة أيضـاً حينما لا يستجيب لك في دعـوة الخير ، فلا تقلْ : دعـوتُ فلم يستجِبْ لي ، واعلم أن لله حـكمة في أن يمنعك

خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكأن وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيسَ الأمرين بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر ، ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه حكمة في الأولى ، فله حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله ﷺ على أنفسهم ، فقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقَضى عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن لله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحمقى ، وها هم الكفار باقون حتي اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهدنا إليه ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد ﷺ ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرُّع ، كما قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الكسفة : القطعة . وكسَف السحاب وكسفه : قطعه . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفي المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

أي : أن الإنسان يدعو بالشر في إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا[1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظِّر بالليل والنهار في جنس الإنسان

---

(١) محونا : طمسنا . وقال علي بن أبي طالب وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبي ٩/٣٩٥٦] .

من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصُّباً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

تأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فلا تجعل الليل ضداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أنْ نعرِّفهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مَغيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشيء أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدث عنهما ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] فبدأ بالضحى .

ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ (١) ﴾ [الأنعام]

لأن الحكمة من الليل تكمن فى ظُلْمته ، والحكمة من النهار تكمُن فى نوره ، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفى الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] .

فى حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة ـ التى نراها الآن ـ مظهر حضارى ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهى ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعْي ، فمَن ارتاح فى الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

لماذا ؟ ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى الليل .

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى النهار .

إذن : لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجِد عمل لا يُؤدَّى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل ـ أو كان جنح الليل ـ فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة ، ولكن في أضيق نطاق ، فمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل ، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرَّد على هذا النظام الإلهي ، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه .

هذا الردْع إما رَدْع ذاتيّ اختياري ، وإما رَدْع قَهْريّ ، الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه ، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفي هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السلَّم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادي .

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان ، إذا ما تجاوز حَدّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردْع القهرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتي دور الرادع القَسْرى ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكأن الطبيعة التى خلقها الله فيه تقول له : ارحم نفسك ، فإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلِم الإنسان لاختياره ، بل يُلقى عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منّا إذا ما تعرّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أنْ ينام مثل هذه المدة التى سهرها ؛ ليأخذ الجسم حقَّه من الراحة التى حُرم منها .

وقوله تعالى : ﴿ آيَتَيْنِ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يدعو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء :

- تُطلَق على الآيات الكونية التى خلقها الله فى كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقى بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ⦗٣٧⦘ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ⦗٣٢⦘ ﴾ [الشورى]

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

- وتُطلق الآيات على المعجزات التى تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخَلْق ، لا بُدَّ أن يأتى بدليل على صدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هى المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا ؛ لتكون أوضح فى إعجازهم وأدْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

- وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة ، فى كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففى الأولى : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفى الثانية : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشىء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفى الثالثة : آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : كونيتين ، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن .

وقوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام ، أو مَحوْناهَا : أى جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحان مَنْ بيَّض اللبن . أى خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : نرى بها الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغى أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها ، وليست هى مبصرة .

وهذه كما في قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. ⓭ ﴾ [النمل]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيَّرتْ الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى « ابن الهيثم » الذى نَوَّر الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لأمكنك أن ترى الأشياء فى الظُّلمة إذا كنتَ فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشىء المرئى ؛ ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت فى الضوء ، ولا نراها إنْ كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشىء المرئىّ هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شىء يُلفت النظر أى : يرسل إليك ما يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ⓬ ﴾ [الإسراء] على مستوى عالٍ من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ⓯ ﴾ [فصلت]

وقوله تعالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وهذه هي العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أي : أن السعي وطلب الرزق لا يكون إلا في النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السَّعي والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد في الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد في قوله تعالى :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

فالترتيب في الآية يقتضي أن نقول : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أي : في الليل ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أي : في النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما - إذن - متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله ؛ لأن الحركة أمرٌ ماديٌ وتفاعل ماديٌ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آلته .

هذا التفاعل المادي لا يتم إلا في ضوء ؛ لأن الظلمة تغطي الأشياء وتُعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما في السعي والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له ، ففي الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التى يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ۝١ ﴾ [الأنعام]

لأن النور محلٌ للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا فى ظُلْمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝١٢ ﴾ [الإسراء]

وهذه هى العِلّة الأخرى لليل والنهار ، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشىء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد .

وقوله : ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝١٢ ﴾ [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا فى الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح . وفى العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر فى الليل ، والشمس فى النهار ، ولكل منهما مهمة فى حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذى أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهى بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

أساسها ، فهو فى أول الشهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ فى التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝٥﴾ [يونس]

فقوله : ﴿قَدَّرَهُ.. ۝٥﴾ [يونس] أى : القمر ؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدق نظام حسابى يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و ﴿مَنَازِلَ.. ۝٥﴾ [يونس] هى البروج الاثنى عشر للقمر التى أقسم الله بها فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه فى كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى نفسها منضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدِّم أو تُؤخِّر) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت فى كَوْنه :

---

(١) أى : قدرنا له فى سيره أن ينزل فى أماكن محددة ، تجعله مرة هلالاً ، ومرة بدراً ، ومرة كالعرجون القديم فى إشراقه على المحاق آخر الشهر . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن]

أي : بحساب دقيق لا يختلّ ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ۝ ﴾ [الإسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين ، وتقول : فصلْتُ شيئاً عن شيء ، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر في كل نواحي الحياة .

ومثال ذلك في الوضوء مثلاً يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ.. ۝ ﴾ [المائدة]

فأطلق غَسْل الوجه ؛ لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدَّد الأيدي إلى المرافق ، لأن الأيدي يُختلف في تحديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.. ۝ ﴾ [المائدة]

فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل ، والرِّجْلان كاليد لابُدَّ أنْ تُحدَّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا[1] طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ .. ۝ ﴾ [النساء]

---

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعي : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب بيديه وجه الأرض ، ولا يبالي أكان في الموضع تراب أو لم يكن ، لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظنّ البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمُّم ؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنظِّف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، وإلا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب ؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذى جعل سيدنا على زين العابدين رضى الله عنه يَصْفرّ وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئِل عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن ؟

فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأنْ يستعدّ للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ(1) فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

كلمة (طائره) أى : عمله وأصلها أن العرب كانوا فى الماضى يزجرون الطير ، أى : إذا أراد أحدهم أنْ يُمضى عملاً يأتى بطائر ثم يطلقه ، فإنْ مرّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح »(2) ويتفاءلون

---

(1) قال الحسن : أى شقاوته وسعادته ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(2) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك . [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

به ، وإنْ مرّ من اليمين إلى اليسار يسمونه « البارح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .

إذن : كانوا يتفاءلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبى ﷺ يحب الفأل الحسن[1] ، ولا يحب التشاؤم ؛ لأن الفأل الطيب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضى على الحركة والتفاعل فى الكون .

والحق سبحانه هنا يُوضّح : لا تقوّلوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائرك أى : عملك فى عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً ، ولا يُسأل عنه غيره ، كما أنه لا يُسأل عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ⟨١٥⟩ ﴾ [الإسراء]

فلا تُلْقى بتبعة أفعالك على الحيوان الذى لا ذنب له .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⟨١٣⟩ ﴾ [الإسراء]

وهو كتاب أعماله الذى سجّلته عليه الحفظة الكاتبون ، والذى قال الله عنه : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ⟨٤٩⟩ ﴾ [الكهف]

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً . أى : مفتوحاً مُعداً للقراءة .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعجبني الفأل الصالح ، والفأل الصالح : الكلمة الحسنة » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١١٨ ، ١٥٤) وأبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى (حديث ٧٩٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يدىْ ربه عزَّ وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه[1] ، ويُقِر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه فى الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه فى خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدى ، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه فى كل هذا مُسخَّرة طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففعلُها لك ليس دليلاً على

---

(١) قال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمك ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المملى على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٨] .

الرضى عنك ؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارهة وهي لاعنةٌ له ، وهي مُبغضة له ولفعله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلَّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

أي : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنيّ عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه ، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة

كلها من أرض وسماء ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق ، إذن : فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضرَّه سبحانه في شيء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفي صالحهم ، لكي تستمر حركة حياتهم ، وتتساند ولا تتعاند ؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ، من الخالق الذي يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ، فلو كان منهجَ بشرٍ لبشر لكان لك أنْ تتأبّى عليه ، أما منهج الله فلا ينبغي الخروج عليه .

لذلك نسمع في الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع الذي يقطعه الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذي أمر بذلك ، فلا اعتراضَ عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعدْ .

ومن كماله سبحانه وغنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو تقصير ؛ ذلك لأن كل شيء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فإذا كلَّفتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصَّر في قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفَّق تجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلِّمنا الإسلام قبل أن نَعد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخَرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا - إذن - في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفِّقْتُ فبها ونعمت ، وإنْ عجزتُ فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضِّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك : تمهل فلكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفْته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا غير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر في مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والنـاسُ يلْحون الطَّبيبَ وإنَّما ... خطَـأُ الطَّبيبِ إصَـابةُ الأقْدارِ

فيقول الحق تبارك وتعالى : ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ..(١٥)﴾ [الإسراء] أى : لصالح نفسه .

والاهتداء : يعنى الالتزام بمنهج الله ، والتزامك عائد عليك ، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً ، وأنت المنتفع فى كل الأحوال بهذا المنهج ؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله ، وأن تفرحَ باستقامته ، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه ؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك فى حركة حياتك .

وفى المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا..(١٥)﴾ [الإسراء]

أى : تعود عليه عاقبةُ انصرافه عن منهج الله ؛ لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرّه ، ويشقى به المجتمع .

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سيء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية ، ويدعو الله عليه ، وهو لا يدرى أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة ، ويُوسِّع الخَرْق على الراقع كما يقولون .

فهذا المنحرف فى حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية ، حتى تستريح أولاً من شرِّه ، ثم لتتمتع بخير هدايته ثانياً . أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه ، ويزيد من شقاء المجتمع به .

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير ، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس ؛ لأنك حينما تُعَدِّى الخير

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خِلالك الحميدة ، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ :« من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[1] .

وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهى أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صَنْعة صَنْعته ، فالإنسان فى حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً ، لكن حاجاته فى الحياة كثيرة ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ، وهو يحتاج فى حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح .. الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخَّر الله له مَنْ يتقن له حاجته ، ولو رَغْماً عنه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس فى كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ، فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦ ـ موارد الظمآن) ، والحاكم فى مستدركه (١٠٢/١) وقال : هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة . وأقره الذهبى .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ⁽¹⁵⁾﴾ [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ ، ولا يُؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره ، وكلمة : ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ .. ⁽¹⁵⁾﴾ [الإسراء]

من الوزر : وهو الحملُ الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فعدلُ الله يقتضى أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى : ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ..⁽³³⁾﴾ [لقمان]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مآخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ⁽¹⁵⁾﴾ [الإسراء]

وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. ⁽¹³⁾﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ⁽²⁵⁾﴾ [النحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمَّل وِزْر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم .

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوى الشريف : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبنى عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمنى أن هذه مخالفة أو جريمة (وهي العمل الذى يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمةَ إلا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنِّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها فى الجرائد الرسمية لكى يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى فى القانون الوضعى نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصٍّ إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان فى أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من منطلق هذه الآية .

أما أنْ يُجرِّم هذا العمل ، ويُعلَن عنه فى الصحف الرسمية ، فلا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

حجة لمَنْ جهله بعد ذلك ؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفى من العقوبة .

فكان قول الله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾[الإسراء] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدِّد لهم ما جرَّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]

ويقول : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ[1] مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ.. ﴿١٩﴾﴾ [المائدة]

إذن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمد ﷺ ، فما بال الكافر الذى لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركَّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيماني هو الفطرة ، هذه الفطرة هى المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل في صحراء واسعة شاسعة لا تجد

---

(١) الفترة : هى المدة من الزمن التى تفصل بين نبيين . [القاموس القويم ٢/ ٧١] .

فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

بالله ألاَ تفكّر في أمرها قبل أن تمتدّ يدُك إليها ؟ ألاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عَمَّنْ أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدّ أنْ يهتديَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدِعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوِّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التي تنير الكون على بُعْدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، ألاَ تسترعي هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً بـ « اديسون » الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربي القُحُّ الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال في بساطة العربي : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : بالفطرة التكوينية التي جعلها الله في الإنسان يمكن له أن يهتدي إلى أن للكون خالقاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحينما يأتي رسول من عند الله يساعده في الوصول إلى ما يبحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقه ، وأن هذه القوة الخفية التي حيّرتْك هي (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ، ولم يعارضه أحد ولم يَدَّعِ أحد أنه إله مع الله ، وبذلك سلِمَتْ له سبحانه هذه الدعوى ؛ لأن صاحب الدعوة حين يدَّعيها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانية في الإنسان هي التي عناها الحق سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو العَهْد الإلهي الذي أخذه الله على خَلْقه وهم في مرحلة الذَّرِّ ، حيث كانوا جميعاً في آدم ـ عليه السلام ـ فالأنْسَال كلها تعود إليه ، وفي كل إنسان إلى يوم القيامة ذرة من آدم ، هذه الذرة هي التي شهدتْ هذا العهد ، وأقرَّتْ أنه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة في فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافر الذي أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنها ، وهي تدعوه

---

(١) يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران]

إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام ؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجوع أو لمستَه أو شمَمْته ؟ إنها الفطرة والغريزة التي جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه في حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسبِّح بحمد ربِّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين في المؤمن وفي الكافر تُسبِّح بحمد ربها ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسبِّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادي .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذرَّاته وأعضائه في ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرَّاته وأعضاؤه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته في طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضاءه في انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات]

وكان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ، لأنه في انسجام تام

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قلبه . أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٣١/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٣٨) : « يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي » .

مع إرادته ﷺ . وما أشبه الإنسان في هذه القضية بسيد شرس سيء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادى له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تَفكَّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف في الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان في تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبِّح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه وكأنه

(كورس) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ .. ⑩ ﴾ [سبأ]

أى : رَجِّعى معه وردِّدى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى جنسها[1] ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ .. ⑲ ﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون : سبَّح الحصى فى يد النبى ﷺ نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح فى يده ﷺ كما يُسبِّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

---

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير قالت نملة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑱ ﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ⑲ ﴾[النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحببه إلىَّ .

والحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهى كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شيء دونك حياة أيضاً ، لكن ليستْ كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فكل ما يُطلق عليه شيء مهما قَلَّ فهو هالك ، والهلاك ضد الحياة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] فدلَّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فإن اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذى يُعلِمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن الله ، ويُنبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يعطينا مثالاً لعاقبة الخروج عن منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه ، فلا عُذْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ، الذي يستحق منا الطاعة والانقياد . وكيف يتقلب الإنسان فى نعمة ربه ثم يعصاه ؟ إنه ردٌّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذى

يسوقه إليك ليل نهار ، بل في كل نَفَسٍ من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْر لمَنْ خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من يأكل لقمتي يسمع كلمتي » .

كما أن هذا المنعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك في وقت مناسب ، في وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع في نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأوْلَى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتُنفِّذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من عدم وأمدَّك من عُدْم .

والمتأمل في قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يُكلِّف بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبي ﷺ هذه القضية فقال : « مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[(١)] .

وهذا التكليف وإنْ كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الآمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول في هذه السنّ من القريب المباشر المحسّ أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسّة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أدْعَى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد في هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقي ، وهو الله تعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٥) ، وأحمد في مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك أمر الآب أن يـعوِّد ولده على تحمُّل التكليف وأن يعاقـبه إنْ قصَّر ؛ لأن الأمـر بالفعل هو الذى يُعاقب على الإهمال فـيه . حتى إذا بلغ الولد سِنَّ التكليف الحـقيـقى من المنعم الأعلى سبحانه كـان عند الولد أُنْس بالتكليف وتعـوُّد عليه ، وبذلك يأتى التكليف الإلـهى خفيـفاً على النفس مألوفاً عندها .

أما إن أخذتَ نعمَ الله وانصرفتَ عن منهجه فطغيْتَ بالنعمة وبغيتَ فانتظر الانتقـام ، انتظر أَخْذه سبحانه وسنـته التى لا تتخلف ولا تُردُّ عن القوم الظالمين فى الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضرورى لحفظ سـلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمـين والعـاصـين والمـتكبـرين يرتعُـونَ فى نعَم الله فى أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأنْ يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أمـا إنْ رأوْا انتقـام الحق سبـحانه من هؤلاء ، وشـاهدوهم أذلاَّء منكسرينَ ، فـسوف يأخـذون منهم عبرة وعظة ، والـعاقل مَن اعتـبر بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمـة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاقَ بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عبرةً ومُثْلة ، ومَنْ لم يعتـبر كان عـبرة حتى لمَنْ لـم يؤمن ، وبذلك تعتدل حـركة الحياة ، حـيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسديـن من خراب ودمار ، وإذا استقرأت البلاد فى نواحى العالم المختلفة لتيسَّر لك الوقوف على هذه السُّنة الإلهية فى بلاد بعينها ، ولاسـتطعْتَ أن تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وإياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلا بُدَّ أن يأتى اليوم الذى يأخذهم فيه أخْذَ عزيز مُقْتدر ، وإلاَّ لكانت أسْوة سيئة تدعو إلى الإفساد فى حركة الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

الآفة أن الذين يستقبلون نصَّ القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ مترتبة على الأمر الذى قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذى أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، فتعالوا نَرَ أوامر الله فى القرآن :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٥) ﴾ [البينة]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١) ﴾ [النمل]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

فأمْر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا ؛ لذلك حقَّ عليهم العذاب .

---

(١) رَغَدُ العيش : اتسع وطاب . يقول تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] . أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

والأمر : طَلَب من الأعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخَلْق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا ؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أى أهل القرية .

وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلَم حركة الحياة ، وليحمى المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عَيْن ، وليستْ هذه هى الأولى ، بل إذا استقرأتَ التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يُبْقِ منها إلا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

فأين عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح ؟ إذن : فالآية قضية قولية ، لها من الواقع ما يُصدِّقها .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ .. ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]

دلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح ؛ لأن الناس كانوا قريبي عهد بخلْق الله لآدم ـ عليه السلام ـ كما أنه كان يُلقِّنهم معرفة الله وما يضمن لهم سلامة الحياة ، أما بعد نوح فقد ظهر الفساد والكفر والجحود ، فنزل بهم العذاب . الذى لم يسبق له مثيل .

قال تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]

ولنا وَقْفة سريعة مع هذه الآيات من سورة الفجر ، فقد خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر]

و ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى : ألم تعلم ؛ لأن النبى لم يرَ ما فعله الله بعاد ، فلماذا عدل السياق القرآني عن : تعلم إلى ترَ ؟

---

(١) الحجر : العقل ، لأنه يمنع صاحبه ويحجزه عما لا يليق به . قال تعالى : ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر] . أى : لصاحب عقل . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

قالوا : لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾ [الفيل]

حيث وُلِد رسول الله في عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التي لفتتْ أنظار العالم كله ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⑧ ﴾ [الفجر]

أي : لا مثيلَ لها في كل حضارات العالم ، في حين قال عن حضارة الفراعنة : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ⑩ ﴾ [الفجر]

مجرد هذا الوصف فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ .. ⑰ ﴾ [الإسراء]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو في الاصطلاح الزمني مائة عام ، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً في الحياة ، ولو على مبدأ من المبادىء ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ، قرن هود ، قرن فرعون . أي : الفترة التي عاشها .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ⑰ ﴾ [الإسراء]

أى : أنه سبحانه غنىٌّ عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ[1] الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩ ﴾ [غافر]

فلا يحتاج لمَنْ يخبره ؛ لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟

نقول : لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين :

الأولى : كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شىء لا يعلمه ، فالهدف أنْ يعلم ما جهل .

والأخرى : كأن يسأل الأستاذ تلميذه فى الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ .. ۝١٧ ﴾ [الإسراء]

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩ ﴾ [غافر] قال : الرجل يكون فى القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أنه ينظر إلى عورتها [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٧/٢٨٢] .

كما تقول : كفى بفلان كذا ، أى : أنك ترتضيه وتثقُ به ، فالمعنى : يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى في يده كل السلطات حينما يقضي : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنيٌّ عن الشهود والبينة والدليل .

إذن : كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا(١) مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، خلق له الكون كلّه بما فيه ، وخلق له جميع مُقوّمات حياته ، ووالى عليه نعَمه إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم ، وجعل من مُقوّمات الحياة ما ينفعل له وإنْ لم يُطلب منه ، كالشمس والقمر والهواء والمطر ... الخ فهذه من مُقوّمات حياتك التى تُعطيك دون أنْ تتفاعلَ معها .

ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل لك ، إلا إذا تفاعلتَ معه ،

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصلَى بالنار . [لسان العرب - مادة : صلا] .

كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفعلتْ لك ، وأعطتك الإنتاج الوفير .

والمتأمل في حضارات البشر وارتقاءاتهم في الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مُقوِّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقي الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مُقوِّمات الحياة ، والذى يعطيه دون أنْ يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصَّل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس في الكون ، الذى يُحسِن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثْرى الإنسان حياته ويرتقى بها ، وهذا ما أسْميناه سابقاً عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : عطاء الدنيا ومتعها ورُقيها وتقدّمها .

﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

أجبْناهُ لما يريد من متاع الدنيا .

ولا بُدَّ لنا أنْ ننتبه إلى أن عطاء الربوبية الذى جعله الله للمؤمن

والكافر ، قد يغفل عنه المؤمن ويترك مُقوّمات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقي بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالى تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما فى أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلّة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفى أن نأخذ عطاء الالوهية من أمر ونهي وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومُقوّماتها المادية التى لا قوامَ للحياة إلا بها .

فى حين أن المؤمن أوْلَى بمقوّمات الحياة التى جعلها الخالق فى الكون من الكافر الذى لا يؤمن بإله .

إذن : فمن الدين ألاَّ تمكّن أعداء الله من السيطرة على مُقوِّمات حياتك ، وألاَّ تجعلَهم يتفوقون عليك .

وقوله : ﴿مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. ⦗١٨⦘﴾ [الإسراء]

أى : أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلقاً ، بل للمشيئة تدخُّلٌ فى هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفى هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿مَا نَشَاءُ ..﴾ للمعجَّل و ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ للمعجَّل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رُقىِّ الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليستْ فى باله ، وليست فى حُسْبانه ؛ لذلك

لم يعمل لها ، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صفراً لا نصيبَ له فيها ؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدّم ، وهذا قَدّم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقيّ والتقدّم والتكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير في الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجدهُ شيئاً ، كذلك إنْ عمل الكافرُ خيراً في الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجدْ له شيئاً من عمله ؛ لأنه أخذ جزاءه في الدنيا .

ثم تأتي المفاجأة : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

لأن الله تعالى لم يكُنْ في حُسْبانه حينما قدّم الخير في الدنيا .

وفي آية أخرى يَصِفه القرآن بقوله : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فمرة يُشبِّه عمل الكافر بالماء الذي يبدو في السراب ، ومرة يُشبِّهه بالرماد ؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخصب والنماء ، وهو مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

(١) الصفوان : الحجر الأملس . قال ابن سيده : الصفاة الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

والحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يُجسِّم لنا خَيْبة أمل الكافر فى الآخرة فى صورة مُحسَّة ظاهرة ، فمثَّلُ عمل الكافر كحجر أملس أصابه المطر ، فماذا تنتظر منه ؟ وماذا وراءه من الخير ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : أعددناها له ، وخلقناها من أجله يُقاسى حرارتها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ أى : يذمُّه الناس ، والإنسان لا يُذَمّ إلا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه .

و ﴿ مَّدْحُوراً (١٨) ﴾ [الإسراء] مطروداً من رحمة الله .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة ، وما انتهى إليه من العذاب ، يعطينا صورة مقابلة ، صورة لمن كان أعقل وأكيس ، ففضَّل الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾

المتأمل فى أسلوب القرآن الكريم يجده عادة يُعطى الصورة ومقابلها ؛ لأن الشيء يزداد وضوحاً بمقابله ، والضدُّ يظهر حُسْنه الضدّ ، ونرى هذه المقابلات فى مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى

كما فى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ .. (١٩) ﴾ [الإسراء] فى مقابل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا .. (١٩) ﴾ [الإسراء]

أى : أراد ثوابها وعمل لها .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (١٩) ﴾ [الإسراء]

لأن الإيمان شَرْط فى قَبُول العمل ، وكُلُّ سعى للإنسان فى حركة الحياة لابُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكى يُقبَل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة . فالعامل يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدَّموا هذه الإنجازات لم يكُنْ فى بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدُّمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذى يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يُدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبى ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص[1] قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر سُمّى بذلك لثقل مَشْيه ، واحدته قطاة . ومفحص القطاة : حيث تُفرّخ فيه من الأرض . والفحص : شدة الطلب خلال كل شىء . والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها فى التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها [لسان العرب ـ مادة : فحص ، قطا] .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٣٨) من حديث جابر بن عبد الله . قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » .

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول : أنشأه فلان ، وافتتحه فلان ... الخ مع أنه قد يكون من أموال الزكاة !! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ، ويُقدم بنفسه ما يُحبطه ، إذن : فقد فعل ليقال وقد قيل . وانتهت القضية .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نِعَمه ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته ؟

وهذا يدل على أن العمل الإيماني يُصادف شُكْراً حتى من المخالف له ، فاللص مثلاً إنْ كان لديه شيء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذي يحفظه ؟

فاللصّ لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، في حين يحترم الأمين مع أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبي ﷺ وكفرهم بما جاء به إلا أنهم كانوا يأتمنونه على الغالي والنفيس عندهم ؛ لأنهم واثقون من أمانته ، ويلقبونه « بالأمين » ، رغم ما بينهما من خلاف عقديّ جوهري ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفظ الأمانات فلن يغشُّوا أنفسهم ، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد ﷺ[1] .

---

(١) حدث هذا عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، يقول ابن هشام في السيرة النبوية (٤٨٥/٢) أن النبي ﷺ أمر عليّ بن أبي طالب « أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ » .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذى تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنِ استعان بك فى نقيصة فقد سقطْتَ من نظره ، وإنْ أعنتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الراس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ كُلاً ﴾ أى : كلاً الفريقين السابقين : مَن أراد العاجلة ، ومَن أراد الآخرة : ﴿ نُمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوِّمات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات فى الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها فى المعصية ، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً ، فالأول تصدّق بماله ، والآخر شرب بماله خمراً .

إذن : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية المتمثل فى منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : ممنوعاً عن أحد ؛ لأن الجميع خَلْقه تعالى ، المؤمن والكافر ، وهو الذي استدعاهم إلى الحياة ، وهو سبحانه المتكفّل لهم بمُقوّمات حياتهم ، كما تستدعي ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضيافة .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله : ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠)﴾ [الإسراء]

لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية ، وهو سبحانه ربّ كلّ شيء . أي : مُربّيه ومتكفّل به ، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية ، ويريد منّا أنْ ننظر في الطبيعة والكون ، وسوف نجد فيه صدْق ما قال .

يقول تعالى : ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ..(٢١)﴾ [الإسراء]

والمتأمل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عاماً ، فلم يُبيِّن مَن المفضَّل ومَنِ المفضَّل عليه ، فلم يقُلْ : فضلت الأغنياء على الفقراء ، أو : فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن : فما دام في القضية عموم في التفضيل ، فكلُّ بعض مُفضَّل

فى جهة ، ومُفضّل عليه فى جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة فى التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غنى ، وهذا لأنه صاحب منصب .. الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلّ زوايا الحياة وجوانبها ؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونُسَخاً مُعَادة ، بل يُريدنا أُنَاساً متكاملين فى حركة الحياة ، ولو أن الواحد منّا أصبح مَجْمعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفضّلاً فى خَصْلة ، وجعل غيرك مُفضّلاً فى خصال كثيرة ، فأنت محتاج لغيرك فيما فُضّل فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضّلْتَ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل فى المجتمع ، وتسلَمُ للناس حركة الحياة .

ونستطيع أن نخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول : إن مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فإنْ زِدْتَ عنى فى المال فربما أزيد عنك فى الصحة ، وهكذا تكون المحصلة النهائية متساوية عند جميع الناس فى مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقى بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزمَ أدب الإسلام فى حفْظ مكانة الآخرين ، فمهما كنت مُفضّلاً فلا تحتقر غيرك ، واعلم أن لهم أيضاً ما يفضلون به ، وسوف يأتى اليوم الذى تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذى قد تضطره الظروف وتُحوِجه لسباك أو عامل بسيط ليؤدى له عملاً لا يستطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط فى هذا الموقف مُفضّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أنْ تتصورَ الحال مثلاً إذا أضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهما كان الإنسان بسيطاً ، ومهما كان مغموراً فإن له مهمة يفضّل بها عن غيره من الناس .

خُذ الخياط مثلاً ، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس ؛ ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيطَ للناس ثيابهم ، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات ، الجميع يقبلون عليه ، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضى حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ[1] فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

فكل منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضِّل فيه ، وفيما نبغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ للناسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

إذن : فى التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة ؛

---

(١) قال قتادة : فتلقاه ضعيف الحيلة ، عييّ اللسان ، وهو مبسوط له فى الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه . [الدر المنثور ٧/٣٧٥] .

(٢) سخره يسخره : أذله وقهره وأخضعه . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس منّا مَن هو ابن لله ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسَبٌ أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أوْلَى من أحد .

فالعاقل حين ينظر في الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها ، وبذلك يندكّ غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ في مجال من المجالات ، فغيره نابغ في مجال آخر ؛ لأن النبوغ يأتي إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين تنظر إليهم نظرة احتقارٍ ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبةَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ۝٢١ ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان التفاضل بين الناس في الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف في الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها .

ولو تأملتَ حالك في الدنيا ، وقارنتَه بالآخرة لوجدتَ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك في الدنيا موقوت ، وسينتهي إلى الموت ؛ لأن عمرك في الدنيا مدة بقائك فيها ، فإنْ بقيتْ من بعدك فهي لغيرك ، وكذلك ما فُضّلْتَ به من نعيم الدنيا عُرْضَةَ للزوال ، حيث تناله الأغيار التي تطرأ على الإنسان .

فالغنيّ قد يصير فقيراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكانياتك وتفاعلك مع الأسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقَّنة وغير موثوق بها .

وهَبْ أنك تنعَّمْتَ في الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنغِّصه أمران : إما أن تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أنْ يفوتك هو بما تتعرَّض له من أغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتدٌ لا ينتهي ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهي نعمة لا حدودَ لها ؛ لأنها على قَدْر إمكانيات المنعِم عز وجل ، في دار خلود لا يعتريها الفناء ، وهي مُتيقنة موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن ؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكُّر والتعقُّل :

﴿ انْظُرْ ﴾ أيَّ الصفقتين الرابحة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

إذن : فالآخرة أعظم وأكبر ، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأدخلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من روعة وجمال ومظاهر الرقي والرفاهية .

وفعلاً كان هذا الفندق آية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيتُ رفاقي وكانوا من علية القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة : هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أنْ تثير فينا الشوق لنعيم دائم فى الجنة ؛ لا أنْ يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعِّد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإنْ كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقِيّ وعمارة فى الدنيا من صُنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إنْ كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى ؟

ويجب ألاَّ نغفلَ الفرْق بين نعيم الدنيا الذى أعدَّه البشر ونعيم الآخرة الذى أعدَّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس فى رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتى لك منه الشاى مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتى لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إنْ تفاعلتَ معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ، ومهما تقدَّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أنْ يقدموا لك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذى أعده الخالق سبحانه لعباده الصالحين[1] .

إذن : فما دام الأمر كذلك ، وسلَّمنا بأن الآخرة أفضل وأعظم ، فما عليك إلاَّ أنْ تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال قال الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] .

لأنه سبحانه أعطاك فى الدنيا ، وأمدّك بالأسباب ، وبمقوّمات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عُدْم ، حتى وإنْ كنت كافراً ، ثم أعدَّ لك فى الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذى لا يَفْنى ولا يزول .

وهذه هى الحيثيات التى ينبغى عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجّه إليه ، وتلتحم به وتكون فى معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر ؛ لأنك إنْ فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمّة والخُذْلان فى الدنيا والآخرة .

وسوف تُفَاجأ فى القيامة بربك الذى دعاك للإيمان به فكفرْتَ .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك.

ويقول تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾ [الإسراء]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكى ما يصير إليه الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام ، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوة ، وكأنه سقط إلى الأرض ، بعد أنْ أصبحتْ رِجلاه غير قادرتين على حَمْله ، ولم تَعُد به قوة للحركة .

ونلاحظ فى تعبير القرآن عن هذا الذى خارتْ قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وَضْع القعود خاصة ، ولم يَقُلْ مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم ، ففى النوم يفقد الإنسان الوعى فلا يشعر بالعذاب ، بل قال ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ هكذا شاخص يُقاسى العذاب ؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التى تُحِسّ وتألم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية ؛ لأن التخدير يُفقده الوعى فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء]

وقال : ﴿وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا.. ﴿٦٠﴾﴾ [النور]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفى الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو فى عذاب مستمر .

وفى مجال الذم قال الشاعر :

دَعِ المكارِمَ لاَ ترحل لِبُغْيتِهَا وَاقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسى

وقوله : ﴿مَذْمُومًا .. ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿مَخْذُولاً ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] من الخذلان ، وهو عدم النُّصْرة ، فالأبعد فى موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات]

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال ، فيقول سبحانه :

---

(١) القواعد من النساء : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ، ولم يبق لهن تشوف إلى التزوج . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠٤) عن سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان والضحاك وقتادة .

﴿ وَقَضَىٰ[1] رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) ﴾

بعد أنْ وجَّهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. (٢٢) ﴾ [الإسراء]

أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا بالعمل ، فلا يكفي أن تعرف الله وتتوجَّه إليه ، بل لا بُدَّ أنْ تنظر فيما فرضه عليك ، وفيما كلَّفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات الكتاب الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن يدعُوك ولن يُسالموك ، ولا بُدَّ أن تُسلِّح نفسك بالحق والقوة والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القوليّ فقط ، أن كفار مكة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألةَ الإيمان بإله واحد وتنتهي القضية لكانوا قالوها وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون

---

(١) قضى : أي : أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . [تفسير القرطبي ٥/٣٩٦٥] .

تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

ومن هنا رفضوا الإيمان بإله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله ﷺ الذى جاء ليُبلغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلِّغه للناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

وما هى أول الأحكام فى منهج الله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

وقد آثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) ؛ لأن الربَّ هو الذى خلقك وربَّاك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أدْعَى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعِم عليه وصاحب الفضل .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

الخطاب هنا مُوجَّه إلى النبى محمد ﷺ ؛ لأنه هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حقَّة ؛ لأن الله تعالى هو الذى ربَّاه ، وأدَّبه أحسن تأديب .

وفى الحديث الشريف : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[١] .

---

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : « أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف . ولكن معناه صحيح » .

قضى : معناها : حكم ؛ لأن القاضي هو الذي يحكم ، ومعناها أيضاً : أمر ، وهي هنا جامعة للمعنيين ، فقد أمر الله ألاَّ تعبدوا إلا إيَّاه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاه وحكم لازم .

وقد تأتي قضى بمعنى : خلق . كما في قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (١٢) ﴾ [فصلت]

وتأتي بمعنى : بلغ مراده من الشيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وقد تدل على انتهاء المدة كما في : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

وتأتي بمعنى : أراد كما في : ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾ [غافر]

إذن : قضى لها معانٍ مُتعدِّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء اللازم المؤكَّد الذي لا نقضَ فيه .

وقوله : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

العبادة : هي إطاعة آمر في أمره ونهيه ، فتنصاع له تنفيذاً للأمر ، واجتناباً للنهي ، فإنْ تركَ لك شيئاً لا أمرَ فيه ولا نهيَ فاعلم أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

---

(١) الوطر : الحاجة التي يحتفي بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أي : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] . أي : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/٣٤٣] .

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجوها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هى مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأسِهِ ... لقدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عليْه الثَّعالبُ

فإذا ما تورطوا فى السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهى . فبأىّ شىء أمرتكم الأصنام ؟ وعن أىّ شىء نهتْكُمْ ؟! إذن : كلامُكم كذب فى كذب .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه .. فلقائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغلَق ، كما لو قُلْت : ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً .. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت : ما ضربت إلا فلاناً فقد أغلقتَ باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة عليه سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثانى بعد عبادته : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين فى

آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وقال : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين ؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية ، أم نقرب الثانية بالأولى ؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً ؛ لأن الله تعالى غَيْب ، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسيّ ، فهما سرُّ وجوده المباشر ، وهما ربَّياه ووفَّرا له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية في الوالدين مُحسَّة ، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة ، فأمْر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذي خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُربِّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل رباك الوالدان بما أوجداه هما ، أم بما أوجده الله سبحانه ؟

إذن : لابد أن يلتحم حَقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفي : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

يعنى نهانا أن نعبد غيره سبحانه ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتى بأسلوب نفى كسابقه ، لماذا ؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقلىّ ، وقولك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مَظِنَّة الإساءة ، وهذا غير وارد فى حقّهما ، وغير مُتصوَّر منهما ، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفى عنه فقد ذَمَمْته ، كأن تنفى عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفى عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا فى حقه مدح أم ذم ؟

لأنك ما قلتَ : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظنّ فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نَفْى العيب عمَّنْ لا يستحق العيب عَيْب .

إذن : لم يذكر الإساءة هنا ؛ لأنها لا تَرِد على البال ، ولا تُتصوَّر من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنسَ أن فضل الله عليك أعظم ؛ لأن والديك قد يكِلانك ويُسْلمانك إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿ إِحْسَانًا .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]

كأنه قال : أحْسِنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا[1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]

(١) نهر وانتهر : زَجَر . والانتهار : الزجر ، واستقباله بكلام تزجره به . [لسان العرب - مادة : نهر] بتصرف .

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتي الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف]

ومرّة يُعلّل لهذه الوصية ، فيقول : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]

والذي يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلّة في برّ الوالدين ، والحيثيات التي استوجبت هذا البرّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف]

وقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]

فأين دَوْر الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجْملة ذكرت دور الأب والأم معاً في قوله تعالى : ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا.. ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]

لكن قبل أن يُربّى الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر ؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضي على ولد لهما ، قالت الأم : لقد حمله خفّاً وحملتُه ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً .

لذلك ذكر القرآن الحيثيات الخاصة بالأم ؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج[1] ؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٩٦٧/٥) : « وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب » .

يشعر بها ، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأم الذى لم ندركه ولم نُحِسّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذى يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتى أبوك ، فدَوْر الأب - إذن - معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصتْ بالوالدين فى حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها ؟

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجُّر منهما ، فهما فى حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد فى هذه الحال يتقربون للآباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .

لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً ، وبعد أنْ كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبى ﷺ فى حديث الآمينات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً . فقال :

جاءنى جبريل فقال : رغم أنف مَنْ ذُكِرْتَ عنده ولم يُصلِّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك والديه -

أو أحدهما ـ فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين »[1] .

فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خَيْر الزواج مبكره ، فلما سُئِل قال : لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك في طفولة شيخوختك ، وشبَّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم]

فمَنْ تزوَّج مبكرًا فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كِبَره .

والمتأمل في قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

لم تَأْت صفة الكِبَر على إطلاقها ، بل قيَّدها بقوله : ﴿ عِندَكَ ﴾ فالمعنى : ليس لهما أحد غيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسئولية ، ولا تتنصلْ منها ؛ لأنك أَوْلَى الناس بها .

ويمتد البرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكّنا من الوفاء به ، وكذلك أن نصلَ الرحم

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/٣٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « رغم أنف ، رغم أنف ، رغم أنف رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما عنده الكبر لم يدخله الجنة » . وأخرجه بطوله دون ذكر جبريل ، الترمذي في سننه (٣٥٤٥) وقال : حديث حسن غريب .

التى لا تُوصَل إلا بهما من قرابة الأب والأم ، ونَصِلَ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونَودُّهم .

وقد كان ﷺ يودُّ صاحبات السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان يستقبلهن ويكرمهن[1] .

وانظر إلى سُمُوّ هذا الخلق الإسلامى ، حينما يُعدَّى هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فقد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله فى أمها التى أتتْها ، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صِلِى أمك »[2] .

بل وأكثر من ذلك ، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]

فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوضّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى فى حال كفرهما ولَدَدهما[3] فى الكفر .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فغرت فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) وفى حديث آخر (٢٤٣٤) أنه كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

(٢) عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدمت علىَّ أمى وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم . صلى أمك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٠٣) والبخارى فى صحيحه (٥٩٧٩) .

(٣) اللدد : العداوة الشديدة . والشديد الخصومة . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ويُرْوَى أن خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف بليل ، وأراد أن ينزل في ضيافته ، فسأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن دينه فقال : مجوسي فأعرض عنه وتركه يذهب . فَسرْعان ما أوحى الحق سبحانه إلى إبراهيم مُعاتباً إياه في أمر هذا الضيف : يا إبراهيم لقد وَسعْتُه في ملكي أعواماً عديدة ، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافر بي ، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيِّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك . فأسرع الخليل خلف الضيف حتى لحق به ، وحكى له ما حدث ، فقال الرجل . نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم رسول الله .

وقد رأى المستشرقون لضيق أفُقهم وقلّة فقْههم لأسلوب القرآن الكريم ، رأوْا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا.. (١٥)﴾ [لقمان]

وبين قوله تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.. (٢٢)﴾ [المجادلة]

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، في حين ينهى عن مودّة مَنْ حادّ الله ورسوله ؟

ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربي الذي جاء به القرآن لعلموا أن المعروف غير الودّ ؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع مَنْ يحب ، ومع مَنْ يكره ، مع المؤمن ومع الكافر ، تُطعمه إذا جاع ، وتسقيه إذا عطش ، وتستره إنْ كان عرياناً ، أما المودة فلا تكون إلا لمَنْ تحب ؛ لأنها عمل قلبيّ .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهذا توجيه وأدب إلهيّ يُراعي الحالة النفسية للوالدين حال كِبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطْنة والأدب والرِّفْق في التعامل مع الوالدين في مثل هذه السن .

الوالد بعد أنْ كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أنْ كان قوياً قادراً على السعي والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش ، إذن : هو في وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرْهفة في هذه الحال .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهي لفظة بسيطة أقلّ ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرية تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شيء ، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْري ، وليس الأمر الاختياري .

و ﴿أُفٍّ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالكَ مشاعرك ، وتتحكّم في عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهاني عن هذه فقد نهاني عن غيرها من باب أوْلى ، وما دامتْ هي أقلّ لفظة يمكن أنْ تُقال . إذن : نهانيَ عن القول وعن الفعل أيضاً .

ثم أكد هذا التوجيه بقوله : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

والنهر هو الزَّجْر بقسوة ، وهو انفعال تَالٍ للتضجُّر وأشدّ منه قسوة ، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف فى الحياة ، فلو تصوَّرنا الابن يعطى والده كوباً من الشاى مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريعاً ما يتأفّف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن : كُنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التى تسبق إلى اللسان دون فِكْر ، ودون تعقّل .

ثم بعد هذا النهى المؤكد يأتى أمر جديد ليؤكد النهى السابق :
﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) ﴾ [الإسراء]

وفى هذا المقام تُرْوَى قصة الشاب الذى أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلعق الطعام الذى وقع على ثوبه وهو يقول لوالده : أطعمك الله كما أطعمتنى ، فحوّل الإساءة إلى جميل يُحمَد عليه .

والآخر الذى ذهب يتمرّغ تحت أقدام أمه ، فقالت له : كفى يا بنى ، فقال : إنْ كنتِ تُحبِّيننى حقاً فلا تمنعينى من عمل يُدخلنى الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرُّف واللباقة فى معاملة الوالدين ، خاصة حال الشيخوخة التى قد تُقعد صاحبها ، أو المرض الذى يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أَوْلَى الناس بإعالة الوالدين فى

هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وهَبْ أن الوالد المريض أو الذى بلغ من الكِبَر عتياً يريد أنْ يقضى حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويُقعده ويُريحه ، وينبغى هنا أن يقول الابن لأبيه : هَوِّن عليك يا والدى ، وأعطنى فرصة أردَّ لك بعض جميلك علىَّ ، فلكَمْ فعلتَ معى أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحباً لوالده ، رفيقاً به ، حانياً عليه لا يتبرّم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذى ينتقيه الأبناء فى المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك فى بيتك وقد يحدث منه أنْ يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فتقول له فى هذا الموقف : فداك يا والدى ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر فى شراء واحدة أحدث منها . أو غيره من القول الكريم الذى يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتى المرض مع كِبَر السن ، فترى الوالد طريحَ الفراش أو مشلولاً ـ عافانا الله وإياكم ـ لذلك فهو فى أمسِّ الحاجة لمن يُخفّف عنه ويُواسيه ، ويفتح له باب الأمل فى الشفاء ويُذكّره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كُنْ على ذكْر لفضل الوالدين عليك ، ولا تَنْسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله

تعالى جعل هذه العاطفة الأبويـة تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المربَّى يكون حنان المربِّى .

إذن : نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهى : إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حالَ كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَاخْفِضْ ﴾ : الخفض ضد الرَّفْع .

﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرِف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةً عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة في الطيور، ويجعلها قدوة لنا بني البشر. والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه، ويزقّهم[1] الغذاء يرى عجباً، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام، فيقوم الوالدان بهذه المهمة، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلْعه، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة.

إذن: قوله تعالى: ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ .. (٢٤)﴾ [الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع، والذُّل قد يأتي بمعنى القهر والغلبة، وقد يأتي بمعنى العطف والرحمة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

فلو كانت الذلة هنا بمعنى القهر لقال: أذلة للمؤمنين، ولكن المعنى: عطوفين على المؤمنين. وفي المقابل ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

أي: أقوياء عليهم قاهرين لهم.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق،

---

(١) زقّه: أطعمه بفيه (بفمه). [لسان العرب - مادة: زقق].

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق فى المؤمن مرونة تمكّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التى يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية فى سيرة الصِّدِّيق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّدِّيق اللين ورِقَّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة فى الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله ﷺ إذا تصادم بأحد المعاندين : « ائذن لى يا رسول الله أضرب عنقه »[1] .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان مِنْ رأى عمر ألاَّ يحاربهم فى هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، فى حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعونى عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْق إلا الزرع »[2] .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّدِّيق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبى بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر

---

(١) وقد روت لنا السنة طرفاً من هذا ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسْماً أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم . فقال : يا رسول الله اعدل . قال رسول الله ﷺ : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لى فيه أضرب عنقه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢/٧٤٤) كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) متفق عليه ـ أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجرأته ، لكنه إتى من صاحب القلب الرحيم الصِّديق - رضى الله عنه - ليعرف الجميع أن الأمر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكان الموقف هو الذى صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى :﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤) ﴾[الإسراء]

إذن : الذلّة هنا ذلّة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء]

لأن رحمتك بهما لا تَفِى بما قدّموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادىء كالمكافىء ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً ؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحمهما ، وأنْ يتكفل سبحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

كما : قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بى حين ربيانى صغيراً . أو تفيد التعليل : أى ارحمهما لأنهما ربيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ .. (١٩٨) ﴾ [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَانِي ﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُربٍّ للإنسان فى هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأىٍّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فإنْ ربّاك

غير والديك فلهما ما للوالدين من البرّ والإحسان وحُسْن المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن ربّى غير ولده ، ولا سيما إنْ كان المربَّى يتيماً ، أو في حكم اليتيم .

وفي ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه في تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ[1] غَفُوراً (٢٥) ﴾

وقد سبق أنْ تكلّمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطقيٌ مع نفسه ؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافر كذلك منطقيٌ لأنه كفر بقلبه ولسانه ، أما المنافق فغير منطقي مع نفسه ؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق ؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر في مكة التي صادمتْ الإسلام وعاندته ، وضيقتْ عليه ، بل ظهر في

(١) الأوابون : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . [تفسير القرطبي ٥/٣٩٧٥] .

المدينة التي احتضنتْ الدين ، وانساحت به في شتى بقاع الأرض ، وقد يتساءل البعض : كيف ذلك ؟

نقول : النفاق ظاهرة صحية إلى جانب الإيمان ؛ لأنه لا يُنافَق إلا القوى ، والإسلام في مكة كان ضعيفاً ، فكان الكفار يُجابهونه ولا ينافقونه ، فلما تحوّل إلى المدينة اشتد عوده ، وقويتْ شوكته ، وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقد ذَمَّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه ، فقال تعالى في حقهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[2] الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وكأنه جعل الإيمان مَحلاً للنازلين فيه .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[3] .. (٩) ﴾ [الحشر]

فإنْ قال بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

---

(١) مردوا على النفاق : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون . وقال ابن جريج : ماتوا عليه ، عبد الله بن أُبيّ ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس . [تفسير الدر المنثور للسيوطي ٢٧٣/٤] .

(٢) أي : سكنوا دار الهجرة وهي المدينة أولاً ، وهم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ٨٨/١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة إلى الشيء . [لسان العرب ـ مادة : خصص] .

فالنفاق فى المدينة ظاهرة صحية للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً في المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين في الدرْك الأسفل من النار ، لأنه مُندَسٌ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعُب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبِرّ الوالدين ؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون فى الإيمان بالله ، يكون كذلك في برّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعة ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حرْصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

لأن من الأبناء مَنْ يبرّ أبويه ، وهو يدعو الله فى نفسه أنْ يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ أى : رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندى سواء ، وكما ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقْباه .

وقوله : ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

أىْ : إنْ توفّر فيكم شرْط الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإنْ كان غير ذلك وكنتم فى أنفسكم غير صالحين غَيْر

مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا في عدم الصلاح ، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .

وقد سبق أنْ أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمةً من الخالق بالخلق ؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة في غفلة من دينه أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ، ويشقى بها طوال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى به المجتمع .

لذلك شرع الخالقُ سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأمْنه ، وليُثرِى جوانب الخير فيه .

ثم يُوسِّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي « الوالدان » إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أنْ حنَّنه على والديه لفتَ نظره إلى ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الحق سبحانه بعد أنْ حنَّن الإنسان على والديه صعَّد المسألة فحنَّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ حَقَّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حقاً للأقارب إنْ كانوا في حاجة ، وإلا فلو كانا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب

يُهادى أقرباءه ويهادونه . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيعَ فى المجتمع روح التكافل الاجتماعى .

لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاةً تقرُب من النِّصاب أمر بقطع يده ، كأنه سرقه ؛ لأن الله تعالى أسماه (حقاً) فمَنْ منع صاحب الحق من حقه ، فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك ، لأنهم فى بلاد ترف وغنى ، فتشدَّدوا فى هذه المسألة ؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها[1] .

لذلك ، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد ، وقال : لقد حلفتُ يميناً ، وأرى أن أُكفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام ، فقال أحدهم : لقد ضيَّقتَ واسعاً فقد شرع الله للكفارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فرد عليه المنذر قائلاً : أو مثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ؟ إنه يفعل ذلك فى اليوم لألْف وأكثر ، وإنما يزجره الصوم ، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص ؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة ، ويُؤثّر فى رَدْعه وزَجْره .

وكلمة (حق) وردت فى القرآن على معنيين :

الأول : فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

والحق المعلوم هو الزكاة .

---

(١) جاء فى كتاب المغنى لابن قدامة (٢/٤٣٥) فى حكم مانع الزكاة : « إن منعها معتقداً وجوبها وقدر الإمام على أخذها منه أخذها وعزره ولم يأخذ زيادة عليها فى قول أكثر أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك والشافعى و أصحابهم . وكذلك إن غل ماله وكتمه حتى لا يأخذ الإمام زكاته فظهر عليه ، يأخذها وشطر ماله » .

أمـا الحق الآخـر فـحقٌ غـيـر مـعـلوم وغـيـر مـوصـوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فـرضه عليك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ولم يقل : « معلوم » ؛ لأنه إحسان وزيادة عمَّا فرضه الله علينا .

ويجب على من يُؤْتِى هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنماً لا مَغْرماً ؛ لأن الدنيـا كما نعلم أغـيار تتحول وتتـقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغنى قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك فى المستـقبل ، وضمـان لأولادك من بعدك ، والحق الذى تعطيه اليوم هو نفسه الذى قـد تحتـاجه غـداً ، إنْ دارتْ عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذى تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك فى المسـتقبل يجعلك تجابه الحيـاة بقوة ، وتجابه الحياة بغير خـور وبغير ضعف ، وتعلم أن حـقك محفـوظ فى المجـتمع ، وكـذلك إنْ تركتَ أولادك فى عوزٍ وحاجة ، فالمجتمع مُتكفِّل بهم .

وصدق الله تعالـى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

ولذلك ، فـالناس أصـحـاب الارتقـاء والإثـراء لورعـهم لا يعطون الأقارب مـن أموال الزكـاة ، بل يخصُّـون بها الفـقراء الأباعـد عنهم ،

ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً .

و (المسْكين) هو الذى يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ..(٧٩)﴾ [الكهف]

أما الفقير فهو الذى لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض في تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطىء .

و ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ..(٢٦)﴾ [الإسراء]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإنْ كان منقطعاً فى الطريق وطرأتْ عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة ، وإن كان فى الحقيقة صاحب يَسَارٍ وَغِنىً ، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ فى مال المسلمين بقدر ما يُوصِّله إلى بلده .

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله في وضع مذلّة أو حرج .

﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦)﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ [الأنعام]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ،

فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطي المحصول المرجو منه ، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهي كثيرة في مكان ، وقليلة في مكان آخر ، وهذا ما نُسمّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب ؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فيُعاق نموّها .

لذلك ، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضع المال في غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم ، في حين يمسك في الشيء الضروري .

إذن : التبذير : صرْف المال في غير حِلّه ، أو في غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهي عن التبذير هنا قد يُراد منه النهي عن التبذير في الإيتاء ، يعني حينما تعطي حقّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطي أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد في عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلوَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ،

ولكن لا تُبذِّر فى الأمور الأخرى ، فالنهى هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة التى يُنفَق فيها المال فى غير ضرورة[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾

كلمة (أخ) تُجمع على إخْوة و إخْوان .

وإخوة : تدلّ على أخوّة النسب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم]

والمقصود : هارون أخو موسى ـ عليهما السلام ـ وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أى أخوّة الورع والتقوى .

أما : إخوان ، فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً كان أو شراً ، فقد تدلّ على الاجتماع فى الخير ، كما فى قوله

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) : « من أنفق ماله فى الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرّضه بذلك للنفاد فهو مبذر ، ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر ، ومن أنفق درهماً فى حرام فهو مبذر ، ويُحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد » .

تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد تدل على الاجتماع في الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فكان المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة ، ووُدٍّ واحد ، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إخْوَة) تدل على أُخُوَّة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أُخُوَّة الإيمان التي تنهار أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخوين من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوانِ : المؤمن والكافر .

ومعلوم أن « مصعب بن عمير » كان من أغنى أغنياء مكة ، وكان لا يرتدي إلا أفخر الثياب وألينها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلَّل مكة ، ثم بعد أنْ آمنَ تغيَّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلِّم الناس أمور دينهم[1] ، وفي غزوة أحد رآه رسول الله ﷺ يرتدي جلد شاة ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم »[2] .

---

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (١/١٠٧) أن أهل المدينة بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله ، فإنه حقيق أن يتبع ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٠٨) من حديث عمر بن الخطاب قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي ﷺ « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه . لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

فمـاذا حدث بين الأخـويْنِ المؤمن والـكافر ؟ وأيّ الصـلات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لمـا دارتْ المعركة نظر مصـعب ، فإذا بأخـيه وقـد أسَرَهُ أحـد المسلمـين اسمه « أبو اليَسَر »[1] فالتـفتَ إليه . وقال : يا أبا اليَسَر اشدد على أسيرك ، فأمّه غنية ، وسوف تفديه بمال كثير .

فنظر إليـه « أبو عـزيز »[2] وقـال : يا مصـعب ، أهذه وصـاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخي دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقـوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]

قوله : ﴿ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين في صفة واحدة هي التبـذير والإسراف ، فـإنْ كان المبـذّر قد أسـرف في الإنفاق ووَضْع المـال في غيـر حلّه وفي غيـر ضـرورة . فـإن الشيطانَ أسـرف في المعصيـة ، فلم يكتـف بأن يكون عاصياً في ذاته ، بل عدّى المـعصية إلى غيـره وأغوى بهـا وزيّنها ؛ لذلك وصـفه الحق سـبحانـه بقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهي صـيغة مبالغة من الكفر ؛ لأنه كفر وعمل على تكفير غيره .

---

(١) اسمـه : كعب بن عمـرو الأنصاري السلمي ، شهـد العقبـة وبدراً ، وهو الذي أسر العباس . قال المدائني : كان قصيراً دحداحاً (سميناً) عظيم البطن ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هجرية . [الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٧/٢١٨) ترجمة رقم (١٢٤٣) في الكنى] .

(٢) اسمه : زرارة بن عـمير . له صحبـة وسماع من النبي ﷺ ، اتفق أهل المغـازي على أنه أسر يوم بدر . [الإصابة ٧/١٣٠] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

ولنا أنْ نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض ؟ فقد سبق الحديث عن الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل ، والإعراض عن هؤلاء لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله ، بدليل قوله : ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء]

فالله تعالى في ذهنك ، وتبتغي من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسعته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا إذن الغرض من الإعراض هنا ؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة ، وأنت لا تملكها في هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع ، وتستحي منه ، فما يكون منك إلا أنْ تتوجّه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك ، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً .

فالمعنى : إما تُعرضنَّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم ، وليس

---

(١) سبب نزول الآية : قال زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد . فكان يعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٧٦) .

عندك ما يسدُّ حاجتهم ، وأنت فى هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) ﴾ [الإسراء]

كما قال فى موضع آخر فى مثل هذا الموقف : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣) ﴾ [البقرة]

فحتى فى حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ، ولا يجرح مشاعر السائل ، وأنْ يردّه بلين ورفق ، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل ، وألاّ يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه بأنْ جعله مسئولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة فى مثل هذا الموقف لا يكفى فيها أن تقول : ما عندى ، فقد يتهمك السائل بالتعالى عليه ، أو بعدم الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتى دور الارتقاءات الإيمانية والأريحية للنفس البشرية التى تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيمانى فى قوله تعالى عن أصحاب الأعذار فى الجهاد : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾[التوبة]

هذه حكاية بعض الصحابة[1] الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه

---

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا : سالم بن عوف ، حرمى بن عمرو ، عبد الرحمن بن كعب أبو ليلى ، فضل الله من بنى المعلى ، عمرو بن عتمة ، عبد الله بن عمرو المزنى .
جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليمدهم بالعدة والعتاد ليخرجوا فى سبيل الله فقال لهم : ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] . فأنزل الله عذرهم فى كتابه فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة] الآيات .

إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه ، فإذا برسول الله ﷺ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمو بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفى المعبِّر عن حقيقة الإيمان الذى يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾

تحدّث الحق سبحانه وتعالى فى آية سابقة عن المبذّرين ، وحذّرنا من هذه الصفة ، وفى هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته فى الحياة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم فى المنْح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندى ، وله علىَّ أياد لا تُعَد ، أى : أن نعمه علىَّ كثيرة ؛ لأنها عادة تُؤدّى باليد ، فقال : لا تجعل يدك التى بها العطاء (مَغْلُولَةً) أى : مربوطة

إلى عنقك ، وحين تُقَيِّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق ، فهى هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. (٢٩)﴾ [الإسراء]

فالنهى هنا عن كل البَسْط ، إذن : فيُباح بعض البسْط ، وهو الإنفاق فى حدود الحاجة والضرورة . وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء ، وهكذا يلتقى هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذى سبق الحديث عنه .

فبذَّر : أخذ حفنة من الحبِّ ، وبَسَط بها يده مرة واحدة ، فأحدثتْ كومةً من النبات الذى يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهىّ عنه ، أما الآخر صاحب الخبرة فى عملية البذْر فيأخذ حفنة الحبِّ ، ويقبض عليها بعض الشىء بالقدر الذى يسمح بتفلّت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بَذَرَ] .

وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقد أتى هذا المعنى أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

أى : اعتدال وتوسُّط .

إذن : لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديك ، ولكن بعض البَسْط الذى يُبقِى لك شيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقىَ بحياتك .

وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال فى الإنفاق ، وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يُثرى حركة الحياة ، ويُسهم فى إنمائها ورُقيّها ، على خلاف القَبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة ، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ، ويعوق حركتها .

إذن : لابُدّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، ولابُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِى على شىء من دَخْلك ، تستطيع أن ترتقى به ، وترفع من مستواك المادى فى دنيا الناس .

فالمبذر والمسْرف تجده فى مكانه ، لا يتقدم فى الحياة خطوة واحدة ، كيف وهو لا يُبقِى على شىء ؟ وبهذا التوجيه الإلهى الحكيم نضمن سلامة الحركة فى الحياة ، ونُوفّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء الفردى .

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ أوضحنا أن وضْعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة ، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شىء .

وكلمة ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝٩٥ ﴾ [النساء]

﴿ مَلُومًا ﴾ أى : أتى بفعل يُلاَم عليه ، ويُؤنّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادهُ وأهلُه ، وكذلك الممسك البخيل ، فكلاهما ملُوم لتصرُّفه غير المتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بعير محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته ، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت ملُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التى لا تَقْوى عليها .

إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظّم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تُبقِى من دخلك على شيء لتحقق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتّر علي نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه ، كما قال في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر ، ذلك أنّي جَوَاد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

الله الذي لا تنفد خزائنه يعطي خَلْقه بقدَر ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كُلّ القَبْض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقي حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجة في سننه (٤٢٥٧) .

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة في مجال ، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنى صاحب المال الذى ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوجه الله لأقل المهن التى يستنكف أن يصنعها ، ولا بُدَّ له منها لكى يزاول حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد فى حركة الحياة أن يتفضَّل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسِم له فى الحالتين ، وأن يسير فى حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ۝ ﴾ [الطلاق]

أى : مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فلينفق على قَدْره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قَدْر نفسه ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذى ضُيِّق عليه فى الرزق يريد أنْ

يعيشَ عيشة الموسَّع عليه رزقه ، ويتطلّع إلى ما فضّل الله به غيره عليه .

فلو تصورنا مثلاً زميلين فى عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :

الأول : غنيٌّ وفي سَعَةٍ من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر : فقير ربما يساعد أباه في نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وضعه الوظيفى ، بل إلى وَضْعه ومستواه المادى ، فيشترى بما يتناسب معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله ؛ لأن لكل منهما قدرةً وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقة ، والتصرُّف الإيماني المتزن ؛ لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويَرْضَى بما قَسَمه له ويعيش في نطاقه غير متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيت بقدرى فيك فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهَد لنا فى الحياة ، والأمثلة عليه واضحة ، فكم من أناس كانوا فى فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قَسَمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً فى مقام الخلافة فى الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخيبة كل الخيبة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله فى الأرض ، ويسير فى حركة الحياة على أنه أصيل فى الكون ، فأنت فقط خليفة

لمن استخلفك ، مَعْدود ممَّنْ أمدّك ، فإياك أنْ تغترّ ، وإياك أنْ تعيش في مستوىً فوق المستوى الذي قدّره الله لك .

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضلَّ الكون كله ؛ لأن الله تعالى جعل الدنيا أغياراً وجعلها دُولاً ، فالذي وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً ، والذي ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنّة من سُنَن الله في خَلْقه لِيَدكَّ في الإنسان غرور الاستغناء عن الله .

فلو متَّع اللهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب ارزقني ، ولو متَّعه بالصحة دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب اشفني . لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه محتاجاً إليه داعياً إياه .

وقد قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالحاجة هي التي تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه .

فالبَسْط والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، فيعطيهم كُلَّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون ، بل يعطي بحساب وبقدر ؛ لتستقيم حركة الحياة ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ .. (٢٧) ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لو لم يُوزِّع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم ، فَمنْ بُسِط له يستغني عن غيره فيما بُسِط له فيه ، ومَنْ

ضُيِّق عليه يتمرد على الكون ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

إنما إذا علم الجميع أن هذا بقدر الله وحكمته فسوف يظل الكون المخلوق موصولاً بالمكوِّن الخالق سبحانه .

وفى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. (٣٠) ﴾ [الإسراء]

ملمح لطيف : أى ربك يا محمد وأنت أكرم الخلق عليه ، ومع ذلك بَسَط لك حتى صِرْت تعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، وقبض عنك حتى تربط الحجر على بطنك من الجوع(١) .

فإن كانت هذه حاله ﷺ فلا يستنكف أحد منا إنْ ضَيَّق الله عليه الرزق ، ومَنْ منّا ربط الحجر على بطنه من الجوع ؟!

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن فرع من فروع الحياة وهو المال ، ورسم لنا المنهج الذى تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سَيْراً يُحقِّق له العيش الكريم والحياة السعيدة ، ويضمن له الارتقاءات والطموحات التى يتطلع إليها .

أراد سبحانه أن يُحدِّثنا عن الحياة فى أصلها ، فأمر باستبقاء النسل ، ونهى عن قتله فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ(٢) نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١) ﴾

---

(١) وقد كان هذا دأب بعض صحابة رسول الله ﷺ ، مثل أبى هريرة (البخارى ٦٤٥٢) ، وأبى سعيد الخدرى (أحمد فى المسند ٣/٤٤) .

(٢) الإملاق : الفقر . والإملاق : كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة . والمملق : الذى لا شىء له . [لسان العرب ـ مادة : ملق]

وواضحٌ الصلة بين هذه الآية وسابقتها ؛ لأن الكلام هنا ما يزال في الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أنْ تُدخلوا مسألة الرزق في حسابكم ؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم ، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذي خلق ، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع ، فإياك أنْ تتعدّى اختصاصك ، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. ㉛ ﴾ [الإسراء]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنَقْض البِنْية ؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهي أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنسانٌ إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهي حياته ، لكن تنتهي بنقْض البنية التي بها الحياة ، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك . وتتلَفُ أعضاؤه ، فالموت يتم في سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي لا تُضيء ، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة : من مُولِّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصِّل ولمبة كهرباء ، فإذا كُسِرَتْ هذه اللمبة يذهب النور ، لماذا ؟

لأنك نقضتَ شيئاً أساسياً في عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضْتَ عنصراً أساسياً من بِنْية الإنسان ، ولا تستمر الروح في جسده بدونها .

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت - ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد - لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبي ﷺ : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هي بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو ملْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟!

إذن : المنهي عنه في الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بِنْية إنسان آخر وهَدْم لها .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْلادَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى ، ولكن المشهور في استقصاء

التاريخ أنهم كانوا يئدون البنات خاصة دون الذكور ، وفي القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير]

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْناً وعُدَّةً في مُعْترك الحياة ، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض ، كما يَرَوْن فيهم العِزْوة والامتداد . في حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة في ظلِّ الفقر والعَوَز والحاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غنىً إلى شيء من المكروه في عِرْضها ، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ۝٣١﴾ [الإسراء]

أي : خَوْفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من مَلَق وتملَّق ، وكلها تعود إلى الافتقار ؛ لأن الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه ، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته[1] .

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ۝٣١﴾ [الإسراء]

وفي هذه الآية مَلْمح لطيف يجب التنبُّه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردِّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ۝٣١﴾ [الإسراء]

(١) من معاني المَلَق : الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي ، ورجل مَلِق : يعطي بلسانه ما ليس في قلبه . وفي الحديث : « ليس من خلق المؤمن المَلَق » . [لسان العرب - مادة : ملق] . وقد أورده المتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٩٣٧) من حديث أنس بن مالك وعزاه لابن عدي في الكامل والبيهقي في الشُّعب عن معاذ وانظر الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي (٥١٥٨) .

أى : خَوْفاً من الفقر ، فالفقر - إذن - لم يأتِ بعد ، بل هو مُحتمل الحدوث فى مستقبل الأيام ، فالرزق موجود وميسور ، فالذى يقتل أولاده فى هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده فى المستقبل ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أولاً : لأن المولود يُولَد ويُولَد معه رزقه ، فلا تنشغلوا بهذه المسألة ؛ لأنها ليستْ من اختصاصكم .

ثم : ﴿ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم . ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنه : لا تقتلوا أولادكم خَوْفاً من الفقر ، فنحن نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة ؛ لأن أعداء الدين الذين يُنقِّبون فى القرآن عن مَأْخذ يروْنَ تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية التى معنا وبين آية أخرى تقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآنى بغير الملكة العربية فى فَهْمه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج فى فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لُغوىٍّ .

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليماً فلن تجدوا فيه تعارضاً ولا تكراراً ، فليست الأولى أبلغَ من الثانية ، ولا الثانية أبلغ من الأولى ، بل كل آية بليغة فى موضوعها ؛ لأن الآيتين وإنْ تشابهتا فى

النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق فى المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول :
﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نرزقهم وإياكم .

أما فى آية الانعام : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الانعام]

فلا بُدَّ أن نلاحظَ أن للآية صدراً وعَجُزاً ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع فى فَهْم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أى إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَىْ الآيتين ، وأغفلوا صَدْريهما ، ولو كان الصدر واحداً فى الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنَّ صَدْرى الآيتين مختلفان :

الأولى : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿ مِنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الانعام]

والفرْق واضح بين التعبيرين : فالأول : الفقر غير موجود ؛ لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتوقَّع فى المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتى من أولاده .

أما التعبير الثانى : ﴿ مِنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الانعام]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء فى الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجُز ، فأيْنَ التعارضُ

إذن ؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهى مُخَاطَبٌ به الجمع : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. ۝٣١﴾ [الإسراء]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتبكم . والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإنْ قال قائل : إن الآية تنهى أنْ يقتلَ الأب ولده خَوْفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا .. لأن معنىَ الآية ألاَّ يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادى وأولاد غيرى ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قُلْنا : إن المعنى : تجاملنى وتقتل لى ابنى ، وأجاملك وأقتل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم ؛ لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء]

خِطْئاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتى بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذوا حِذْركم ، وخذوا حَذَركم .

وكلمة : ﴿خِطْئًا .. ۝٣١﴾ [الإسراء]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب ، ولكنك تجاوزتَه .

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسى نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصوِّب له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التى يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع فى الخطأ .

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطَأه ونُرشده ؛ لأنه ما يزال فى زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة فى امتحان آخر العام ، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التى تُحسَب على التلميذ ، وتنتهى المسألة بالنجاح لمَنْ أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة ، عليه أنْ يسيرَ عليها .

وكلمة (خِطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة[1] ، وتعنى الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشىء الثابت الذى استُقِرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أى : الخطوة التى جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[2] الشَّيْطَانِ .. (١٦٨) ﴾ [البقرة]

لأنه ينقلكم عن الشىء الثابت المستقر فى شريعة الله .

(١) الفعل خطأ وأخطأ . فعل صحيح آخره همزة . أما خطا فهو فعل معتل الآخر بألف منقلبة عن واو . ولذلك يأتى المضارع من الأول (يخطىء) ـ أما الثانى فيأتى (يخطو) .

(٢) قال الأزهرى فى المعتل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (١٦٨) ﴾ [البقرة] : قرأ بعضهم خطؤات الشيطان من الخطيئة : المأثم . قال أبو منصور : ما علمت أن أحداً من قراء الأمصار قرأه بالهمزة ولا معنى له . [لسان العرب ـ مادة : خطأ] .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفةً له في الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد ، وهم بذُور الحياة في المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن (أَوْلاَدَكُمْ) المراد بها البنون دون البنات ، وسلَّمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقِي على الذكور ، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج ؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟!

إذن : هذا فَهْمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : ﴿ خِطْئًا كَبِيرًا ۝٣١ ﴾ [الإسراء]

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة :

أولها : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض .

ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض مِنْك ، وقتله يُجرِّدك من كل معاني الأُبُوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار

خلافة الإنسان لله فى أرضه ، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده ، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تحدَّث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقى خلافة الله فى الأرض ، أراد سبحانه أن يحمى هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منَّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحاً ، ويُؤثِره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليُوفِّر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرْضِى ، وصدق الشاعر حين قال :

إنمـا أوْلاَدُنَـا أكبـادُنـا ... تمشـى عَـلَى الأَرْضِ
إنْ هَبَّتْ الريحُ على بَعْضهِم ... امتنعَتْ عَيْنى عَنِ الغُمْضِ .

لكن هذا النظام التكافلىّ الذى جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب فى نسبة هذا الولد إليه ، فتتحوَّل حياته إلى جحيم لا يُطَاق ، وصراع داخلى مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به ؛ لأنه طَعْن فى ذاته هو .

لذلك يُحذِّرنا الحق - تبارك وتعالى - من هذه الجريمة النكْراء ؛

ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ، فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم .

فيقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

والمتأمل في آي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر يُذيِّل الأمر بقوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

والحديث هنا عن أحكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد ، والممنوع أن نتعداه .

وأما في النواهي ، فيُذيِّلها بقوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة]

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكأن الحق سبحانه يريد ألاَّ نصلَ إلى الحدِّ المنهي عنه ، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة ، فقال ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ لنظلَّ على بُعْدٍ من النواهي ، وهذا احتياط واجب حتى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبي ﷺ : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »[1] .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان ابن بشير .

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقتربَ من المحظور ؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل ، فالمحرّم المحظور هنا هو الفعلُ نفسه ، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضاً ، وحذَّر منه ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يرحَم عواطفك في هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهي أقوى غرائز الإنسان ، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلمُ لك .

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى « الإدراك » ؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حُبُّها فهذا يسمى « الوجدان » أي : الانفعال الداخلي لما رأيتَ ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » أي : عمل فعلي .

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع ؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا في هذه المسألة « مسألة الغريزة الجنسية » فلا يمكن فيها فَصْلُ النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهي

مراحل ملتحمة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفصل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجاباً وميلاً ، ثم عِشقاً وغريزة عنيفة تدعوه أنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذى نخافه ، وهنا إما أنْ ينزعَ ويُلبى نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أنْ يعف ويظل يعاني مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر : لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدى إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[1] مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠)﴾ [النور]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعاني عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدرى أنه واهم في هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به

---

(١) غض بصره : خفضه ولم يرفعه ولم يحدِّق فيما أمامه ، أو كفَّ بصره ولم ينظره . [القاموس القويم ٢/٥٦] .

وأعلم بحاله ، وما أمره بغضٍّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو عليه نفسه .

لذلك قال ﷺ : « النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتى أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته فى قلبه »[1] .

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء]

ولم يقل : لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدى إليها ، فاحذر أنْ تجعلَ نفسك على مقربة منها ؛ لأن مَنْ حَام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعْكَ ممَّنْ يُنادون بالاختلاط والإباحية ؛ لأن الباطل مهما علاَ ومهما كثُر أتباعه فلن يكون حقاً فى يوم من الأيام .

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هى بنت عمه ، وهو ابن خالها ، وهما تربَّيا فى بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التى لا تُغيِّر من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفى الحديث النبوى : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣١٤/٤) من حديث حذيفة رضى الله عنه ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى فى تلخيصه : « إسحاق واهٍ ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١١٤/١) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين . وأشار إليه الترمذى فى سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥) . وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

إذن : ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر ، وما حرّم الخَلْوة فى ذاتها ولكن حرَّمهما ؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء] أبلغ فى التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى فى تحريم الخمر : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس فى القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر .. سبحان الله ، فأيُّهما أبلغ وأشدّ فى التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر ؟

لا تشرب الخمر : نَهْى عن الشُّرْب فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها ... الخ . أما الاجتناب فيعنى : البعد عنها كُلية ، وعدم الالتقاء بها فى اى مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب - إذن - أشدّ من مجرد التحريم .

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى فى مسألة هامة من مسائل العقيدة : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا.. (١٧)﴾ [الزمر]

فهل تقول فى هذه : إن الاجتناب أقلّ من التحريم ؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة ؟!

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

الفاحشة : هي الشيء الذى اشتدَّ قبْحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة ؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، وقدَّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها ، ومظلَّة لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً يأتيها مَنْ يأتيها ؛ ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمى طهارة النسل ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القران الذى يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ .

وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج ، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك ؟ لا شكَّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب ، وأقمْتَ الدنيا ولم تُقعدْها .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابك ، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذى حدث ؟ وما الذى تغيَّر ؟ وما الفرق بين الأولى والثانية ؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالذى يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهِّز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول ولىُّ الزوجة : زوجتُكَ . ويقول الزوج : وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً ، وتُحدث فيها انبساطاً وانشراحاً ؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً فى التكوين الذاتى للإنسان ، ولها أثر فى انسجام ذراته ، وفى كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التى يلتقى عليها الزوجان ، أنها تُحدِث سيالاً بينهما ، هو سيَّال الاستقبال الحسن ، وعدم الضَّجَر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرِّع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، وفى هذا الاختلاف حكمة ؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤثّر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق ؛ لأن سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التى حددها الشرع بثلاثة أشهر[1] ، وهى المدة التى يهدأ فيها سيَّال الحلال فى نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر .

---

(١) قال تعالى عن عدة المطلقة ، وهى المدة التى يصح للزوج المطلّق أن يراجع زوجته خلالها ، وهى أيضاً العدة التى إذا مرت دون مراجعة صح للمرأة أن تتزوج زوجاً آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] . أى : ثلاث حيضات .

أما فى حالة المتوفَّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة[1] ، والحكمة من الفارق بين العدَّتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين الزوجين كُرْه ، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السَّيال ؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه ، فرغبتها فيه أشدّ ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعِي طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف الميل والرغبة فى زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلى ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفى الغريزى الذى يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذى يُولِّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث التوافق ، ويحدث الحب والعِشْق الذى يجمعهما ويمتزجان من خلاله .

وهذا ـ كما قلنا ـ أثر من آثار كلمة الله التى اجتمعا عليها وتحت ظلها .

وهكذا يلتقى الزوجان فى راحة وهدوء نفسى ، ويسكن كل منهما للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ،

---

(١) أما عدة الأرملة التى مات زوجها ، فيقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤)﴾ [البقرة]

وصدق رسول الله ﷺ حين قال في وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »[1]

وهذه الكلمة من الله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه ، ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تمَّ هذا اللقاء فيما حرَّم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكد ومرارة لا تنتهي ، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سمَّاه القرآن فاحشةً ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يُعرف ، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ فى محارمه ، ويكفيها فُحْشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكى ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، والنبى ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوى فى جواب رسول الله ﷺ ، وقد سُئِلَ كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم : « الصلاة لوقتها »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله من حديث طويل وفيه « فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

وقال لآخر : « أنْ تَلْقى أخاك بوجه طَلْق »[1]

وقال لآخر : « أنْ تَبرَّ أخاك » .

وهكذا تعددتْ الإجابات ، لأن النبى ﷺ لا يصف مزيجاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطى لكل سائل الجرعة التى تُصلِح خللاً فى إيمانه ، كالطبيب الذى يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التحاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصِف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذى جاءه يقول : يا رسول الله إننى أصلى وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أننى لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب فى وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة فى العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبى ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية فى إيمانه ؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً فى نفسه ، وانظر كيف عالجه النبى ﷺ :

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٧٣/٥) .

أجلسه ، ثم قال له : « يا أخا العرب أتحب هذا لأمك ؟ » فانتفض الشاب ، وتغيَّر وجهه وقال : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداك ، فقال : « أتحبه لأختك ؟ أتحبه لزوجتك ؟ أتحبه لبناتك ؟ » والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

ثم قال ﷺ : « وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم » ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، و حَصِّنْ فَرْجه »[1] .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكرَه عندى من الزنا ، ووالله ما همَمْتُ بشيء من ذلك إلا وذكرْتُ أمى وأختى وزوجتى وبناتى .

وما أشبه طريقة الرسول ﷺ فى علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مُرًا لا يستسيغه المريض غلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق فى اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التى يمرُّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله فى خَلْق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصُّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحرِّيف ، وهكذا ، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/ ١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

وكما تحدث برشمة الدواء المسيِّ المر ، كذلك يحدث فى العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقى ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعيروا له خِفَّة البيان .

وقالوا : الحقائق مُرَّة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .

وعلى الناصح أن يراعى حال المنصوح ، وأنْ يرفقَ به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما أَلِف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوى الذى يجب أن نسير عليه فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

ومن أدب النصيحة أيضاً الذى تعلَّمناه من النبي ﷺ أن تكون سراً ، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار ؛ لأن لها أثراً سلبياً فى حياة المجتمع كله وفى المنصوح نفسه ، فإنْ سترْتَ عليه فى نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقول ، وقديماً قالوا : مَنْ نصح أخاه سراً فقد ستره وزَانَه ، ومَنْ نصحه جهْراً فقد فضحه وشَانَه[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتخلفون فى الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعى فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عمَّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها .

وأعتقد أن ما نشاهده الآن فى بيئات الانحلال والانحراف ،

---

(١) الشين : العيب . والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضي على سلامة المجتمع وأمْنه وسعادته .

ويكفي أنك إذا خرجتَ من بيتك في مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذي يطاردك في كل مكان ، في الحجرة التي تدخلها ، وفي السرير الذي تنام عليه ، وفي دورة المياه التي تستعملها ، الجميع في رُعْب وفي هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار في الهشيم ، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجةً لخروج الإنسان عن منهج الله خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها ، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدْر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتُوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عفّة وطهارة ، لا عن إيمان بشرع الله ، ولكن عن خَوْف وهلَع من أمراض شتّى لا ترحم ، ولا تُفرِّق بين واحد وآخر .

إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وها هي الأحداث والوقائع تُثبت صدْق هذه الآية ، وتثبت أن أيّ خروج من الخَلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نكَدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة .

والآن وقد ضمنَّا سلامة الأعراض ، وضمنَّا طهارة النسل ، وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأمَنُ فيه الإنسان على هذا

الجانب ، فلا بُدَّ إذن أن نحافظ فيه على الأرواح ، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء]

كان القياس أنْ يُقابل الجمع بالجمع ، فيقول : لا تقتلوا النفوس التى حرَّم الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قَتْل النفس الواحدة مسئوليةُ الجميع ، لا أنْ يسأل القاتل عن النفس التى قتلها ، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة .

﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء] أى : جعلها محرَّمة لا يجوز التعدى عليها ؛ لأنها بنيان الله وخلْقته وصناعته ، وبنيان الله لا يهدمه أحد غيره . أو نقول : ﴿ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴿٣٣﴾ ﴾[الإسراء] أى : حرَّم الله قتلها .

﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾[الإسراء] وهذا استثناء من الحكم السابق الذى قال : لا تقتلوا النفس التى حرم الله ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أى : ولكن اقتلوها بالحق ، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء :

– القصاص من القاتل .

– الردَّة عن الإسلام .

- زنا المحصن أو المحصنة[1] .

وهذه أسباب ثلاثة تُوجِب قَتْل الإنسان ، والقتل هنا يكون بالحق أي : بسبب يستوجب القتل .

وقد أثار أعداء الإسلام ضَجَّة كبيرة حول هذه الحدود وغيرها ، واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتهم أن هذه الحدود تتنافى وإنسانية الإنسان وآدميته ، وتتعارض مع الحرية الدينية التي يقول بها الإسلام في قوله تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ففي القصاص قالوا : لقد خَسِر المجتمع واحداً بالقتل ، فكيف نُزيد من خسارته بقتل الآخر ؟

نقول : لا بُدَّ أن نستقبلَ أحكام الله بفهْمٍ وَاعٍ ونظرة متأملة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألاَّ يقع القتل ، وألاَّ تحدثَ هذه الجريمة من البداية .

فحين يُخبرك الحق سبحانه أنك إنْ قتلتَ فسوف تُقتَلُ ، فهو يحمي حياتك وحياة الآخرين . وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها مَنْ قتل ؛ لأنه ربما خدش عِزَّته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شكَّ أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول له : إنْ قتلْتَ ستُقتل ، فنحن نمنعه أنْ يُقدِم على هذه الجريمة ، ونُلوِّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا : القتْلُ أنفَى للقتل .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المرأة : تزوجا ، وكان الزواج حِصْنٌ يحمي المتزوج من الوقوع في الشهوات فهو مُحصِن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِى الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظنُّ البعض ، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحقْن الدماء .

ويجب أن يكون عندنا يقظةُ استقبال لأحكام الله ؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية ، لأنه كما حَمى غيرى من قَتْلى له حمانى أيضاً من قَتْل غيرى لى ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظك منها كحظِّ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وكذلك فى السرقة ، حينما يقول لك : لا تسرق ، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك . والذى يتأمل هذه الحدود يجدها فى صالح الفرد ؛ لأنها تُقيِّد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيِّد من أجله حرية المجتمع كله .

وفى الزكاة ، حينما يُوجب عليك الشارع الحكيم أنْ تُخرج قَدْراً معلوماً من مالك للفقراء ، فلا تَقُلْ : هذا مالى جمعتُه بجَهْدى وعَرقى . ونقول لك : نعم هو مالك ، ولكن لا تنسَ أن الأيام دُوَلٌ وأغيار ، والغنىّ اليوم قد يفتقر غداً ، فحين تعضّك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك ، ويكيل لك بنفس الكَيْل الذى كِلْتَ به للناس .

إذن : يجب أن نكون على وَعْى فى استقبال الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ،

وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما تأخذ مِنَّا فهى أحكام عادلة .

وحُكْم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أنْ يُقدم على القَتْل ، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يقتصَّ منه ؛ فإنْ أخذتنا الشهامة وتشدَّقْنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب فى إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكلّ مَن اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله ؛ لأنه لا يوجد رادع يُردعه عن القتل .

إذن : لكى نمنع القتل لابُدَّ أن تُنفَّذ حكم الله ونُقيم شَرْعه ولو على أقرب الناس ؛ لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى وفقط ؛ بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا ، ويحمى سلامة مجتمعنا.

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مَرْأى ومَسْمع المجتمع كله ؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل ها هى تُطبَّق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حدّ الردَّة ، ورأوا فيه وحشية وكَبْتاً للحرية الدينية التى كفلها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حدَّ الردة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يُصعِّب على غير المسلمين الدخول فى الإسلام ، وأنْ يُضيِّق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل فى الإسلام إلا مَنْ أخلص

له ، واطمأنَّ قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً أنه إنْ تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

فهذه تُحسَب للإسلام لا عليه ؛ لأنه اشترط عليك أولاً ، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقدِم عليه .

أما حرية الدين والعقيدة فهي لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أنْ تظلَّ على دينك كما تحب ، فإنْ أردتَ الإسلام فتفكّر جيداً وتدبّر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك .

فليس في دين الله مجالٌ للتجربة ، إنْ أعجبكَ تظلّ في ساحته ، وإنْ لم يَرُقْ لك تخرج منه ، فإنْ علمتَ هذه الشروط فليس لك أنْ تعترضَ على حدِّ الردّة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعزّ وأكرم من أنْ يستجدي أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

وهذا حكم نفي ، المفروض ألاَّ يحدث . ومعنى ﴿ مَظْلُومًا ﴾ أي : قُتل دون سبب من الأسباب الثلاثة السابقة أي : دون حق ، فعلى فَرْض أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم ؟

يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

وليه : أي وليّ المقتول ، وهو مَنْ يتولّى أمره من قرابته : الأب أو الأخ أو الابن أو العم .. الخ فهو الذي يتولّى أمر المطالبة بدمه .

﴿ سُلْطَانًا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء] أى : شرعنا له ، وأعطيناه الحقّ والقوة فى أنْ يقتل القاتل ، والسلطان يكون فى خدمة التنفيذ ، ويُمكّنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه فى تنفيذ هذا الحكم ؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه فى ذات النفس ، لكن إنْ ضعُفَتْ النفس فلا بُدّ لرادع من الخارج ، وهنا يأتى دور السلطان ودور المجتمع الإيمانى الذى يُعين على إقامة هذا الحكم .

إذن : جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لولىّ الدم ، فإنْ لم يكن له ولىّ فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليتولى إقامة هذا الحكم ، لكن ما يُتعب الدنيا ـ حينما ينتقل حَقُّ القصاص إلى الحاكم العام ـ طُول الإجراءات التى تُخرج الحكم عن المراد منه ، وتُذْكِى نار الحقد والغلّ والتِّرَة فى نفسِ ولىّ الدم .

فولىّ الدم وحده الذى يُعانى طول فترة التقاضى مع أناس لا يعنيهم أن تطولَ هذه الفترة أو تقصُر ؛ لأن طول فترة التقاضى تأتى فى صالح القاتل ، حيث بمرور الأيام ـ بل والسنين ـ تبْرُد شراسة الجريمة فى نفوس الناس ، وتأخذ طريقاً إلى طيّات النسيان .

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسَى بشاعتها ، وبدلَ أن يقف المجتمع ويفكر فى القاتل وفى القصاص منه ، تتحول الأنظار والعواطف إلى النفس الجديدة التى ستُقتل ، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا فى إقامة القصاص عليه .

لكن يجب أنْ يُقامَ القصاص قبل أنْ تبرُدَ شراسة الجريمة فى النفوس ، وتبهت وتفقد حرارتها.

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله فى يد ولىّ الدم ، أراد فى الوقت نفسه ألاّ يحرم المجتمع من طموحات العفو الذى يُنهى أصول الخلاف ، فيقول تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

ففى جوّ القتل وثورة الدماء التي تغلى بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والأخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح . ولولىّ الدم بعد أن أعطيناه حقّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية[1] وتنتهى المسألة ، وله أن يعفوَ عن بعضها أو عنها كلها .

إذن : فإعطاء الحق مَنع عن المقتول له ذلّة التسلُّط من القاتل ؛ لأن الله تعالى أعطاه حقّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه علِم القاتل أن حياته أصبحت هبةً من ولىّ الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والأحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، ونُنهى تسلسل الثارات الذى لا ينتهى .

وقد اشتهر فى صعيد مصر - وكان مثالاً للأخذ بالثأر - أن القاتل يأخذ كفنه فى يده ، ويذهب به إلى ولىّ الدم ويُسلِّم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولى الدم حرية التصرف فيه . فما يكون من ولى الدم أمام هذا الاستسلام إلاّ أنْ يعفوَ ويصفح ، وبذلك تُقتلَع الضغائن من جذورها .

---

(١) الدية : هى المال الذى يجب بسبب الجناية . وتُؤدّى إلى المجنى عليه أو وليه . والدية تكون مغلظة ومخففة ، فالمخففة تجب فى قتل الخطأ ، والمغلظة تجب فى شبه العمد . [فقه السنة ٣/٣٧ - ٥٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ.. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

أى : طالما أن الله أعطاك حَقّ القصاص فليكُنْ القصاص بقَدْره دون زيادة أو تعدٍّ أو مجاوزة للحدّ ، والإسراف فى القتل يكون بأوجه عدة :

فقد يكون القاتل غير ذى شأن فى قومه ، فلا يرضى ولىّ الدم بقتْله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذى مكانة وذى شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف فى القتل ، وهو إسرافٌ فى ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف فى الكَمّ ، فإنْ قُتل واحد فلا يكتفى ولىّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغِلّ وثورة الدم إلى أنْ يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأنْ يُمثّل بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألاَّ يحملك الغضب على تجاوز الحدّ المشروع لك . وقد أراد النبى ﷺ أن يفعلها فى قاتل حمزة ، فنهاه الله عن ذلك[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾ [الإسراء]

أى : لا يجوز له أنْ يُسرف فى القتل ؛ لأننا لم نتخلّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقّ القصاص ومكّنّاه منه ، إذن : فهو منصور

(١) حين قُتل حمزة ومُثّل به فى أحد قال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ، فأنزل الله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل] .

ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حدِّ النُّصْرة لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ(١) ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير في التعدِّي عليه ؛ لأن اليُتْم مظهر من مظاهر الضعف لا يصح أنْ تجترىءَ عليه .

و (اليتيم) هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغَ الرجال وهو سنّ الرُّشْد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتألم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد له أب يحنو عليه ، وسوف يحقد على القدَر الذي حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أنْ يستلّ من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر ؛ لذلك يُوصي المجتمع به ليشعر أنه وإنْ فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفي حُنُوِّهم وعطفهم عوَض له عن وفاة والده .

---

(١) حتى يبلغ أشده : أي يبلغ السن التي تشتد فيها أعضاؤه وتقوى . [القاموس القويم ٣٤٢/١] قال الزجاج : بلوغه أشده أن يُؤْنَس منه الرشد مع أن يكون بالغاً . وقال بعضهم : حتى يبلغ ثماني عشرة سنة . قال أبو إسحاق : لست أعرف ما وجه ذلك ؛ لأنه إن أدرك قبل ثماني عشرة سنة وقد أونس منه الرشد فطلب دفع ماله إليه وجب له ذلك . [لسان العرب - مادة : شدد] .

وكذلك حينما يرى الإنسانُ أن اليتيم مُكرَّم في مجتمع إيماني يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزعه أحداث الحياة في نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أنْ يُيتِّم أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيماني .

إذن : إنْ وجد اليتيم في المجتمع عوَضاً عن أبيه عَطْفاً وحناناً ورعايةٍ يرضى بما قُدِّر له ، ولا يتأبَّى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّر عليها اليُتْم في أولادها .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء]

أي : لا تنتهز يُتْم اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب ، فتطمع في ماله ، وتأخذه دون وجه حق .

وقوله : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء] استثناء من الحكم السابق ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا ... ﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتي هي أحسن .

و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة في الإحسان ، فكأن لدينا صفتين ممدوحتين : حسنة وأحسن ، وكأن المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة ؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدَّى عليه . لكن الأحسن : أنْ تُنمي له هذا المال وتُثمِّره وتحفظه له ، إلى أن يكون أهْلاً للتصرّف فيه .

لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال :
﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ۝٥ ﴾ [النساء]

ولم يقل : وارزقوهم منها ؛ لأن الرزق منها يُنقصها ، لكن معنى: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ۝٥ ﴾ [النساء] أي : من ريعها وربحها ، وليس من رأس المال .

وإلاَّ لو تصوَّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ، وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف ينتهي هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول : حقِّقوا الحسن أولاً بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادة تتسع لنفقات حياته ، وإلاَّ فسوف يشبّ الصغير ، وليس أمامه من ماله شيء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مال يعمل فيه ، فليعمل في مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه ، وليأكل منه بالمعروف ، وإنْ كان غنياً فليستعفف عنه ؛ لأنه لا يحلّ له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ .. ۝٦ ﴾ [النساء]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة في إدارة الأموال ولديْه الصلاحية فلا نُعطِّل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر نفقة

صاحب الخبرة الذى لا يجد مالاً ، ونفقة اليتيم الذى لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل فى المجتمع الإيمانى .

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء]

أى : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هـذه الصفة كافية لكى نُعطِى لليتيم ماله وقد بلغ سِنّ الرُّشْد والتكليف ؟

فى الحقيقة أن هذه الصفة غير كـافية لنُسلّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته ؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سنّه سفيهاً لا يُحسن التصرُّف ، فلا يجوز أن نتـرك له المال ليُـبدِّده ، بدليل قـوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. (٦) ﴾ [النساء]

وقال فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥) ﴾ [النساء]

ولم يقل : أموالهم ، لأن السفيه ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليّه الذى يحافظ عليه ويُنمّيه له .

إذن : فالرُّشْد وهو سلامة العقل وحُسْن التصرُّف ، شرط أساسى فى تسليم المال لليتيم ؛ لأنه أصبح بالرُّشْد أهلاً للتصرُّف فى ماله .

وكلمة : ﴿ أَشُدَّهُ.. (٣٤) ﴾ [الإسراء] أى : يبلغ شِدّة تكوينه ، ويبلغ الأشدّ أى : تستـوى ملكاته استـواءً لا زيادة عليه ، فأعضـاء الإنسان تنمـو وتتـربى مع نمـوه علـى مَرّ الـزمن ، إلى أن يصل سِنّ الرشد ويصبحَ قادراً على إنجاب مثله ، وهذه هى سِنّ الأشدّ أى : الاستواء.

---

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمه وفكره . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

لذلك أجَّلَ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سنِّ البلوغ ؛ لأنه لو كلَّفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجَّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)﴾ [الإسراء]

﴿ الْعَهْدِ ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أبرِمَ هو العَقْد الإيماني الذي أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتَاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان ؛ لأن الله لا يريد منّا قوالبَ تخضع ، ولكن يريد منّا قلوباً تخشع ، ولو أراد الله منّا قوالب تخضع ما استطاع واحد مَنّا أنْ يشذَّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إنْ أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة] نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه في أنْ تدخل الدين ، ولكن إذا دخلتَ فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهود ؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حُرٌّ أن تقابل فلاناً

أولا تقابله ، إنما إذا عاهدتَه على المقابلة فقد أصبحتَ ملْزماً بالوفاء ؛ لأن المقابل لك قد رتَّبَ نفسه ومصالحه على أساس هذا اللقاء ، فإنْ أخلفتَ معه العهد فكأنك أطلقتَ لنفسه حرية الحركة ، وقيَّدتَ حركة الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبى ﷺ من صفات المنافقين[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

قد يكون المعنى : أى مسئولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده أوفَّى به أم أخلفه ؟

وقد يراد ﴿ مَسْئُولاً ﴾ أى : مسئول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفِّذه ، وكأنه عدَّى المسئولية إلى العهد نفسه ، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ ، والعهد هو المسئول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول فى مواضع تقول للوهلة الأولى أنه فى غير موضعه ، ولكن إذا دققتَ النظر تجده فى موضعه بليغاً غايةَ البلاغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب فى الحقيقة ساتر وليس مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً ، كأنه

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٥٩) .

نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما في قوله تعالى : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ۝٥٧ ﴾ [النساء] أى : أن الظلّ نفسه مُظلّل .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُراعَ فيه العهود ، ولم تُحترَم المواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفكّكاً فُقِدت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فُقدت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذى تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أهلاً لرقىٍّ أو تقدُّم .

ولأهمية العهد فى الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضرورى أن يُسجَّل فى سجلات رسمية ؛ لأن المؤمن تثق فى كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وُجِد ما يسمونه بالحق القضائى وبالحق الدينى ، فيقولون : هذا قضاءً وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن نضرب له هذا المثل :

هَبْ أنك أخذتَ دَيْناً من صديق لك ، وكتبت له مستنداً بهذا الدين ليطمئن قلبه ، ثم قابلته بعد أن تيسَّر لك السداد ووفَّيت له بدَيْنه . لكنه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن ، فقلت له : لا عليك أرسله لى متى شئتَ ، فلو تصوَّرنا أنه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدين ، فالقضاء يقول : له الحق فى أخذ دَيْنه ، أما ديانة فليس له شىء .

إذن : العهد الذى نعقده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ[1] الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[2] ﴿٣٥﴾ ﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هى التى تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه فى الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التى تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان فى مجتمع عامل نشيط ، وأنه إنْ تمادى فى خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده .

صحيح فى المجتمع الإيمانى إيثار ، لكنه الإيثار الإيجابى النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها فى هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التى تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الآدمية أوْلَى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً

---

(١) القسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] والقسطاس المستقيم : أعدل الموازين وأقومها . [لسان العرب ـ مادة : قسطس] .

(٢) أى : أحسن عاقبة ومآلاً ومرجعاً ونتيجة ، لأنه أقرب إلى الحق والعدل وفيه الخير الكثير للناس . [القاموس القويم ١/٤٤] .

على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حقٌّ مكفول في الدولة وفي أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذي يكفله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغني الذي يسهم في سَدِّ حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إنْ أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التي عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هي هِبَة من الله يمكن أنْ تُنزعَ منك في أي وقت ، وتتبدَّل قوتك ضعفاً وغِنَاك حاجة ، فإنْ حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونُؤمِّن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش في الحياة إيجابياً ، يعمل ويكدح ويُسهِم في رُقِيِّ الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والخمول ؛ لأن المجتمع الإيماني لا يُسوِّي بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهَبْ أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوي ؛ الأول عاش في ماله باقتصاد وأمانة وسَعَى فيه بجدٍّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسْرفاً مُنحرفاً بدَّد كل ما يملك وقعد مُتحسِّراً على ما مضى ، فلا يجوز أنْ نُسوِّي بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطيَ للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول - إذا أخذتْ ما ليس لها حمَّلها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغني طالما أن غِنَاه ثمرة عمله وكَدِّه ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير في ماله سَيْراً معتدلاً ويؤدي ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات

ومواهب ، وبكل ما لديه من طموحات الحياة ؛ لأن الفقير سوف يستفيد منه ومن طموحاته شاء أم أبى . فدَعْه يجتهد ، وإنْ كان اجتهاده فى الظاهر لنفسه فإنه فى الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير فى المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفرض أن أحد هؤلاء الأغنياء أراد أن يبنى مصنعاً أو عمارة أو مشروعاً كبيراً ، فكم من العمال والصناع ، وكم من الموظفين والمهندسين سيستفيدون من هذا المشروع ؟ إن الغنى لن يملك مثل هذه الإنجازات إلا بعد أن يصبح ثمنها قُوتاً فى بطون الفقراء ، وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أنْ ندعَ الغنى يجتهد ويسعى ؛ لأن المجتمع سوف يستفيد من سَعْيه واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإنْ كان سعيُه فى الحق فبها ونعمتْ ، وإنْ كان فى غير الحق فلتضرب على يده .

وإليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة فى حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً ، والتى تُقدّر بالملليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر وتُقاسُ بها الأشياء كُلٌّ على حَسْبه ، فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتيمتر ، والحجرة تُقَاس بالمتر ، أما الطريق فيُقاس بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتقدير الطُّولى يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذى نقيسه . هذا فى الطوليات ، أما فى المساحات فيأتى

الطول والعرض ، وفى الأحجام : الطول والعرض والارتفاع . وفى الكُتَل يأتى الميزان .

إذن : فالحياة محكومة فى تقديرات الأشياء بالكيْل الذى يُبيِّن الأحجام ، وبالميزان الذين يُبيِّن الكتلة ؛ لأن الكيْل لا دخلَ له فى الكتلة ، إنما الكتلة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء] يعنى : أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

ومعنى المطففين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ، أى : أخذوا منهم . أخذوا حقَّهم وافياً ، وهذا لا لَوْم عليه ، وإنما اللوم على : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

أى : إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون . هذا هو موضع الذمِّ ومجال اللوْم فى الآية ؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استوفى حقَّه ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون فى الكَيْل والميزان

فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبائع الذي ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسك في الوزن ، وطفَّف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء] أي : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه .

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حقَّه ، هكذا : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء]

أما في الوزن فقد ركز على دقَّته ، وجَعله بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدِّقة في الميزان بالذات ؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قلَّما يستطيع الإنسان الغشَّ فيها ، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه ؛ لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن دون أن يدري بهم أحد ؛ لأن الميزان كما نعلم رافعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط ، وكفَّة القوة في ناحية ، وكفَّة المقاومة في الناحية الأخرى ، فأيُّ نَقْص في الذراعين يفسد الميزان ، وأيُّ تلاعب في كفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين في أسواقنا لطال بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه

مجـال واسـع للغشّ والخـداع وأكل أمـوال النـاس .

وسبـق أن أوضحنا أن مـيزان كُلِّ شيء بحـسبـه ، ويتناسب مع قيمـته ونفاسـتـه ، فالذى يزن الجير مـثلاً غير الذى يزن اللـوز ، غير الذى يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معانى (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قـيمة الموزون ، فالذى يبـيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمـينة مهما كانت قليلـة فى الميزان ؛ فإنها تسـاوى الكثير من المـال .

لذلك فإن أهل الخـبرة فى هذه المسألة يقـولون : احذر أن يُدخل البـائع رأسه قـريباً مـن الميـزان ؛ لأنه قد ينـفخ فى كفَّـة الميـزان ، ولا شكَّ أنك ستخسر كثيراً من جَرَّاء هذه النفخة !!

لذلك نقـول لهـؤلاء الذين أخـذت أيديهـم على الغش والخـداع فى البيع والشـراء : أنت تبيع للناس شـيئـاً واحداً وتغشـهم فيـها ، وفى الوقت نفسه تشترى أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إنْ غشـشْتَ الناس في سلعة واحدة فـسوف تُغشّ في مـثلث السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة فى صالحك .

ولا تنسَ أن فوقك قيُّومـاً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفى عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبـينَ لك حقيقـة هذه الصفقة الخـاسرة ؛ لأنك إن عَمَّيْتَ على قـضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التى اختلستها من أقـوات الناس من حيث أتت ، كما قال النبى ﷺ : « من

أصاب مالاً من مهاوش[1] أذهبه الله في نهابر[2] »[3].

وكذلك في المقابل : مَنْ صدق الناس ، ووفَّى لهم في بيعه وشرائه[3] وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّي له ويصدُق معه .

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

(ذلك) أي : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن (تأويلاً) أي : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذي يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد في ماله ويجلب الخير لنفسه . نقول له : أنت واهم ، فليس في الغش والبخس خير والزيادة عن طريقه هي عين النقص ، لأن الحق سبحانه وتعالى سيُجرِّيء الناس عليك فيغشوك ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك في الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقسْطاس المستقيم لا هو خَيْر ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذي يُوفي الكيل والميزان ، فإن الله تعالى يُيَسِّر له مَن يُوفِي له الكَيْل والميزان ، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء] أي : أحسن عاقبة .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حِلّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أي : أذهبه الله في مهالك وأمور متبددة [اللسان ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ٣١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقي السبكي : لا يصح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة ، والإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقوِّمات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفَّل له بالضروريات ، دلَّه على الترقِّى فى الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقِّى ويُثْرى حياته ومجتمعه .

وحركة الترقِّى والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركتَ فى الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوَّة .

فمثلاً ، الطالب الذى يرغَب فى دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضَوْء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك فى أىِّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدِّى إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

أسوان ، فلن تتحرّك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة في الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التي يُحكَم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطيني قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهي قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والأميّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأميّ أطوعَ في التعلم من الجاهل ؛ لأن الأمي بمجرد أنْ تُعلّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسَّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء : هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين.؟ المخرَج أن يخرج كل واحد منَّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التى اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتّبع له ؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم » . فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لى ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصاع لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرِّعها لكم ، لكى ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التى تتفق فيها الأهواء فهى القضايا المادية القائمة على المادة الصمَّاء التى لا تُجامل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذى تدخله لتجرى التجارب التى توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسى وأمريكى ؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذى جعل المعسكر الشرقى يختلف والمعسكر الغربى هى القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعى ، وهذا رأسمالى .

لذلك ، فالنبي ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ في الوجود الإيماني حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره[1] ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل في هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صواباً .

يأتي هذا ممَّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ، الذي يحرص على أن تأتي كل قضاياه صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

ليضع بذلك أسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم في قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[3] .

فإنْ أردتَ أنْ تتحرَّك في الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ لا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] لكي تسير في حركة الحياة على هُدىً وبصيرة .

---

(١) تأبير النخيل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . وفي حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

﴿ لاَ تَقْفُ ﴾ أى : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا علم لك به ، كمَنْ يدَّعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يُصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتّب على إجابته ما لا تُحمد عُقْباه ، والذى يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقفُو ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا .. (٢٧) ﴾ [الحديد] أى : اتبعناهم . ويقفو أثره أى : يسير خَلْفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له[1] : لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كَبَّة القفا .

فالحنانة التى لها ولد من غيرك يُذكّرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمنّانة التى لديها مال تَمنُّ به عليك ، وعُشْبة الدار هى المرأة الحسناء فى المنبَت السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعيبه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثْرى حركة الحياة ، والعلم علمان :

– علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويُوحِّدها إلى هوىً واحد هو الهوَى الإيمانى .

---

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاّه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه ؛ لأن الصانع أدْرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم مَا يصلحْها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

- فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى . أما الأمور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمتأمل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التى ترك لك الحرية فيها ، إذنْ : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكّمه فى أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه ؟

- أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبى الذى لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ،

ومضماراً يجرى فيه الجميع ؛ لأنهم فى النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فهذه ظواهر الكون ، اربَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصلك إلى ظواهر أخرى تُثرى حياتك وتُرقِّيها ؛ فالذى اكتشف عصر البخار ، والذى اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً فى كَوْن الله ، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذِّرنا أن نمرّ على ظواهر الكون فى إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء فى التعبير عن الواقع الفعلى ، فهم لم يخلقوا جديداً فى الكون ، فكلٌّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم فى الاهتداء إليها

واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقة فى التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإنْ كانت في الدين تركناها للخالق سبحانه يُقنّنها لنا ، وإنْ كانت في أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويُثْرِى حياتنا ؛ لذلك تكلَّم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع ما لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقيني فلا بُدّ أنْ يسأل المرءُ عن وسائل العلم هذه ، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما علم الإنسانُ شيئاً ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها ؟ هذه الحصيلة هي العلم .

وهذه الحواس تُؤدِّى عملها في الإنسان بمجرد أن تنشأ فيه ، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحياة ، والبعض يظنُّ أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويَعِي من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون : إن الطفل يُولَد

ولديْه ملكَاتٌ إدراكيـة سمَّـاها العلمـاء احـتـياطاً « الـحواس الخـمس الظاهرة » ، وقـد كان احتـياطهم في مـحله لانهم اكتـشفـوا بعد ذلك حواس أخـرى ، مثل حاسة العـضل مثلاً التى نُمـيِّز بها بين الخـفيف والثقيل .

وإنْ كانت حواس الإنسان كثيرة فـإن أهمها : السمع والـبصر ، وقـد وردت فى القرآن بهـذا التـرتيب ، السـمع أولاً ، ثم البصـر لأن السمع يسـبق البصر ، فـالإنسان بمـجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حـاسَّة السمـع ، أما البصـر فإنه يتـخلَّف عن السمع لعـدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق فى أداء مهمته ، هذه واحدة .

الأخرى : أن السمع هو الحاسَّة الوحيـدة التي تُؤدِّى مهمتها حتى حال النـوم ، وفى هذا حكمة بالغـة للخالق سـبحانـه ، فبالسـمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد سـبحانه أن ينامـوا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطَّـل حاسـة السـمع لديهم ، وإلاَّ لَـمَا تمـكَّنوا من النوم الطويل ، ولأزعجـتـهم الأصوات من خـارج الكهـف . فقـال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

ولم يسبق البـصر السمـع إلا فى آية واحدة فى كتـاب الله تعالى وهى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخـرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فـيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة] لأنهم فى الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسمع أوّل الحواس ، وهو أهمها في إدراك المعلومات ، حتى الذي يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً في التعلُّم ، ثم يأتي دَوْر البصر .

والذي يتتبع الآيات التي ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ⁽⁹⁾ ﴾ [السجدة]

إلا في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها جاءت : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ⁽³⁶⁾ ﴾ [الإسراء]

لماذا ؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات ؟

وقبل أن نُوضِّح الحكمة هنا يجب أن نعي أن المتكلم هو الله تعالى ، وما دام المتكلم هو الله فلا بُدَّ أن تجد كل كلمة دقيقة في موضعها ، بليغة في سياقها .

فالسمع جاء بصيغة الإفراد ؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع ، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً ، فهو واحد في جميع الآذان .

أما البصر فهو خلاف ذلك ؛ لأن أمامنا الآن مرائيَ متعددة ومناظر مختلفة ، فأنت ترى شيئاً ، وأنا أرى شيئاً آخر ، فَوحْدة السمع لا تنطبق على البصر ؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع .

أما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. ⁽³⁶⁾ ﴾ [الإسراء] فقد

ورد البصر هنا مفرداً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب ، فناسب ذلك أنْ يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسانُ - إذن - مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّي ، تلقِّي القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعي إلا خيراً ، ولا تتلقيْ إلا طيِّباً ، ويا مُربِّي النشء لا تُسْمِعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثْريها .

ويقول للعين : لا ترىْ إلا الحلال الذى لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُربِّي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبني عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ : رأيت وأنت لم تَرَ ، إياك أنْ تتعرَّض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنَّى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنيَّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُني على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله في قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾

ما زالت الآيات تسير في خطٍّ واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعي في مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر في حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قويماً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢٢)﴾ [الإسراء]

وهذه قضية القمة التي لا تنتظم الأمور إلا في ظلّها ، ثم قسّم المجتمع إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التي أدّت مهمتها في الحياة ، وحان وقت إكرامها وردُّ الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببِرّهما .

ثم توجَّه إلى الطبقة الصغيرة التي تحتاج إلى رعاية وعناية ، فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعَوز ، وخَصَّ بالوصية اليتيم ؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان .

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسُّط ، ونهى عن طرفَيْه : الإسراف والإمساك . ثم نهى عن الفاحشة ، وخصَّ الزنا الذى يُلوِّث الاعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسَفْك الدماء .

ثم تحدث عمَّا يحفظ للإنسان ماله ، ويحمى تعبه ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حَثَّ الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبنى حياته على نظريات خاطئة .

ألم تَرَ أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية فى الأرض ؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعياً .

وأوَّل شىء فى هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نَسَب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشط[1] ، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإنْ تفاوتت أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى ؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غنى ، وهذا فقير .

---

(١) أخرج ابن عدى فى الكامل (٢٤٨/٢) من حديث أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، والمرء كثير بأخيه يرفده ويحمله ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » وفيه أبو داود النخعى ، قال ابن عدى : اجتمعوا على أنه يضع الحديث . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء (٤٥١/٢) للديلمى عن أنس ، وعن سهل بن سعد .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية ، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، وأن الحصيلة واحدة ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفعَ رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسةً أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. (٣٧)﴾ [الإسراء]

أى : فخراً واختيالاً ، أو بَطَراً وتعالياً ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هبةً له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هى هبة يمكن أنْ تسترد فى يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبَّرْتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً ؟

إذن : فالتواضع والأدب أليَقُ بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته ؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

وَمَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية في الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغني والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير ، الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله ، الكل عبيد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم ، عندما خلعوا نعالهم ، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع . وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج .

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرؤوسه وهو في هذا الموقف وفي هذا الخضوع والتذلّل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلّل لله ، وهذا عين العِزّة والشرف والكرامة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

في هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين ، ولأصحاب الكبرياء الكاذب : كيف تتكبرون وتسيرون فَخْراً وخُيلاء بشيء موهوب لكم غير ذاتي فيكم ؟

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرقوا الأرض ، بل ستظل صلبة تتحداكم ، وهي أدْنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام ، وكذلك الجبال وهي أيضاً جماد ستظل أعلى منكم قامة ولن تطاولوها . والحق

سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرم لِيُبقِى له على التكريم فى :

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. ٣٧﴾ [الإسراء]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهى جماد ؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحَيَوَان والإنسان ، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا جميع الأجناس مُسخَّرة فى خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان ؟ ومَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أنْ يكون لك دَوْر فى الكون ووظيفة فى الحياة ، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة فى الوجود .

وفى فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذى هو أدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفى ركنها الحجر الأسعد الذى سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر ، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية فى الكون ، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة فى تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحْرُم قطعه ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك الحيوان يحرُم صَيْده ، فهذه الأشياء التى تخدمنى أتى الوقت الذى أخدمها وأُقدِّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة فى العمر لنلمح

الأصل ، ولكى لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْرى فى الكون كله .

فإياك أيها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبوديّ فى الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : كُلُّ ما تقدَّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذه الأمور التى تقدَّمتْ ، والتى تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السيء وفيها الحسن ، والسيء هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالفَ منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهي التى تقدَّمتْ يقولون : إنها الوصايا العَشْر التي نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ والمقصودة في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) الألواح : جمع لَوْح ، وهو الذى يكتب فيه . قال الزجاج : قيل فى التفسير أنهما كانا لوحيْن ، ويجوز فى اللغة أن يقال للوحين : ألواح . [لسان العرب ـ مادة : لوح] . قال ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/٢) : « قيل : كانت الألواح من جوهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام » .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما تقدّم من الوصايا .

﴿ الحِكْمَةَ ﴾ هى : وَضعْ الشيء فى مَوْضعه المؤدّى للغاية منه ، لتظلَّ الحكمة سائدة فى المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفه والفساد .

وقوله : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]

لسائل أنْ يسأل : لماذا كرَّر هذا النهى ، وقد سبق أنْ ذُكِر فى استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذى يُنظِّم حياة المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريكَ له ، ثم عدَّل نظام المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأرْسى قواعد الطُّهْر والعِفّة ليحفظ سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكُلِّ للكُلِّ .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أنْ يستقيم المجتمع ، ويسعد أفراده بفضل هذا المنهج الإلهى .

إذن : فإياك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر ، وكرَّر الحق سبحانه هذا النهى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]

لأنه قد يأتى على الناس وقتٌ يُحْسنون الظن بعقول بعض المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيرون على مناهجهم ، ويُفضِّلونها

على منهج الحق تبارك وتعالى ، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهِمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين .

إذن : لا يكفى أن تؤمن أولاً ، ولكن احذر أنْ يُزحزحك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفتنك عن دينك ، فتكون النتيجة : ﴿ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ مَلُومًا ﴾ : لأنك أتيتَ بما تُلام عليه ، ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ : أى : مطروداً مُبْعَداً من رحمة الله ، وهذا الجزاء فى الآخرة .

أما الذى لا يؤمن بها ، فلا بُدَّ لكى نستطيع العيش معه فى الدنيا ، أن يُذيقه الله بعض العذاب ، ويُعجِّله له فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه] أى : فى الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى فى قصة ذى القرنين : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف]

فقوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] لأنه مُمكَّن فى الأرض ، ومَنُوط به حِفْظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يُؤمنون

---

(١) أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه . [تفسير ابن كثير ١٠٢/٣] .

بالآخرة ، وإلا فلو أخَّرْنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم ، وعاثوا فى الأرض يُعربِدون ويُفسِدون .

ولذلك لا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقمَ الله منه ، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بُدَّ أنْ يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، فى حين أن المظلوم فى رعاية الله وتأييده ينصره بما يشاء من نعمه وفضله ، حتى إن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزير ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله . فوبَّخهم الله تعالى : كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات ولكم البنينَ ، إنها قسمة جائرة ، كما قال الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ[1] ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم]

أى : قسمة جائرة ظالمة .

قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ.. ﴿٤٠﴾ ﴾[الإسراء] أى : اصطفاكم واختار لكم البنين ، واتخذ لنفسه البنات ؟

---

(١) ضازه يضيزه : جار عليه . وضازه حقه : نقصه حقه ، وقسمة ضيزى : جائرة ظالمة . [القاموس القويم ١/٣٩٧] .

ويقول في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. ⑮ ﴾[الزخرف]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ⑩ ﴾ [الإسراء]

فوصف قولهم بأنه عظيم في القُبْح والافتراء على الله ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَداً ⑱ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً[1] ⑲ ﴾

[مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً ㊶ ﴾

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أي : حوّلنا الشيء من حال إلى حال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. ⑯④ ﴾ [البقرة]

يعني : تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سكْسكاً[2] عليلة هادئة ، ومرّة تجدها رُخَاءً أي : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً مدمراً . والرياح قد تكون لواقح تأتي بالخير والنماء ، وقد تكون عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ .. ㊶ ﴾ [الإسراء]

أي : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء في القرآن ، وعالجها في كثير من المسائل ؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجات متعددة في مقامات مختلفة من سُوره ، فتكرر ذِكْر هـذه المسألة . والتكرار قد يكون في

---

(١) الإد والإدّة : العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية . [لسان العرب ـ مادة : أدد] .

(٢) السكسكة : الضعف . [لسان العرب ـ مادة : سكك] والمقصود أنها ريح ضعيفة ذات نسيم عليل .

ذات الشيء ، وقد يكون باللُّف بالشيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

وقوله : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١) ﴾ [الإسراء]

أى : بدلَ أنْ يذكروا ويعودوا إلى جَادَّة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم ؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التي كانت لهم قبل الإسلام ، ولكي نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين في العالم نجد أن القانون الوضعيَّ الذي وضعه البشر لم يَأْتِ أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلُّط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونَه باسم الدين ، ويلزمون الناس به ، ولكن لُوحِظ عليهم أنهم يحكمون في قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون في نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمَّى بالسلطة الزمنية .

وهذه السُّلْطة الزمنية هي التي منعتْ يهود المدينة من الإيمان بمحمد ﷺ ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته وزمن بعثته ، وكانوا حينما يرونَ عُبَّاد الأصنام في مكة يقولون لهم : سيأتي زمان يُبعث فيه نبي في هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه في حق يهود المدينة : ﴿ وَلَمَّا

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

لقد تنكَّر اليهود لرسالة محمد ﷺ ، مع أنهم على يقين من صِدْقه ؛ لأن هذه الرسالة ستحرمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضي على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التي كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾

أي : لو كان مع الله آلهة أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذي العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية في قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وهذه قضية : إما أن تكون صادقة ، وإما أنْ تكونَ غير ذلك . فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة ، وإنْ كانت غير صادقة ، وهناك إله ثانٍ ، فأين هو ؟ لماذا لم نسمع به ؟ فإنْ كان موجوداً ، ولا يدري ـ أو كان يدري بهذه القضية ـ ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففي كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سَلِمتْ له هذه الدعوى .

وكلمة ﴿ ذِى العَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لمَنْ استتبَّ له الأمر بعد عِرَاك وقتال ، فيُصنع له كرسى أو سرير يجلس عليه .

وابتغاء الطريق إلى ذى العرش ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبطلوا دعوته ، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة ، وإن غُلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خَلْقه ومن عبيده ؛ لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ[1] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء]

ويقول : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقلتم : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كُلٌّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة ، فغيرهم ـ إذن ـ أَوْلَى .

---

(١) أى : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

وينزِّه الحق سبحانه نفسه ، فيقول :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾

وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ يعنى تنزيهاً مطلقاً له تعالى فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فلله تعالى ذات ليست كذاتك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك ؛ لأن الأشياء تختلف فى الوجود بحَسْب المُوجِد لها .

فمثلاً : لو بنى كُلٌّ من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتاً ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بُدَّ من وجود هذا التفاوت بين إله ومألوه ، وبين رَبٌّ ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن : كُلُّ الأشياء فى المتساوى تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ [الإسراء] أى : تعالى الله وتنزَّه عمَّا يقول هؤلاء علواً كبيراً ؛ لأن الناس تتفاوت فى العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيراً) ولم يقُلْ : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ فى موضعه المناسب ؛ لأن كبيراً تعنى : أن كلّ ما سواه صغير ، لكن أكبر تعنى أن ما دونه كبير أى : مُشَارِك له فى الكِبَر .

لذلك نقول فى نداء الصلاة : الله أكبر وهى صفة له سبحانه ، وليست من أسمائه ؛ ذلك لأن من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير ، كأعمال الخير والسعى على الأرزاق ، فهذه كبيرة ، ولكن : الله أكبر .

ثم يقول تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ[(١)] وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله ؛ لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك في ذلك الشيء ، فأنت لا تُوكّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بإله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصفات ، فالله غنيٌّ وأنت غني ، لكن غِنَى الله ذاتيٌّ وغناك موهوب ، يمكن أنْ يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد منْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه ، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن

---

(١) قوله تعالى ﴿ وَمَن فِيهِنَّ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] . قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٩٤) : « يريد الملائكة والإنس والجن . ثم عَمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

يخلق الخلق ؛ لأنه خالق قبل أن يخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً ؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملَكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخَلْق .

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة في القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) في أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ .. ①﴾ [الإسراء]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد]

بصيغة الماضي ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السموات والأرض ، وهي خَلْق سابق للإنسان .

ثم يأتي بلفظ : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..①﴾ [الجمعة]

بصيغة المضارع ؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس في الماضي ، بل ومستمر في المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته في السموات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً في منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكوني : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

أى : ما من شىء ، كل ما يُقال له شىء . والشىء : هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسبِّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط ؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلٌّ بلُغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقىّ ذاتىّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٩٦) : « الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأىّ تخصيص لداود (يقصد قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]) . وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء ، فالقول به أَوْلَى . والله أعلم » . وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إذن : كل شيء في الوجود عَلِم كيف يُصلّى لله ، وكيف يُسبِّح لله ، وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وها هم الناس أنفسهم ولهم في الأداء القوليّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزى - مع أنه يتكلم بألفاظ العربى - ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلَّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه في مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان في حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهي المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزى مثلاً ، ووضعتَه في بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ.. ﴿١٨﴾﴾ [البقرة]

فهم بُكْم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن : بالسماع انتقلتْ اللغة ، كُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التى يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسالة ستصل إلى آدم - عليه السلام - وهنا ياتى السؤال : وممَّنْ سمع آدم اللغة التى تكلم بها ؟

وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴿٣١﴾﴾ [البقرة]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربى بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هى اللغة ، كما حدث مع أبى علقمة النحوى ، وكان يتقعَّر فى كلامه ويأتى بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذى ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَى أنه فى ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه : (أصقَعَت[1] العَتَارِيفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً : (زقْفَيْلَم) . وكانت المرة الأولى التى يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة ، فقال : يا بنى وما (زقْفَيْلَم) ؟ قال : وما (صقعت العتاريف) ؟ قال : أردتُ : أصاحت الديكة ؟ فقال الغلام : وأنا أردتُ لم تَصِحْ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ؟ ألم يكْفنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات ، وإنْ كنا لا نفهمها ؛ لأننا نعتقد أن اللغة هى النطق باللسان فقط ، ولكن اللغة أوسع من ذلك .

فهناك - مثلاً - لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

---

(١) صقَع الديك : صوته . وقد صقع الديك : صاح . والعُتْرفان : الديك . [لسان العرب - مادة : صقع ، عترف] فمعنى : أصقعت العتاريف : أى : أصاحت الديكة .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هى استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفى أن ينظرَ إليه سيِّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجَّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

فالجبال تُسبِّح مع داود ، وتُسبِّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسبِّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما فى أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه .

وكذلك النملة التى تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسَّم ضاحكاً من قولها . وقد علَّمه الله منطقَ الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسبِّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبِّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعلَ الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه ، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو علَم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

ومع ما عندهم من إلْف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمِّيَ ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرأ على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذي لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به ؛ ذلك لأنهم في كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب في نفسه مثل هذه التسمية .

وفي مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحني خضوعاً لغيره ؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيلَ له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً في الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ ، وأخبر الهدهد عنهم بقوله :

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤)﴾ [النمل]

ألسْنَا نرى إنساناً يتقرَّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله ؟ ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصـر سيده ، ويُوقّع فى سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فـالإيمان بالوحـدانية فى شـىء متـميـز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرّد الحق سـبحانه بـفريضة الصـوم ، وجعلها خـالصة له سبـحانه ، لا يتقـرب بها أحد لأحـد ، وهل رأيت إنساناً يتقـرّب لآخر بصوم ؟ فـانظر إلى هذه السُّبْحـانية وهذا التنزيه فى ذاته سبـحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمّى باسمه .

وفى العبـادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصـوّرنا أن يقول واحـد للآخر : أنا سـأتقرّب إليك بـصوم هذا اليـوم أو هذا الشهـر ، إذن : أنت تريد منـه أن يجلس بجـوارك يحـرسـك ويراعى صـومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرّب إليه .

لذلك يقول الحـق سبحـانه فى الحديث القدسـى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[1] .

يعنى من الممكن أن يتقرب بأىِّ ركن من أركـان الإسلام لغيرى ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحـانية هى الدليل السـائد الشـامل الجامع لكل الخَلْق ؛ لذلك نقـول للكافـر : أيـهـا الكافـر لقـد تأبَّيْتَ على الإيـمـان بالله ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

وللعاصى : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمتم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبّى وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصى حينما ينحرف عن الجادّة ، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدّى على المال العام ، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام ، وربما أخذت فى طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :

« من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا مَنْ أطلعه الله عليه ، فإذا مَنَّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان ـ عليه السلام ـ شاكراً هذه النعمة : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

فقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

(٢) أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

لأن الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأناب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلولا أنْ يتداركَ الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج]

فها هى جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتُسبّح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا فى الإنسان السيِّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذى يشذُّ عن منظومة التسبيح فى الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذى ميَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقى المخلوقات فهى مُسخَّرة مقهورة ، فإنْ قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلّف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فاثبتَّ بذلك صفة المحبوبية .

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصي الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضّلتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضّل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

وفي رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرأ عليك وقت الأداء ما يحول بينك وبين أداء الأمانة .

والأمانة كما هو معروف لا تُوثّق ولا تُكتب ، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب ؛ لأنها لا تثبتُ إلا بذمّة الآخذ الذى قد يضعف عن الأداء وتُلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال .

فالإنسان - إذن - لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإنْ كان يضمنها وقت التحمُّل ، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيّرة ، أما الإنسان فقال : لى عقل وأستطيع التصرُّف والترجيح بين البدائل ، فكان بذلك ظالماً لنفسه ؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء ، وجهولاً بما يكون من تغيُّر أحواله .

فالكون - إذن - ليس مقهوراً رَغْماً عنه ، بل بإرادته واختياره ، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغْماً عنه ، بل بإرداته واختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى ، ويصنع أحداثاً أوّلية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها . وكفار مكة ما ادّخروا وُسْعاً ، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله ﷺ والتنكيل به إلا فعلوها .

ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله ، ولم تُثبِّط من عزيمته ، لماذا ؟ لأنه كان مُتوقّعاً لكل هذا الإيذاء ، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد .

فالمسألة لم تُفاجىء رسول الله ؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث ، فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى في الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة فَزِعاً ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه بأن هذا هو الناموس الإلهى ، وأنه ﷺ سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه نبيُّ هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتني أكون حياً حين يُخرِجك قومك ، فقال ﷺ : « أَمُخرجيّ هم ؟ »[1] .

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حصَّن رسوله ﷺ ضد ما سيأتى من أحداث ؛ لكى يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التى ربما ولدتْ الانهيار ، وأعطاه الطُّعْم المناسب للداء قبل حدوثه ؛ لتكون لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت فى نصر الله له مهما ادْلَهمتّ الخطوب ، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه .

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس لهم إلا الدنيا ، هى فرصتهم الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنْ أجَّل المؤمن بعض مُتَعِه وشهواته انتظاراً لما فى الآخرة فَلِامَ يؤجل الكفار مُتعتهم ؟

إذن : الذى يجعل هؤلاء يتهافتون على شهواتهم فى الدنيا أنهم غير مؤمنين بالآخرة .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٣٨) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتنسجم مع الكون ، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ، لابُدَّ أنْ يُصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها في ذات الرسول وفي منهجه ، في ذاته بالإيذاء ، وفي دعوته ومنهجه بصَرْف الناس عنه ، ألم يقل الكفار لمن يَروْنَ عنده مَيْلاً للإسلام : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت]

وقولهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. ۝٢٦﴾ [فصلت] شهادة منهم بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما قالوا هذا القول .

وقولهم : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. ۝٢٦﴾ [فصلت] أي : هرّجوا وشَوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى آذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق رسول الله وصدق دعوته ، وقد دلّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندن بآيات القرآن كان صناديد الكفر في مكة يتعمدون سماع القرآن ، والتلذُّذ بروعته وبلاغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ [الإسراء]

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة في السيرة النبوية (٢١٥/١) ، أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وتكرر هذا ثلاث ليال .

يُرْوَى[1] أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيظهم .

وكأن الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أنْ بيَّتوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقول له : اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذى جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون إليك ، هو الذى سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خَوْفاً ، بل خرج وهو يقول « شاهت الوجوه »[2] وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك : يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين فى نصره وتأييده .

وقوله : ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]

الحجاب : هو المانع من الإدراك ، فإنْ كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإنْ كان للأذن فهو مانع للسمع .

---

(١) قال الزجاج فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٣٩٩٨/٥) : « نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم : أبو جهل ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرون به ولا يرونه .

(٢) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (٣٦٨/١) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (٢٨٦/١) والدارمى فى سننه (٢١٩/٢) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

وكلمة ﴿ مَسْتُوراً ﴾ اسم مفعول من الستر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (ساتراً) ، وهذا من قبيل المبالغة فى الستر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذى يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالُكَ بما خلفه ؟

ولا شكَّ أن الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادى ، لكن هذا الحجاب الذى يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنويّ ولا يراه أحد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ② ﴾ [الرعد]

فلو قال : بغير عمد وسكت فقد نفى وجود عَمَد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ④① ﴾ [فاطر] فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَد تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تجعل المعنى صالحاً لأنْ نقول بغير عَمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تحملها ، أو نقول : إن لها عمداً لكنَّا لا نراها ، فهى عَمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عَمد المسلح أو الرخام أو الحديد .

وفى هذا ما يدكُّ الغرور فى الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له فى إدراكه ، وأن حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقـدرة الإلهية هى التى تُسيِّـر هذا الكون ، وتأمر كل شىء بأن يُؤدِّى مهمته فى الحيـاة ، وإنْ شاء عطَّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحـدة ، بأن جعـل فيه الـنواميس والقـوانين ، وهى التى تحكم العالم وتُسيِّره .

ففـى قصة مـوسى ـ عليه الـسلام ـ أنه سار بـجيشـه ، يطارده فرعـون وجنوده حتى وصـل إلى شاطىء البـحر فأصـبح البحـر من أمـامـه ، وفـرعـون من خلفـه حـتى قـال أصـحـاب مـوسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء]

فأين المفر ، وها هو البـحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقى مع واقع الحدث البشـرى ، لكن الأمر يختلف عند موسى ـ عليـه السـلام ـ فـقـال بملء فـيـه : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

فهل قالهـا موسى برصيد بشرى ؟ لا ، بل بـمـا عنده من ثقة فى ربه ، وهكذا انتقلت المـسألة إلى ساحة الخالق سـبحانه ، فقـال لنبيه موسـى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطراقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحـر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحيـة الأخرى ، وتنشرح صدورهم بـفرحة النجاة ، ويأخـذ موسى ـ عليـه السلام ـ عصاه ليضرب البـحـر ليعـود إلى طبيعته ، وحـتى

لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فعندما نزل فرعون وجنوده البحر واكتمل عددهم في قاعه أطلق الخالق سبحانه للماء قانون سيولته ، فأطبق على فرعون وجنوده ، وكانت آيةً من آيات الله ، شاهدة على قدرته سبحانه ، وأنه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشيء الواحد ، وشاهدة على قيوميته تعالى على خَلْقه ، فليس الأمر - كما يقولون - أمر قانون أو ناموس يعمل ، ويدير حركة الكون ، فكل المعجزات التي مرَّتْ في تاريخ البشرية جاءت من باب خرق النواميس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[2] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[3] وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾

ومعنى ﴿ أكنة ﴾ جمع كِنَان ، وهو الغطاء ، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التي غلَّفَتْ قلوبهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت]

الكون كله خَلْق الله ، والإنسان سيد هذا الكون ، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه ، حتى وإنْ

(١) أي : اترك البحر ساكناً ليغتروا فينزلوا فيه . [القاموس القويم ١/٢٧٩] .

(٢) الأكنة : الأغطية . مفرده : كنان [لسان العرب - مادة : كنن] .

(٣) الوقر : ثقل في السمع ، وقيل : هو أن يذهب السمع كله [لسان العرب - مادة : وقر] .

كان كافراً لا يزال يتقلَّب فى عطاء الربوبية ، فلا يُحرم منها كافر بكفره ولا عاصٍ بمعصيته ، بل كما قال تعالى : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠) ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ فرَّقنا بين عطاء الربوبية المتمثّل فى كل نِعَم الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذى يقتضى عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمُّل فى هذه النعم التى تُساق إليه دون سَعْى منه أو مجهود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قدرة عليها ؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التى أجراها الله تعالى من أجله ، وسخَّرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً للاستدلال على الخالق سبحانه بما أودعه فى الكون من ظواهر وآيات بالرجل الذى انقطعت به السُّبُل فى صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهى من الطعام والشراب ، ألاَ تثير فى نفسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتدَّ إليها يده ؟

وكذلك الكافر الذى يتقلّب فى نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وقد طرأ على الكون فوجده مُعداً لاستقباله مُهَيئاً لمعيشته ، فكان عليه أنْ يُجرى عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعم .

والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عَمَّنْ كفر ، بل إن

الكافر حين يتمكّن الكفر منه ويُغلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد ، ويزيده مما يحب ، كما قال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء] لم تأتِ من الله ابتداءً ، بل لما أحبُّوا هم الكفر ، وقالوا عن أنفسهم : قلوبنا في أكنة ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فَلْنَزِدهم منه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء]

أي : كراهية أنْ يفقهوه ؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم ، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع ، بل يريد قلوباً تخشع ، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته .

وفي سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

فالأعناق هي الخاضعة وليست القلوب ؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك ، إذن : فالله تعالى يريد القلوب ، يريدها طائعة محبة مختارة ، أما هؤلاء فقد اختاروا الأكنّة على قلوبهم ، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر ، فزادهم الله منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٤٦) ﴾ [الإسراء]

(وَقْراً) أى : صَمَم ، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً ؛ لأنه ما فائدة السمع ؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سمعه وكان به صَمَماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا .. (٤٦) ﴾ [الإسراء]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً ؟ لأنك أتيتَ لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم ، وبالله لو أن قضيةَ الإيمان ليست فطرية موجودة فى الذات وفى ذرّات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ؟ فَممّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع ، وانقهار الفطرة التى يعتريها غفلة ، فإذا ذُكِر الله تعالى أمامهم ، فإذا بهم يُولُّون مدبرين فى خَوْفٍ ونُفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا يَخْفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أنْ ينتبهوا إليها ويُراعوها ، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا في أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذي لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه ؟ ألاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور في نفوسهم إلى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شيء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه : الأول : يستمعون إليك . والثاني : وإذ هم نجوى . والثالث : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان ؛ لذلك كانت معجزة النبي ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح في التحدي ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفي مكة تصب كل الألسنة في مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التي يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا في وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا

مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما في طباعهم من ملكات عربية .

فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبي سفيان ، وأبي لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس - ممن كانوا يقولون لهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » - كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن[1] .

فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] أي : بالحال الذي يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] من التناجي وهو الكلام سِراً ، أو : أن نَجْوى جمع نجي ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .

فالمعنى : نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناج .

وقوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] فيه مبالغة ، كما تقول : رجل عادل ، ورجل عَدْل . ومِنْ تناجيهم ما قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[3] .

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة في السيرة النبوية (١/٣١٥) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق . [لسان العرب - مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٠) .

ثم تأتى الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧) ﴾ [الإسراء]

وهذا هو القول المعلّن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن . وهذا كله إفلاس فى الحجة ، ودليل على غبائهم العقدىّ .

وكلمة (مَسْحُوراً) اسم مفعول من السحر ، وهى تخييل الفعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهى صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهى ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى - عليه السلام - من جنس السحر وليست سحْراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حيَّةً تبتلع حبال السحرة وعِصيّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة فى مجال السحر ظنها الناسُ سحْراً ؛ لأن القرآن قال فى سحرة فرعون : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف] وقال فى آية أخرى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى - عليه السلام - وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأنّ ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتخفيلهم أنه حينما قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه]

فأطال موسى - عليه السلام - الكلام ؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام

مع ربه تعالى فأجاب : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⑱﴾ [طه] ثم أحس موسى أنه أطال فقال موجزاً : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾ [طه]

فهذا هو مدى علمه عن العصا التي في يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ⑲ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳﴾ [طه]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهي عصا ؟ أم أنها انقلبت حيَّة فعلاً ؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ⑰﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيَّة حقيقية ، ثم طمأنه ربه : ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ⑱﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً ، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⑰﴾ [الإسراء]

أي : سحره غيره . وهذا قول الظالمين الذين يُلفِّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضاً : ساحر . قال تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ②﴾ [يونس]

---

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⑱﴾ [طه] أي : أسقط بعصاي أوراق الشجر على غنمي لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٢] .

فمرّة قُلْتم : ساحر . ومرة قلتم : مسحور . وهذا دليل التخبُّط واللَّجج ، فإن كان ساحراً فعندكم من السحرة كثيرون ، فلماذا لا يُواجهونه بسحر مثل سحْره ؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كما سحر غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر ؟

وإنْ كان مسحوراً سحره غيره ، فهل جرَّبْتُم عليه فى سحره كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن : فهذا اتهام باطل وقول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيتم عليه ، ولم يُصبكم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ، وبالله أمثلُكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان ـ يَخْفى عليه أن يُفرِّق بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قرأت مثلاً فى كتب الأدب تجد الكاتب يقول : هذا العدل محمود عواقبه ، وهذه النُّبْوة غُمّة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سيبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاَء فَيْضاً أحفلُها ، وأثقل السحائب مَشْياً أحفلها ، ومع اليوم غد ، ولكلٍّ أجل كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإنْ يكن الفعلُ الذى ساءَ واحِداً فأفعالُه اللائِى سرَرْنَ أُلُوفُ

فلا شكَّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تُميِّز أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته فتجدها تنساب انسياباً لا تلحظ فيه أنكَ انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . واقرأ قول الله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]

أجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً شعرياً : مستفعل فاعلات .... وكذلك : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر] تعطيك الشطر الثاني من البيت ، لكن هل لاحظتَ ذلك في سياق الآيات ؟ وهل لاحظتَ أنك انتقلت من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له : شعر ولا نثر ، وهذا الأمر لا يَخْفى على العربي الذي تمرَّس في اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع تمييز الجيِّد من الرديء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾﴾

أي : تعجَّبْ مما هم فيه من تخبُّط ولَجج ، فمرَّة يقولون عن القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ، وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أنّ الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرسل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرسَل وهو النبى ﷺ ومُرْسَلٌ به وهو القرآن الكريم ، وقد تخبّط الكفار فى هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم فى الألوهية وعن موقفهم من رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ؟! فبدل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه تراهم يُفضِّلون الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كِبْرهم وعنادهم وحماقتهم أمام كتاب الله .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله ﷺ ورفْعة منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، ويُطمئِن قلب رسوله ، ويتحمل عنه الإيذاء فى قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهُمْ مع كفرهم لا يكذبونك

ولا يجرؤون على ذلك ولا يتهمونك ، إنما المسألة أنهم يجحدون بآياتي ، وكُلُّ تصرفاتهم في مقام الألوهية ، وفي مقام النبوة ، وفي مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قولٌ كاذب بعيد عن الواقع ؛ لأن ما هو الجنون ؟ الجنون أن تُفسد في الإنسان آلة التفكير والاختيار بين البدائل ، والجنون قد يكون بسبب خَلْقي أي : خلقه الله تعالى هكذا ، أو بسبب طارىء كأنْ يُضربَ الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختلّ عنده مجال التفكير .

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخَّرَ له التكليف إلى سنّ البلوغ واكتمال العقل ، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله ؛ لأنه لو كلّفه قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها ، ومع ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سِنّ التكليف ليُعَوِّده الصلاة من الصغير ليكون على إلْفٍ بها حين يبلغ سِنّ التكليف ، وليألف صيغة الأمر من الآمر .

والإنسان لا يشك في حُبّ أبيه وحِرْصه على مصلحته ، فهو الذي يُربّيه ويُوفّر له كل ما يحتاج ، فله ثقة بالأب المحس ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُربّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق ؛ لأنها أصبحتْ عادة .

والذي أعطى للأب حَقَّ الأمر أعطاه حَقّ العقاب على تركه ليكون التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لتُعوِّده بالأُبُوة

المحسةُ والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذى أنعم علىَّ وعليك .

فالعقل ـ إذن ـ شرْط أساسى فى التكليف ، وهو العقل الناضج الحرّ غير المكْرَه ، فإنْ حدث إكراه فلا تكليف .

فقوله : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ .. (٤٨) ﴾ [الإسراء] أى : قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد ردّ الحق سبحانه عليهم بقوله : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة الخُلق العظيم ، والمجنون لا خُلقَ له ، ولا يُحاسَب على تصرفاته ، فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونُشفِق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نُقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَّ يُعقِّب على كلامك أحد ، وأنْ تفعلَ ما تريد .

ألاَ ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل في الدنيا ولا في الآخرة ؟ أليست هذه كافية لتُعوِّضه عن فقد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من ميْزات في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) ﴾ [الإسراء]

أي : لم يستطيعوا أنْ يأتُوا بمثْلٍ يكون صادّاً وصارفاً لمن يؤمن بك أنْ يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذبوا . وقالوا : ساحر وكذبوا . وقالوا : شاعر وكذبوا . وقالوا : كاهن وكذبوا . فَسُدَّتْ الطرق في وجوههم ، ولم يجدوا مَنْفَذاً لِصدِّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْف يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

ومنهم مَنْ قال : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعوِّقون به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْف الدعوة في بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقْعة الإيمان ، أما كَيْدهم وتدبيرهم فيتجمّد أو يقلّ . كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا[1] مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

---

(١) قال ابن عباس في تأويل هذه الآية : « أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وفي رواية عنه : نقصان أهلها وبركتها » . [تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٠] .

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقِلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى فى قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا فى أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلفِتَ أنظارنا إلى قضية هامة فى الوجود ومنتظمة فى كل الكائنات ، وهى أن الأفعال تقتضى فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذى يُقلِّب التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتنفعل هى معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .. أما لو فعل هذا الفعل فى صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فثمرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتى إلينا بالمغريات وأسباب الانحراف ، ويُصدِّر إلينا المبادىء الهدامة ويُشككنا فى ديننا .. إلخ .

ونقول لهؤلاء : ما يضركم أنتم إنْ فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل ؟! دَعُوه يفعل ما يريد ، المهم ألاَّ نقبلَ وألاَّ نتفاعلَ مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست فى فعل الغرب بنا ، ولكن فى تقبُّلنا نحن ولَهْثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لقِلَّة الخميرة الإيمانية فى نفوسنا ، فالغرب يريد أنْ يُثبِّت نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلاَّ أنْ تتأبَّى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنَى الحضارات فى العالم كله ؛ لأن الخالق سبحانه حينما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مُقوِّمات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ،

وماء ، وهواء . ومن هذه المقوّمات ما يعطيك ويخدمك دون أنْ تتفاعلَ معه أو تطلبَ منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلاَّ إذا تفاعلتَ معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسَّقْى والبَذْر .

والمتأمل فى الكون يجد أن جميع ارتقاءات البشر من هذا النوع الثانى الذى لا يعطيك إلا إذا تفاعلتَ معه ، وقد ترتقى الطموحات البشرية إلى أن تجعلَ من النوع الأول الذى يعطيك دون أن تتفاعلَ معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن فى استعمال الطاقة الشمسية فى مجالات جديدة لم تكُنْ من قبل . إذن : فهذه ارتقاءاتٌ لا يُحْرَم منها مَنْ أخذ بالأسباب وسَعَى إلى الرُّقيِّ والتقدم .

إذن : إنْ جاء يُشكِّك فى دينك نَدَعْهُ ، وما يقول فليس بملوم ، إنما الملوم أنت إنْ قبلْتَ منه ؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلِّ قائم على تربية النشء أنْ نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتغريب ، ونُعلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكِّنهم من الدفاع والردِّ بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سَهْلة فى أيدى هؤلاء .

وهذه هى المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه فى الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألاَ ترى الحق سبحانه فى قرآنه الكريم يَعْرِض لشُبَه الكافرين والملاحدة ويُفصِّلها ويُناقشها ، ثم يبين زَيْفها ، فيقول : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف]

فلماذا يعرضها القرآن ؟ هل لنأخذ بها ونتعلمها ؟ لا بل لكي لا نُفَاجأ بها ، فإذا أتتْ يكون لدينا المناعة الكافية ضِدّها ، ولكي تتربّى فينا الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

إذن : فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : في الشتاء ينفخ الإنسان في يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ في كوب الشاي ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف . وكذلك حال الناس في سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار[1] في حال هدوء وانسجام ، فقال :

« والله إنّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغْدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه » لقد استمعه بملكة العربي الشَّغُوف بكل ما هو جميل من القَوْل ، لا بملكةِ العناد والكِبْر والغطرسة .

وكذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - له حالان في سماع القرآن : حال كفر وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورِقّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهي تقرأ القرآن ، فصفَعها بقسْوة حتى أدْمَى وجهها ، فأخذتْه عاطفة الرحم ، وتغلبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآنَ بهذه العاطفة الحانية تأثّر به ، فآمن مِنْ فَوْره ؛ لأن القرآنَ صادف منه قلْباً صافياً ، فلا بد أنْ يُؤثّر فيه .

---

(١) هو : الوليد بن المغيرة . وهذا القول نقله ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) . وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً في أمر محمد ﷺ رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأنْ تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

فالمسألة ـ إذن ـ تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لتقبُّل الشيء والانفعال به .

وقد لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد] فيأتي الرد عليهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أنْ تلوم مَنْ يريد أن يلوىَ الناس إلى طريق الضلال ، بل دَعْه في ضلاله ، وربِّ في الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم عن موقفهم من المنهج الذي جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمْنَا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا في الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة في الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتلميذ الذي يجتهد ويجدّ ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غبيٌّ مَنْ يظن أن الدنيا هي نهاية المطاف ، وأنها الغاية التي ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون ، ومع ذلك نرى مَنْ يموت في بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هي الغاية لاستوى الجميع في المكْث فيها ، فاختلاف الأعمار في الدنيا دليل على أنها ليست غاية .

وعجيب في أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أُخِذ في شبابه ويكثرون عليه العويل ، لماذا ؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أي دنيا هذه التي تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أنْ تلوّثه آثامها وتلطّخه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخطئون في تقدير الغايات ؛ لأن كل حَدَث يُحدِثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقلَ إلى الثانوية .

وهكذا تتوالى الغايات في الدنيا إلى أنْ يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهي أن يبني بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أنْ يصلَ إلى هذه الغاية .

إذن : فلابد للإنسان أنْ يتعبَ أولاً ، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول ، فمَن اكتفى

بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرّج من الجامعة ، فلكُلٍّ مرتبته ومكانته ؛ لأنك تعيش في الدنيا بالأسباب وعلى قَدْر ما تعطى تأخذ .

إذن : فغايتك في الدنيا أن تكون مخدوماً ، مع أن خادمك قد يتمرّد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفّر عليك هذا كله ، وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت ، فبمجرد أنْ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ؛ ذلك لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب ، وفي الآخرة تعيش بمُسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة لرجحَتْ كِفّة الآخرة ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هي عمرك فيها فقط ، وليس عمر الدنيا كله ، كما يحلو للبعض أنْ يُحدِّد عمر الدنيا بعدة ملايين من السنين ، فما دَخْلك أنت بكل هذه الملايين ؟!

فالدنيا - إذن - هي عمري فيها ، وهذا العمر مظنون غير مُتيقّن ، وعلى فرض أنه مُتيقّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهي حتماً بالموت . أضِفْ إلى ذلك أن نعيمك في الدنيا على قَدْر سَعْيك وأَخْذِك بأسبابها .

أما الآخرة فهي باقية لا نهاية لها ، فلا يعتريها زوال ولا يُنهيها الموت ، كما أن مُدتها مُتيقّنة وليست مظنونة ، ونعيمك فيها ليس على قَدْر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيُّهما أحسن ؟ وأيُّهما أَوْلَى بالسَّعْي والعمل ؟ ويكفي أنك في الدنيا مهما توفّر لك من النعيم ، وإنْ كنت في قمة النعيم بين أهلها فإنه يُنغِّص عليك هذا النعيمَ أمران : فأنت تخاف أنْ تفوتَ هذا النعيم

بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهى نعمة مُكدّرة ، أما فى الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأىُّ الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

الاستفهام فى الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضوع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشيء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذى استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد في الاستقبال ويقلّ فى الماضى ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيَا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولّى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن الناس سوف يتخبّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية فى كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ،

وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التى تخبَّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغِى إلى أقوال المضلِّين الذين يخوضون فى هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل ؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ⦗٥١⦘ ﴾ [الكهف] أى : لم يكن معى أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدنى أحد ليَصِفَ لكم ما حدث ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ⦗٥١⦘ ﴾ [الكهف] أى : ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعداً أو مُعاوناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يَخوض فى قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلّل فلا تستمعوا إليه .

ولكى تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط فى الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجنى من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التى لا تُجدى .

وكلمة « العقل » نفسها من العقال الذى يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف فى التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التى هى وسيلة الرؤية ، والأذن التى هى وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً فى الرؤية ، وللأذن حدوداً فى السمع ، فللعقل حدود فى التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل فى المجال الذى تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان فى كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا فى قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أيَّ مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على قضية إلا قضية واحدة ، وهى أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمنِ الذى أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التى تبحثون عنها ، وتَرْمَحُون بعقولكم خلفها ، فى حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذى يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هَبْ أننا فى مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب ـ فكلنا نتفق فى التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصور أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس]

وبقوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ[1] لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴿٢٧﴾﴾ [الروم] فإعادة الشيء أهون من خَلْقه أولاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

---

(١) قال السدي : السجل ملك مُوكَّل بالصحف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٨٣] قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢٠٠) : « الصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . وعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب ».

لتشكيك الناس في دين الله ، ومن مغالطاتهم في هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالي عناصر من عناصر الميت ، وتتكوَّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التي تكوَّنت في الثاني نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث - إذن - على حَدِّ قَوْلهم ؟

والحقيقة أنهم في هذه المسألة لم يفطنُوا إلى أن مُشخّص الإنسان شيء ، وعناصر تكوينه شيء آخر .. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعي ، فهل الذرات التي خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هي بعينها الذرات التي دخلتْه حين تَمَّ علاجه ؟ إن الذرات التي خرجتْ منه لا تزال في (المجاري) ، لم يتكون منها شيء أبداً ، إنما كميّة الذرّات ومقاديرها هي التي تقوى وتشخص .

وربنا سبحانه وتعالى رحمة منه ، قال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④ ﴾ [ق] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التى تُكوِّن فلاناً المشخَّص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞٥٠ ﴾

أى : قُلْ رداً عليهم : إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعِبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة فى فترة من الفترات ، ولها إِلْف بالحياة ، فمن السهل أنْ نعيدَ إليها الحياة ، بل وأعظم من ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه أنْ يُعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد ، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم .

وكان الحق سبحانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد ؛ لأن الحديد أشدّ من الحجارة وهو يقطعها ، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً .

ثم يترقّى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى :

﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ(١) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۞٥١ ﴾

---

(١) أى : سيحركونها ويهزونها تعجباً وإنكاراً أو سخرية واستهزاء [القاموس القويم ٢٧٦/٢] .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

أى : هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوغَّلوا فى التحدِّى والبُعْد عن الحياة ، فأنا قادر على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها .

وقوله : ﴿ مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

يكبر : أى يعظُم منْ كَبُر يكبُر . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى : عَظُمت . والمراد : اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد ، فهُما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى فَرْضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] جاء هذا الشىء مُبْهَماً ؛ لأن الشىء العظيم الذى يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا فى أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا فى الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى فى نفس كل واحد كُلّ على حَسْب ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً - رضى الله عنه ، وكرّم الله وجهه - عن أقوى الأجناس فى الكون ، وقد علموا عن الإمام علىّ سرعة البديهة والتمرُّس فى الفُتْيا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذى

يحتاج فى الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام على وهم مختلفون فى هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى . ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فأفتاهم الإمام فى هذه القضية ، وانظر إلى دقّة الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يقُلْ : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحضرة فى ذِهْنه ، مُرتَّبة فى تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفَرَدَ أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذى استحضر درسه وأعدّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله فى الكون الهمّ » .

فهذه الأجناس هى المراد بقوله تعالى : ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١)﴾ [الإسراء] فاختاروا أيّاً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

أي : أن الذي خلقكم بدايةً قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أهْوَن من الخلْق بدايةً ، ولكن الجواب لا يكون مُقنعاً إلا إذا كانت النتيجة التي يأتي بها الجواب مُسلّمة . فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أوّل مرة ؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفْرهم ، بدليل قولهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] فهم مقتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا : مَنْ يُعيدنا ؟ فإنْ قلت لهم : الذي فطركم أول مرة . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء]

معنى يُنغِض رأسه : يهزُّها من أعلى لأسفل ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما تقول ، والمتأمل في قوله ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ يجده فِعْلاً سيحدث في المستقبل ويقع من مُختارٍ ، والمقام مقام جَدلٍ بين الكفار وبين رسول الله ، وهذه الآية يتلوها رسول الله على أسماعهم ويخبر أنه إذا قال لهم : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء] فسينغضون رؤوسهم .

فكان في وُسْع هؤلاء أنْ يُكذّبوا هذا القول ، فلا يُنغِضون رؤوسهم لرسول الله ويمكرون به في هذه المسألة ، ولهم بعد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتهموه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فها هي الآية تُتلَىَ عليهم وتحْتَ سَمْعهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدلُّ على غباء الكفار وحُمْق تفكيرهم .

وما أشبه هذا الموقف منهم بموقفهم من حادث تحويل القبلة

حينما قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا .. (١٤٤)﴾ [البقرة]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

وهذا قَوْلٌ اختياريٌ في المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألاَّ يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مأخذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالة : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجُّب الدالّ على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث إلى ميعاد الحدث ، وهذا تراجعٌ منهم في النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعيدنا ؟ والآن يقولون : متى ؟ فيأتي الجواب : ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ [الإسراء]

عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر مُتوقَّع يختلف باختلاف الراجي والمرجو منه ، فإذا قُلْت مثلاً : عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيرى لك ، أما لو قلْت : عسى أنْ أعطيك كذا ، فهى أقرب فى الرجاء ؛ لأننى أتحدَّث عن نفسى ، وثقة الإنسان فى نفسه أكثر من ثقته في الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأييً فلا أعطيك ، أو يأتى وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قُلْتَ : عسى الله أن يعطيك فلا شكّ أنها أقربُ فى

الرجاء ؛ لأنك رجوت الله تعالى الذى لا يُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء . وإنْ كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه ؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .

وقد شرح لنا الرسول ﷺ مسألة القرب فقال : « بُعثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] وأشار بالسبَّابة والوسطى ؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما ، كما أننا نقول : كلُّ آتٍ قريب ، فالأمر الآتى مستقبلاً قريب ؛ لأنه قادم لا محالةَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

هذا فى يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها فى الدنيا ؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح فى الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا دَخْل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح ، ولم يَعُدْ لها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥١) ، والبخارى فى صحيحه (١١/٣٤٧ ـ فتح البارى) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

لقد كانت لكم ولاية علينا في دُنْيا الأسباب ، أما الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

ففي الدنيا ملَّك الناس ، وجعل مصالح أناسٍ في أيدي آخرين ، أما في الآخرة ، فالأمر كله والملْك كله لله وحده لا شريك له .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء] أي : يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية في الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء] أي : تقومون في طاعة واستكانة ، لا قَوْمةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس ، فكلّ هذا انتهى وقته في الدنيا ، ونحن الآن في الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء] ولم يقل : فتُجيبون ؛ لأن استجاب أبلغُ في الطاعة والانصياع ، كما نقول : فهم واستفهم أي : طلب الفَهْم ، وكذلك ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي : تطلبون أنتم الجواب ، وتُلحُّون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبَّوْن عليه ، فتُسرعون في القيام .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء] أي : تُسرِعون في القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد لا يكون إلا على شيء محبوب ؟

نعم ، إنهم يحمدون الله تعالى ؛ لأنهم عاينوا هذا اليوم الذى طالما ذكَّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألحّ عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذَّبوا ، وها هم اليوم يَرَوْنَ ما كذَّبوه وتتكشَّف لهم الحقيقة التى أنكروها ، فيقومون حامدين لله الذى نبَّههم ولم يُقصِّر فى نصيحتهم . كما أنك تنصح ولدك بالمذاكرة والاجتهاد ، ثم يخفق فى الامتحان فيأتيك معتذراً : لقد نصحتنى ولكنى لم أستجبْ .

إذن : فبيانُ الحق سبحانه لأمور الآخرة من النِّعَم التى لا يعترف بها الكفار فى الدنيا ، ولكنهم سيعترفون بها فى الآخرة ، ويعرفون أنها من أعظم نِعَم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى فى سورة (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن] بعد قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] فالآية فى نظرهم تتحدث عن نِقْمة وعذاب ، فكيف يناسبها : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن]

والمتأمل فى الآية يجدها منسجمة كل الانسجام ؛ لأن من النعمة أن نُنبِّهك بالعظة للأمر الذى ينتظرك والعذاب الذى أُعدَّ لك حتى لا تقعَ فى أسبابه ، فالذى يعلم حقيقة العذاب على الفعل لا يقترفه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) ﴾ [الإسراء]

الظن : خبر راجح ؛ لأنهم مذبذبون فى قضية البعث لا يقين عندهم بها .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

﴿ إنْ لبثْتُمْ ﴾ أى : أقمتُم فى الدنيا ، أو فى قبوركم ؛ لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شيء . وكذلك فى القبور ؛ لأن الميت فى قبره شِبْه النائم لا يدرك كم لَبِثَ فى نومه ، ولا يتصوّر إلا النوم العادى الذى تعوّده الناس .

ولذلك كل مَنْ سُئل فى هذه المسألة : كم لبثتم ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداثَ فيها ، فكيف - إذن - سنراقب الأحداث والملكة الواعية مفقودة ؟

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وقال : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾ [المؤمنون]

أى : لم يكُنْ لدينا وَعْىٌ لنعُدَّ الأيام ، فاسأل العادِّين الذين يستطيعون العدَّ .

وفى قصة العزير الذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] على مُقْتضى العادة التى ألفها فى نومه ، فيُوضِّح له ربه : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فالمدّة فى نظر العزير كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبَوْنُ شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقوْلاَن

---

(١) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ، ولا أنتن ولا العنب نقص . قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣١٤) .

صادقان . والحق سبحانه أعطانا الدليل على ذلك ، فقد بعث العُزَير من موته ، فوجد حماره عظاماً بالية يصدُق عليها القول بمائة عام ، ونظر إلى طعامه وشرابه فوجده كما هو لم يتغير ، وكأنّ العهدَ به يوم أو بعض يوم ، ولو مَرّ على الطعام مائة عام لتغيَّر بل لتحلَّل ولم يَبْقَ له أثر .

وكأن الخالق سبحانه قبض الزمن وبَسَطه في وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن : قَوْلُ الحق سبحانه مائة عام صدَق ، وقول العُزَير ﴿ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ صدَق أيضاً ، ولا يجمع الضدَّيْن إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبوة وتكذيبهم للنبي ﷺ ، ثم عن موقفهم من منهج الله وكفرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أنْ يُعطينا الدروس التي تُربِّب منهج الله في الأرض ، فقال تعالى[1] :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ[2] بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين عبيد وعباد ، وأنهما جَمْع عبد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضع لسيِّده في الأمور القهرية ، وتمرَّد عليه في الأمور الاختيارية ، أما عباد فتدلّ على مَنْ خضع لسيده في كُلِّ

(١) ذكر الواحدي في أسباب النزول (ص ١٦٦) أن هذه الآية نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أن رجلاً من العرب شتمه ، فأمره الله تعالى بالعفو . وقال القرطبي في تفسيره (٥/٤٠٠٤) : « ذكره الثعلبي والماوردي وابن عطية والواحدي » .

(٢) نزغ الشيطان بينهم : أفسد وأغرى . ونَزْغ الشيطان : وساوسه ونخسه في القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصي . [لسان العرب ـ مادة : نزغ] .

أموره القهرية والاختيارية ، وفضَّل مراد الله على مُرَاده ، وعنهم قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان]

وهذا الفَرْق قائم بينهما في الدنيا دون الآخرة ، حيث في الآخرة تنحلّ صفة الاختيار التى بنينا عليها التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع فى الآخرة ، فكلهم عبيد وعباد ؛ لذلك قال تعالى فى الآخرة للشيطان : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

فسمَّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء]

اى : العبارة التى هى أحسن ، و كذلك الفعْل الذى هو احسن . والمعنى : قُلْ لعبادى : قولوا التى هى أحسن يقولوا التى هى أحسن ؛ لانهم مُؤتمرون بأمرك مُصدِّقون لكَ .

و ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعنى : الأحسن الأعلى الذى تتشقَّق منه كُل أَحْسَنيات الحَياة ، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان ﷺ يقول : « خَيْرُ ما قُلْته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

لأن من باطنها ينبتُ كل حسن ، فهى الأحسن الكبيرة ؛ لأنك ما دُمْتَ تؤمن بالله فلن تتلقَّى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجوَ إلا هو ، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها ؛ لأنك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفي بنفسك فقط ، بل تحب أنْ يُشاركك الآخرون هذا الخير ؛ لذلك إذا أردنا أن ننطقَ بهذه الكلمة نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعني عند مَنْ لم يشهد ، فكأن إيمانك بها دَعاك إلى نَقْلها إلى الناس ، وبثّها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأحسن هو : كل كلمة خير ، أو الأحسن هو : الجدل بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

أو نقول : الأحسن يعني التمييز بين الأقوال المتناقضة وفَرْزها أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن - إذن - تَشيع لتشمل كُلّ حَسَن في أيّ مجال من مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولنأخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا كان في سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شكّ أن المعارض كَارِهٌ لمبدئك العام ، فإنْ قَسَوْتَ عليه وأغلظْتَ له القول أو اخترتَ العبارة السيئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف في مبدأ عام إلى عَدَاء شخصي .

وإذا تحولَتْ هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أججْتَ أُوَار غضبه ؛ لأنه في حاجة لأنْ تَرْفُقَ به ، فلا تجمع عليه مرارة أنْ تُخرِجه مما ألف إلى ما يكره ، بل حاول أنْ تُخرجه مما ألف إلى ما يحب لتطفيء شراسته لعداوتك العامة ، وتُقرِّب من الهُوّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ[1] حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد يطلع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتى هى أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوى قائماً على عداوتى ، ولم أكسب محبته . نقول له : أنت ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌّ ، فادفع بالتى هى أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروعَ قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايقُه الفِعَالُ مِنَ التي ومِنَ الذِى
ادْفَعْ - فَدَيْتُكَ - بالتِي حتَّى تَرَى فَإذَا الذِى[2]

لكن ، لماذا نقول التى هى أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء] والنزْغ هو نَخْس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

فإن كنْتَ مُنتبِهاً له ، عارفاً بحِيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) ﴾ [الناس] أى : الذى يخنس ويختفى إذا ذُكرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حِيلُه ،

---

(١) الولى : الصديق والنصير ، وهو التابع المحب . والولىّ : ضد العدو . [لسان العرب - مادة : ولى] .

(٢) قوله « حتى ترى فإذا الذى » أى : حتى ترى تحقيق ما فى الآية الكريمة : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فتنقلب العداوة محبة بمداومة دفعك بالتى هى أحسن .

واستجبتَ لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتى خواطر الشيطان وكأنها مجَسٌ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذَره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرةً بعد أخرى ليُجرِّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتى هى أحسن لا تعطى للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيِّن لك شَتْمه أو لَعْنه ، وهكذا يتحول الخلاف فى المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صلةَ لك بهما ، ولكن ضايقك هذا النزاع ، فما عليك إلا أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وأتحدَّى أن يستمر النزاع بعدها ، إنها الماء البارد الذى يُطفىء نار الغضب ، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوس ، وما أشبهك فى هذا الموقف برجل الإطفاء الذى يسارع إلى إخماد الحريق ، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة فى الإصلاح ، وليس لك مأربٌ من هذا التدخّل .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ..(٥٣)﴾ [الإسراء]

تلاحظ أن نَزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ دينى عقدى ، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة ، ألم يقُل يوسف :﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي..(١٠٠)﴾[يوسف]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خَيْريتهم ، وأنت تستطيع أنْ تُميِّز بين الخيِّر والشرير ، فتجد الخيِّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضاءل إلى أهون

الأشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بأهونِ الأشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قول إخوة يوسف : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⁽٩⁾ ﴾ [يوسف] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به :﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ .. ⁽١٠⁾ ﴾ [يوسف] وقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لأخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⁽١٠⁾ ﴾ [يوسف] وهكذا تضاءل الشر في نفوسهم .

ثم يقول تعالى :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ⁽٥٣⁾ ﴾[الإسراء]

أي : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ فهي عداوة مُسْبقة ، قال عنها الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ⁽١١٧⁾ ﴾ [طه]

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم ـ عليه السلام ـ ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه ، وبذلك يُربِّي في ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ في أذهانهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ⁽٥٣⁾ ﴾ [الإسراء]

أي : كان ولا يزال . وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ⁽٦٢⁾ ﴾ [الإسراء]

أي : لأتعهدنَّهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

فى هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إنْ شاء يرحمنا بفضله ، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله ؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منَّا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب ؛ لذلك يَحْسُن بنا أن ندعوَ الله بهذا الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .

والحق تبارك وتعالى لا يُيئس العُصاة من فضله ، ولا يملى لهم بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحينما كان المسلمون الأوَّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر فى أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذى يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً لا يُظلَم عنده أحدٌ »[1] .

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

لقد كانوا فى مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ، فالضعيف منهم عاجز عن المواجهة ، والقوى منهم لا يستطيع حماية الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقترح عليه الرد على الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان ﷺ يقول لهم : « لم أومر ، لم أومر ... » .

لأن الله تعالى أراد ألاَّ يبقى للإيمان جندى إلا وقد مَسَّه العذاب ، وذاق ألوان الاضطهاد ليربى فيهم الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد ؛ لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله فى الأرض ، ولا شكَّ أن القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بُدَّ من تمحيص المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام فى عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرَّت به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربلة المنتسبينَ لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوى المأمون على حَمْل منهج الله ، والانسياح به فى شتَّى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى فى صفوف المؤمنين مَنْ يحمل راية الإيمان لمغنَم دنيوى ، فالغنيمة فى الإسلام ليست فى الدنيا بل فى جنة عَرْضُها السموات والأرض .

لذلك ، ففى بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله ﷺ : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟

لا ، بل قال : « لكم الجنة »[1] قالوا : فلك ذلك .

فهذه هى الجائزة الحقيقية التى ينبغى أن يفوز بها المؤمن ؛ لأنه من الجائز أن يموت أحدهم بعد أن أعطى رسول الله هذا العهد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا فى ظل الإسلام ، إذن : فالنبى صادق فى هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنة فلا بُدَّ لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويُواجهون الفتن والمكائد .

فالمعنى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء] بالخروج من مكة مهاجرين إلى ديار الأمن فى الحبشة ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء] أى : عذاباً مقصوداً لكى يُمحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء]

الوكيل : هو المفوَّض من صاحب الشأن بفعل شىء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولستَ مسئولاً بعد ذلك عن إيمانهم ، ولستَ وكيلاً عليهم ؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قَدْره ، بل هى رحمة به ورأفة ، كأنه يقول له : لا تُحمِّل نفسك يا محمد فوق طاقتها ، كما خاطبه فى آية أخرى بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٥٠) من حديث عامر الشعبى وأحمد فى مسنده (٤/١٢٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/٢٩٤) لابن سعد فى الطبقات الكبرى .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - في هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول ﷺ يجده عتاباً لصالحه ﷺ رحمةً به ، وشفقةً عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصحِّح للرسول خطئاً وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس]

الله تعالى يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ترك الرجل الذي جاءه سائلاً عن الدين ، وشَقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكان الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حِرْصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ[1] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها . كما تعتب على ولدك الذي سهر طويلاً في المذاكرة حتى أرهقَ نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) أخرج النسائي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [التحريم] . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٣٨٦) .

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة فى العلم ، وإنْ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أنْ يتصفَ بالعلم ، فنقول : عالم . ولكن الله أعلم ؛ لأن الله تعالى لا يمنع عباده أن تشرئب عقولهم وتطمح إلى معرفة شيء من أسرار الكون .

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى أمتك ، وقد سُبِقت الآية بقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ .. (٥٤) ﴾ [الإسراء] ولكن علمه سبحانه يسَع السموات والأرض علْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد ، كُلّ على حسب حاله ، وعلى قَدْر ما يُصلحه .

فإنْ رأيتَ شخصاً ضيَّق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا ، ولا يُصلحه إلا ما قَسَمه الله له ؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له ، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة ، وليس بين أحد منهم وبين الله نسب .

فالجميع عنده سواء ، يعطي كُلاً على قَدْر استعداده عطاءَ ربوبية ، لا يحرم منه حتى الكافر الذى ضاق صدره بالإيمان ، وتمكّن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق ، فالله تعالى لا يحرمه مِمّا أحبَّ ويزيده منه .

إذن : لعلمه سبحانه بمَنْ فى السموات والأرض يعطى عباده على قَدْر مَا يستحقّون فى الأمور القَهْرية التى لا اختيارَ لهم فيها ، فهُمْ فيها سواء . أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأَخْذه بالأسباب ، فالأسباب موجودة ، والمادة موجودة ، والجوارح موجودة ، والعقل موجود ، والطاقة موجودة . إذن : على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقى بحياته على قَدْر استطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء]

مَن الذى فضَّل ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يُفضِّل بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفضِّل إلا مَنْ فضَّله الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى يملك أن يُجازى على حَسْب الفضل ، أما نحن فلا نملك أنْ نجازى على قَدْر الفضل .

لذلك قال النبى ﷺ : « لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى »[1] .

لأن الذى يُفضِّل هو الله تعالى ، وقد نُصَّ على هذا التفضيل فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أُولى العزم من الرسل قد فَضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمَّلوه من مشقة فى دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والانسياح به ، أو من طول مُدَّتهم من قومهم .. الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٥/١٤١) : « قال العلماء : هذه الأحاديث تحتمل وجهين : أحدهما : أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذلك قال : أنا سيد ولد آدم .. والثانى : أنه ﷺ قال هذا زَجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس عليه السلام » .

فلماذا ذكر داود بالـذات مقترناً بالكتاب الذى أنـزِل عليه ؟ قالوا : لأن داود عليه السلام أُوتِى مع الكتـاب المُلْك ، فكان نبياً ملكاً ، فكأن الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه ملِك ، بل من حيث هو نبى صاحب كتاب .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لقد خُيِّرْتُ بين أن أكون عبداً نبياً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً »[1] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ ﴾

الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : قل للذين يُعـارضونك فى الوحدانية إذا مـسَّكم ضرٌّ فـلا تلجأوا إلى مَنْ تكفرون به ، بل الجـأوا إلى مَنْ زعـمتم أنهـم شركـاء وآمنتم بهم . فـإنهم لن يسـتـمعوا إليك ؛ لأن الإنسان بطبـعه لا يخدع نفسـه ، ولو علموا أن الذين يتخـذونهم آلهة من دون الله ينفعـونهم فى شـىء لمـا دَعَوْا ربـهم الذى يكفـرون به وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطغى إلا إذا كان مُسْتغنياً بكل ملكاته ، بمعنى أن تكون مـلكاته كلها على هيئـة الاستقـامة والانسجـام ، فإذا

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣١) من حديث أبى هريرة قال : « جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقـال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال : يا محمد أرسلنى إليك ربك قال : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً . قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : بل عبداً رسولاً » .

اختلتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال مِمَّنْ لا يملكه ، بل يطلبه ممَّنْ يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ .. (٨) ﴾ [الزمر]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضُرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكاليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضُّر وأحاط به البلاء فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف في الماضي وكان مسئولاً عن صحة الناس ، ويقوم مقام الطبيب في هذا الوقت ، فإذا ما عُيِّن بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقلّة الخبرة ليخلوَ له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد في رزقه ، ومرّت الأيام وأصيب الحلاق بضُرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيةً بليْل ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

إذن : الإنسان في ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسكم الضر فاذهبوا إلى مَن ادعيتم أنهم آلهة وادعوهم ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم : ﴿ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء] أى : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعدائكم ، فهم - إذن - لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله ﷺ الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر في ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم ؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم - فرضاً - ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذى يملك وحده كَشْفَ الضُّر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ[2] أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسَّلون إليه ، فالمسيح الذى أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ۝١٧٢﴾ [النساء]

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج مسلم فى صحيحه (٣٠٣٠) فى كتاب التفسير فى سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت الآية .

(٢) الوسيلة : ما يُتقرَّب به إلى الغير . وهى الوُصْلة والقربى . وتوسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل . [لسان العرب - مادة : وسل]

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبّوْن أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرُّب إليه سبحانه ، فكيف ـ إذن ـ تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أى : كلما تقرّب واحد منهم إلى الله ابتغى الله أكثرَ من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغى القُرْبى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فكاكَ منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسب العذاب إلى الله فلا شكَّ أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوحدانية فى آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أنْ شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادة المشهد والمعاينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أنْ يطلب منّا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته فى الكون ، وما دام « لا إله إلا هو » يقول للشىء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء ويُغيِّر من وضع

إلى وضع ، فإنْ صحَّتْ هذه الشهادات الثلاث فقد انتهت المسألة . وإنْ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو ؟! إنْ كان لا يدرى فهو إله نائم لا يصلح لهذه المكانة ، وإنْ كان يدرى فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن : فهذه الدَّعْوى قد سلمتْ للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد لنفسه ، فهى للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدعيها لنفسه .

قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى : لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذى استقرتْ له الأمور واستتبَّ له الحال ، ليُجادلوه فى هذه المسألة ، أو لطلبوه ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾

ساعةَ أنْ تسمعَ (وإنْ منْ قرْيَةٍ إلاَّ) فاعلم أن الأسلوب قائم على نفى وإثبات ، فالمعنى : لا توجد قرية إلا والله مُهلكها قبل يوم القيامة ، أو مُعذِّبها عذاباً شديداً ، لكن هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم ؟

نقول : لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات فى القرآن تُقيِّدها قرآنيات أخرى ، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود]

فهذه آيات مُخصِّصة تُوضِّح الاستثناء من القاعدة السابقة ، وتُقيِّد المبدأ السابق والسور العام الذى جاءت به الآية ، فيكون المعنى - إذن - وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلحة إلا والله مُهلكها أو مُعذِّبها .

وقوله : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ مُهْلِكُوهَا ﴾ أى : بعذاب الاستئصال الذى لا يُبقى منهم أحداً .

﴿ مُعَذِّبُوهَا ﴾ أى : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فإنْ أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد الناس إلى الصواب فبها ونعْمتْ وتنتهى المسألة ، فإنْ لم يقتنعوا وأصرُّوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتى الإهلاك ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

والواقع أن فى حاضرنا شواهدَ عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ لأىِّ قرية طغتْ وبغَتْ أن ينالها شىء من العذاب ، والأمثلة أمامنا واضحة ، ولا داعىَ لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

وطبيعى أن يأتى العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلام حىّ

يشعر بالعذاب ويُحِسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُرَدُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء فى هذا الوقت لم يكونوا مُطَالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولَّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبى الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من أتباع موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحَمْل السلاح ، ولكن حذَّرهم نبيهم ، وخشى أنْ يفرضَ عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يَبْقَ معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهمَّة الإنسانية فى هذا الوقت لم يكُنْ عندها استعداد ونضج لأنْ تحملَ سلاحاً فى سبيل الله ، فكان على الرسول أنْ يُبلِّغ ، وعلى السماء أنْ تُؤدِّب بهذا اللون من العذاب الذى يستأصلهم فلا يُبقى منهم أحداً .

أما فى أمة محمد ﷺ فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

وهذه من كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا ؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَاطُ بهم حَملُ رسالته ونَشْر دعوته ، والانسياح بمنهج الله فى شتى بقاع الأرض .

ذلك لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقدِّر غفلة الناس عن المنهج ، ويُقدِّر فكرة التأسِّى بالجيل السابق ، فهذان مُعوِّقان فى طريق منهج الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبَّط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب غفلة ، أو بسبب تقليد أعمى لأسْوة سيئة ، فأول مَنْ تلقَّى عن الله آدم ، ثم بلَّغ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثتْ الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِّب فى الإنسان من حُبٍّ للشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تصرفه عن منهج ربه ، فإنْ حدثت غفلة فى جيل فإنها سوف تزداد فى الجيل التالى ، وهكذا ؛ لأن الجيل سيقع تحت مُؤثِّرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسى بالجيل السابق .

إذن : بتوالى الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث فى مواكب الرسل مَنْ يُنبِّه الناس .

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ خَيْر أمة أُخرِجَتْ للناس : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] لماذا ؟ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلَّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمته ، وعلى أمته أن تُبلِّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفي الحديث الشريف « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[1] .

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولأهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة في مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول : « إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يُؤْتَى الدين من ثغرة أحدكم » . أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وتَرْصُد تصرفاته في مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعي هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فأنت حارس على باب من الأبواب ، وعليك أنْ تسدَّه بصدق انطباعك عن الإيمان ، وبصدق انقيادك لقضايا الإسلام ، وبهذا السلوك تكون وسيلة إغراء للآخرين الذين يراودهم الإيمان ، ويتراءى لهم منهج الله من بعيد .

ويحلو للبعض أن يأخذوا الإسلام بجريرة أهله ، ويحكموا عليه بناءً على تصرفات المنتسبين إليه ، وهذا خطأ ، فمَنْ أراد الصورة الحقيقية للإسلام فليأخذْها من منابع الدين في كتاب الله وسنة رسوله ، فإنْ رأيتَ بين المنتسبين للإسلام سارقاً فلا تقُلْ : هذا هو الإسلام ؛ لأن الإسلام حرَّم السرقة ، وجعل لها عقوبة وحَداً يُقَام على السارق ، وليس لأحد أن يكون حجة على دين الله .

لذلك فإن كبار العلماء والمفكرين الذين درسوا في الدين الإسلامي لم ينظروا إلى تصرُّفات المسلمين وحاضرهم ، بل أخذوه من منابعه الأصلية . ومنهم « جينو » الفرنسي الذي قال : الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه في الحقيقة لو اطلع على أحوالنا الآن لكان في المسألة كلام آخر .

إذن : الذين نظروا إلى قضايا الإسلام نظرة عَدْل وإنصاف لا بُدَّ أن يهتدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نظر إليه نظرة عَدْل وإنصاف إلا أنهم أبعدوا قضية التديُّن من قلوبهم ، وإن اقتنعتْ بها عقولهم ، وفَرْق كبير بين القضية العقلية والقضية القلبية .

ومن هؤلاء الكاتب الذي ألَّفَ كتاباً عن العظماء في التاريخ وأسماه : « العظماء مائة أعظمهم محمد بن عبد الله » وهو كاتب غير

مؤمن ، لكنه أخذ يستقرىء صفحة التاريخ ، ويسجِّل أصحاب الأعمال الجليلة التى أثَّرت فى تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة بينهم وجد أن أعظمهم محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يتربَّ محمد فى مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة ، ولم يجلس إلى مُعلم .

ألم تسأل نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليّة ؟ ولماذا استحق أن يكون فى المقدمة ؟ لقد ذكرتَ حيثيات النبوغ فى جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة فى جامعات وعلى أساتذة واطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ فى رسول الله ؟ ألم تعلم أنه أميّ فى أمة أُميّة ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه القضية بعقله لا بقلبه .

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارتْ خلافاً بين رجال القانون فى موضوع إقامة حدِّ الرجْم على الزانى المحصن[1] والجلْد للزانى غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزانى المحصَن سنة .

وهذا قول خاطىء وبعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنية الدليل وسُنية الحكم ، فسُنية الدليل أن يكون الأمر فَرْضاً ، لكنْ دليله من السنة كهذه المسألة التى معنا ، وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهى فَرْض لكن دليلها من السنة ، أما سُنية الحكم فيكون الحكم نفسه سُنة يُثَاب فاعله ، ولا يُعَاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً فى الركوع مثلاً .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المرأة : تزوج وكان الزواج حِصْنٌ يحمى المتزوج من الوقوع فى الشهوات فهو مُحصِن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

إذن : فرجْم الزانى المحصَن فرْض ، لكن دليله من السنة ، فالسُّنية هنا سُنية دليل ، لا سنية حكم .

فمَنْ يقول : إن الرجْم لم يَرِدْ به نصٌّ فى كتاب الله ، نقول : الدليل عليه جاء فى السنة ، وهى المصدر الثانى للتشريع ، حتى على قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففى القرآن : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ۝٧ ﴾ [الحشر]

إذن : ففعْل الرسول ﷺ كنصِّ القرآن سواء بسواء ، وهل رجم فى عهد رسول الله أو لم يرجم ؟ رجم فعلاً فى عهد رسول الله[1] ، فإنْ قال قائل : فهذا ليس نصاً فى الرجْم . نقول : بل الفعل أقوى من النص ؛ لأن النص قد تتأول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد فى هذه الآية ، فى قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ۝٢٥ ﴾ [النساء]

فيقولون : الرجْم لا يُنصَّف . إذن : ليس هناك رَجْم . نقول : أنتم لم تُفرِّقوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلام لحيٍّ يشعر ويُحسُّ بهذا الإيلام ، والمقصود به (الجلْد) .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٦٩١ - ١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه فتنحى تلقاء وجهه فقال له : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به فارجموه » .

إذن : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] أى : من الجَلْد ، وهو الذى يُنصَّف ، ولو كان الحكم عاماً لَقَال : فعليهن نصف ما على المحصنات . فقوله : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] دليل على وجود الرَّجْم الذى لا فَرْق فيه بين حُرة وأمة.

وكذلك نلحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك فى قول سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تفقَّد الطير ، واكتشف غياب الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل]

ولسائل أنْ يسأل : هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك أو العذاب قبل يوم القيامة ؟

نعم لابُدَّ أن يمسَّهم شيء من هذا ؛ لأن الله تعالى لو أخَّر كل العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعمَّ الفساد فى الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع فى الحياة ، وينعم بها مع ظلمه لأغراهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ، ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولَعلِموا أن عاقبته وخيمة ، ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالوَيْل ممَّنْ لا يؤمنون بها .

لذلك لما مات رأسٌ من رؤوس الظلم فى الشام ، ولم يَرَ الناس عليه أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم : إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؛ لأنه يستحيل أنْ يُفلتَ الظالم من العذاب .

وفى مناقشتى مع الشيوعيين فى بروكسل قلت لهم : لقد قسوتُم

على المخالفين لكم من الرأسماليين والإقطاعيين عام ١٩١٧ وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قلت : منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلتُ : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظّهم من العقاب الذى أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أنْ تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإنْ أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصفّي معهم الحساب ، كما يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] وأريد منكم أنْ تطلعوا على تفسير هذه الآية التي نحن بصددها : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء]

راجعوا تفسيرها في كتاب النسفي[1] ، وسوف تجدون به أمثلة تُؤيِّد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُمثِّل ما أصاب مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويلٌ لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس[2] . اقرأوا هذا الكلام عند النسفي .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء]

---

(١) النسفي هو أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت٧٠١ هـ) وكتابه في التفسير هو المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(٢) أورد النسفي هذا في تفسيره (٢/٣١٨) طبعة دار الفكر قال : « وعن مقاتل وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها » وساق ما قاله الشيخ الشعراوي هنا بنصه .

أى : مُسجّل ومُسطّر فى اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الإسراء] وتأتى الأحداث بغير ذلك ، بل لابُدَّ أنْ يؤكد هذه الحقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

الآيات : جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبِّر الأعلى سبحانه مثل المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التى تثبت صِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتى يسمونها حاملة الأحكام .

فالآياتُ إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن . فأيها

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون ، فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم لعلنا نجتبى منهم ، وإن شئت نؤتهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم ، قال : لا ، بل استأنى بهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

المقصود فى الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

الآيات الكونية وهى موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات القرآنية وهى موجودة أيضاً ، بقى المعجزات وهى موجودة ، وقد جاءت معجزة كل نبى على حَسْب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذى نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد ﷺ فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؛ لأن العرب لم يُظهِروا نبوغاً فى غير هذا المجال ، فتحدَّاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ فى الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التى منعها الله عنهم ؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعْد عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صدْق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء

عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق ؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنزِل من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً[1] مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجِزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء]

مبصرة : أي آية بينة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها[2] فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التي طلبوها ،

---

(١) قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : قد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين عاماً . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤١٠) : « والصحيح المشهور الأول » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٢٨) : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض (أي : دنا ولادها وأخذها الطلق) ، فجاءت كما سألوا ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها » .

بل وأكثر من ذلك ظلموا بها أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً منّا عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ لبيان وضوحها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢)﴾ [الإسراء] فهل آية النهار مُبصِرة ، أم مُبْصَر فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشىء من شعاع ينطلق من عينه إلى الشىء المرئىّ فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبيّن أن الإنسان يرى الشىء إذا خرج من الشىء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشىء إذا كان فى الضوء ، ولا تراه إذا كان فى ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هى المبصرة ؛ لأن أشعتها هى التى تُسبّب الإبصار .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (٥٩)﴾ [الإسراء]

أى : نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول ﷺ اضطهده أهل مكة ودبّروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيّب الله سَعْيهم ورأوا أنهم لو قتلوه لَطالبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به بليل ، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جلْدٍ ، ويضربوه ضَرْبة رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر لِيُوقِعوا به ، وكان الله لهم

بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُدبّر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف فى وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة فى الإيمان والسير فى ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتى لردْع المكذبين عن كذبهم ، وتُخوِّفهم بما حدث لسابقيهم من المكذِّبين بالرسل ، حيث أخذهم الله أخْذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين ، كُلٌّ بما يناسبه .

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ[1] فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾

أى : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

(١) هى شجرة الزقوم التى قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] ، وقال : ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)﴾ [الصافات] .

عن عِلْمه تعالى ، لأن الإحاطة تعنى الإلمام بالشىء من كُلّ نواحيه .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى المثل (حُط فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبييتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم فى نحورهم .

لذلك لما تحدّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدّى الجن أيضاً ، فقال : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[1] (٨٨)﴾ [الإسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من الأمور له شيطان يُلهمه ، وكانوا يدَّعُون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحدَّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التى تُلهمهم .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفىّ ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القيومية نردُّ علىٰ الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسيِّره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

---

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] .

تُسيِّر الكون ما رأينا في الكون شذوذاً عن الناموس العام ؛ لأن الأمر الميكانيكي لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التي تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التي أشعلوها لحرق نبي الله وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام في أن ينجو إبراهيم من النار ؟

لا .. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو سخر سحابة تطفىء النار ، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهم آية من آياته في خَرْق الناموس ، فمكّنهم من إشعال النار ومكّنهم من إبراهيم حتى ألقوْه في النار ، ورأوْهُ في وسطها ، ولم يَعُدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتسلب النار خاصية الإحراق :

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى .

فكان الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّيَ رسوله ويُؤْنسه بمدد الله له دائماً ، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشِّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ..﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

الإحاطة تقتضي العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بُدَّ من العلم مع القدرة ؛ لأنك قد تعلم شيئاً

---

(١) البرد : خلاف الحر . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال (وسلاماً) لآذى إبراهيم بردها . [تفسير ابن كثير ٣/١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه ، فالعلم وحده لا يكفى ، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقات متعددة ، فقد يراد بها الخلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ[1] الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾[الناس]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾[الزخرف]

وكما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. (١٧٣) ﴾ [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس فى الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر فى مكة .

---

(١) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ١/٢١١] .

(٢) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قول الله ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والعظيم : الوليد بن المغيرة القرشى ، وحبيب بن عمير الثقفى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٣٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهي إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهي إحاطة حصار لا يُفلتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢) ﴾ [يونس]

أي : حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون في أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار في وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

حتى إن عمر - رضي الله عنه - الذي جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول : أيّ جَمْع هذا ؟! ويتعجب ، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا[1] وهذه تسلية لرسول الله وتبشير

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يُهزم ؟ أي : أيّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير في تفسيره (٢٦٦/٤) وعزاه لابن أبي حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فأنت في عناية فلن يصيبك شرٌّ من الخارج ، وهم في حصار لن يُفلتوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول : رأيتُ رُؤْيا ، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول : رأيتُ رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الذي رآه : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ رؤيتي . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء[1] على أنها الرؤيا التي ثبتتْ في أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] أي : حادثة الإسراء والمعراج .

---

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانيء والحسن البصري وقتادة ، أورد السيوطي آثارهم في الدر المنثور (٥/٣٠٨ ، ٣٠٩) ، ونقل ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩) اختيار ابن جرير الطبري لهذا الرأي قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » أي : في الرؤيا والشجرة .

وبعضهم[1] رأى أنها الرُّؤيا التي قال الله فيها : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح]

فقد وعد رسولَ الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام فى هذا العام ، ولكن مُنعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم .

ثم بيّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو فى طريق عودته إلى المدينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[2] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[3] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا فى الحديبية ؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

---

(١) قاله ابن عباس فى رواية عنه قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ، فردَّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) : « فى هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة » .

(٢) معكوفاً : محبوساً من أن يبلغ أماكن نَحْره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

(٣) لو تزيلوا : أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ٤/١٩٣] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛ لأنهم لن يُميِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن أُنوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أنْ يتشكَّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق ؟ أليسوا هم على الباطل ؟ ألستَ رسول الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم غَرْزَه يا عمر ، إنه رسول الله[1] .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة - أم المؤمنين - في حلِّ هذا الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنِعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه المسألة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث الحديبية الطويل .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد . ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التى جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « والله لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم » . وأخذ يومِىء إلى الأرض وهو يقول : « هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان »[١] .

وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله ﷺ فَقُلْ لى : بالله عليك ، مَن الذى يستطيع أنْ يتحكّم فى معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال ليُحدد الأماكن التى سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء[٢] قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان فى الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر[٣] ، هذه أحداث حدثتْ فى المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول ـ وهو الإسراء والمعراج ـ هو الصواب .

وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٣/ ٢١٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) من هؤلاء العلماء القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤٠١١) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٩) .

(٣) أمْر الرسول يوم بدر لم يَرِد فى تأويل هذه الآية ، ولكن ذكرت الكتب قولاً آخر ولكن العلماء ردوه وضعفوه . فعن سهل بن سعد قال : إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤٠١١) . وضعف ابن كثير سند هذا الحديث فى تفسيره (٣ /٤٩) وقال : « محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية » .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية ؟ إنها فى لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذى فرح بصيد ثمين عنَّ له :

فكَبَّر للرُّؤْيَا وهَاش[1] فُؤَادُهُ ... وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يلُومُهَا

أى : قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شىء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شىء لا يحدث إلا فى المنام . وهذا من دقّة الأداء القرآنى ، فالذى يتكلم ربّ ، فاختار الرؤيا ؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة .

فَوَجْه الإعجاز هنا ليس فى حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها فى رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجْه الإعجاز فى الزمن الذى اختُصِر لرسول الله ، فذهب وعاد فى ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لنا بيت المقدس »[2].

---

(١) هش للشىء وهاش : سُرَّ به وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب مادة هشش].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، قال : فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته ، قال : بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا ، فقال الآخر : صدقت فرجع إليهم فقال : صدق محمد فيما قال » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٣) .

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن : فاعتراضهمْ على وقت هذه الرحلة التى كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، ويخبر محمد أنه أتاها فى ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث فى هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصّل العلماء الباحثون في مسألة وعى الإنسان أثناء نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا : إن الذهن الإنسانى لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هى المدّة التى يستغرقها المنام .

فى حين إذا أردتَ أن تحكى ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً . فأين الزمن - إذن - فى الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له ؛ لأن وسائل الإدراك فى الإنسان والتى تُشعره بالوقتِ نائمة فلا يشعر بوقت ، حتى إذا جاءت الرؤيا مرّتْ سريعة حيث لا يوجد فى الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشى على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان يفهمها وهى طايرة) وهذا يدل على السرعة فى الفعل ؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشىء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس ؟ وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أننى ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواى ، ثم إلى اليابان ، أنُكذِّبه ؟!

إذن : قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَلَتْ المعنى

من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكان الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم فى بوتقة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى فى ساحتنا إلا صادق الإيمان قوىُّ العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذى سيحكم حركة الحياة فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق فى إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التى ميَّزَتْ بين أصالة الصِّدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت الزَّبَد الذى زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ..(٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنةً للناس أيضاً ، وإنْ كانت الفتنة فى الإسراء كامنة فى زمن حدوثه ، فهى فى الشجرة كامنةٌ فى أنها تخرج فى أصل الجحيم ، فى قَعْر جهنم ،

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدِّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدِّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والري ، فكيف تكون الشجرة في جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول[1] : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن في الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول ، والنار تحرق كل شيء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصِر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كوني في أصل الجحيم ، فتكون في أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التي قالت للنار : كُوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزِّبَعْرَى حينما سمع قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴾ [الصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر ، فقوموا تزقَّموا

---

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظلمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر، وإنَّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجر ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴾ [الصافات] أي : غذيت بالنار ، ومنها خلقت ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] قال : يشبهها بذلك .

معي[1] ، أي : استهزاءً بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلِّغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعنْصِر أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هي قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن ، وهي آية ومعجزة لله تعالى ، وهي دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذي يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلْعَن وهي الطعام الذي سيأكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون آكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] والأثيم لا شكَّ ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للآكل وجعلها للشجرة ؟

---

(١) أورد الواحدي في أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوّف به هذا الحي من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الثريد بالزبد . أما والله لئن أمكننا منها لنتزقمنها تزقماً . فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠)﴾ [الإسراء] . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٣١٠) لابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث .

قالوا : لأن العربى دَرَجَ على أن كل شيء ضار ملعون ، أى : مُبْعَد من رحمة الله ، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذى يلعنها ، فهى ملعونة من آكلها ، وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون آكلها[1] .

ومن الإشكالات التى أثارتها هذه الآية فى العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتوركوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتى عادةً ليُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما فى الآية فالمشبَّه مجهول لنا ؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول ؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها ، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذى جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربِّى فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث فى أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

---

(١) ذكره أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٣٣٨ طبعة ١٩٨٥ م ـ دار الصابونى .

وللردِّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملكة العربية أو التذوّق الكافي لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كملكة واللغة كصناعة فقط .

الملكة اللغوية تفاعل واختمار للغة في الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربي يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة ـ خاصة على كِبَر ـ فهي مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربي قبل نزول القرآن قال[1] :

يَغُطُّ غَطيطَ البكْرِ شُدَّ خِنَاقُه ليقتُلَني والمرْءُ ليسَ بقتَّالِ
أيقتُلِني وَ المشْرفيُّ[2] مُضَاجِعِي وَمسنُونَةٍ زُرْقٍ كأنْيَابِ أغْوَالِ

فهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربي استساغ أن يُشبِّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوَّره الناس في صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبِّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله في صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلّفنا جميع رسّامي الكاريكاتير في العالم برسم صورة مُتخيَّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

---

(١) هو : امرؤ القيس بن حُجْر ، شاعر جاهلي .

(٢) سيف مشرفيٌّ منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

عن الآخر ؛ لأن كلاً منهم سيتصوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبَّه طلْع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا لَتصوَّرناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعته ، وأنْ تذهب النفس في تصوُّر بشاعته كل مذهب ، وهكذا يؤدي هذا التشبيه في الآية ما لا يُؤدِّيه غيره ، ويُحدِث من الأثر المطلوب ما لا يُحدِثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلِّي .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : نُخوِّفهم بأنْ يتعرَّضوا للعقوبات التي تعرَّض لها المكذِّبون للرسل ، فالرسل نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخُذْلان . وأنت حينما تُخوِّف إنساناً أو تُحذِّره من شر سيقع له ، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً ، كالوالد الذي يُخوِّف ابنه عاقبة الإهمال ، ويُذكِّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء] التخويف هنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبشِّع لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة في قوله تعالى ، في سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّوَاظ هنا نعمة ؛ لأنها إعلام بشيء سيحدث في المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟!

إذن : كلما خوَّفتهم وذكَّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجَعْل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبىّ ملكاً عليهم[1] ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أُبىّ ، وتوجهت الأنظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أُبىّ، وأن يزدادَ كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ،

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٩٩) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبى ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها ، فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار وقوفه على عبد الله بن أُبىّ والذى قال له ، فقال له سعد بن عبادة : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومَنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أُبىّ التاج ، ونُملِّكه علينا » .

وأنْ يحسده على ما نال من حُبٍّ الناس والتفافهم حوله .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنَّة من سُنَن المعاندين للحق والكائدين للخير دائماً ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

أي : تذكَّروا أن الحسد قديم قِدمَ وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكَّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهي مسألة قديمة ومستمرة في البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذي يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً في دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخَّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون في خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعة وخضوعٍ لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التي تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم في موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون في قوْل الحق سبحانه في القرآن الذي أخذوا منه حجتهم : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح في أنه من الجن ، فإنْ قال قائل : كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبِلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة[1] الذي يزهو عليهم ويتباهى

---

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير في تفسيره (٣/٨٩) .

بأنه صالح للاختيار فى العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح فى منزلة أعلى من الملائكة وأصبح فى حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى فى الطاعة فإن الأعلى أوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلَّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التى أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أَبَى ﴾ ومرة أخرى ﴿ استكبَرَ ﴾ ومرة ﴿ أَبَى واستكبر ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] ، ومرة أخرى يقول : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فَهْم أساليب العربية ؛ لأنها ليستْ لديهم ملَكة ، والمتأمل فى هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآني ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] و ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

صحيح أن فى الأولى إثباتاً وفى الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول: إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) فى الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حروف زائدة فى كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزِّه المتكلم سبحانه أن يكون فى كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هى تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] كأنه همَّ أنْ يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أىّ شىء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك بأنك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن فى حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف فى عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة فى الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التى لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ، ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي توقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطيء .

ومعنى : ﴿ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] يعني : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق ؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء . ومرة : من التراب . ومرة : من طين . والماء إذا خُلِط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف في صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشِّ ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطَن ، ثم يصبُّونه في قوالب . فإذا ما تُرِك الطين حتى يجفَّ ، ويتحول إلى الصلابة يصير صلْصَالاً كالفخَّار ، يعني يُحدث رنَّة إذا طرقت عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

إذن : لا وَجْه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان

مرة أنه : من : ماء ، أو من تراب ، أو طين ، أو حما مسنون ، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أى : إبليس ﴿أرأيتكَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما فى الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك . والمعنى : أخبرنى ، لأن رأى البصرية تُطلق فى القرآن على معنى العلم ؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شكّ فيه .

لذلك قالوا : (ليس مع العين أيْن) فما تراه أمامك عياناً ، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فاقواها الرؤية ؛ لأنها تعطى علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً ، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .

وقد ورد هذا المعنى فى قوْل الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل وليداً لم يرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « ترَ » كأنه يقول للرسول ﷺ : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فاجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .

---

(١) الاحتناك : الاستيلاء والاحتواء والإضلال . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٥) : « المعنى متقارب ، أى : لأستاصلن ذريته بالإغواء والإضلال ولاجتاحنهم » .

فقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أعلمنى ، لماذا فضلته علىَّ ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذى توجه به لربِّه عزَّ وجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب .

ومعنى : ﴿ أَخَّرْتَنِ ﴾ أخَّرت أجلى عن موعده ، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس مَنفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً ، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله ، وهذه مبالغة منه فى اللدد والعناد ، فلم يتوعدهم ويُهدِّدهم مدة حياته هو ، بل إلى يوم القيامة ، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً .

فالعداوة بين إبليس وآدم ، فما ذنب ذريته من بعده ؟ لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد ، وهذه العداوة على آدم ، ثم يوصى ذريته بحمل هذا العداء من بعده . إنه الغيظ الدفين الذى يملأ قلبه .

وقد أمهله الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء] اللام للقسم ، كما أقسم فى آية أخرى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص]

وعجيب أمر إبليس ، يقسم بالله وهو يعلم أن العمر والأجل بيده سبحانه ، فيسأله أن يُؤخِّره ، ومع ذلك لا يطيع أمره .

والاحتناك : يَرِد بمعنيين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أى : أتى عليه كله واستأصله ، والآخر : بمعنى القهر على التصرف ، مأخوذ من اللجام الذى يُوضَع فى حنك الفرس ، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجِّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقِفه ، فهى أداة التحكُّم فيه ، والسيطرة عليه قَهْراً .

فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات ، وقد يكون قهراً لحركتها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ [الإسراء] فيها دليل على عِلْم إبليس ومعرفته بقدرة الله تعالى ، فعرف كيف يقسم به حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] والمعنى : بعزتك عن خَلْقك : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف] .

سأدخل من هذا الباب ، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لى بهم ، وليس لى عليهم سلطان ، لقد تذكَّر قدرة الله ، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذه ، فقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ [الإسراء] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم ، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) ﴾

قوله تعالى (اذْهَبْ) أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ .. (٦٣)﴾ [الإسراء] أى : الذين اتبعوك وساروا فى ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ جَزَاؤُكُم ﴾ . ولم يَقُلْ (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل فى حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم ، وكذلك هو المخاطب فى الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفِّذ أوامر الله الواردة فى قوله تعالى :

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤)﴾ [الإسراء]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها ؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذى يُراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذى لا يُراد منه التنفيذ . فالأول طلب أعلى من أدنى لكى يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوبٍ عادةً من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتمّ ولا يستجيب فتقول له : العب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر ؟! وهل لو أخفق الولد فى الامتحان سيأتى ليقول لك : يا والدى لقد قلت لى العب ؟!

إن الأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره ؛ بل يُراد منه التهديد ، كما يقولون فى المثل (أعلى ما فى خَيْلك اركبه) .

وقوله : (جَزَاءً مَوْفُوراً) أى : وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ(١) وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾[الإسراء]

هذا كما تستنهض ولدك الذى تكاسل ، وتقول له : فِزَّ يعنى انهض ، وقُمْ من الأرض التى تلازمها وكأنها مُمسكة بك ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة]

فتقول للمتثاقل عن القيام : فِزَّ أى : قُمْ وخِفَّ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفزز مَن استطعت واستخفهم واخدعهم (بِصَوْتِكَ) بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يعاونونك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾[الإسراء]

---

(١) قوم رَجْلة أى رَجّالة . والرجال : جمع راجل أى ماش . والراجل خلاف الفارس . [لسان العرب ـ مادة : رجل] والمقصود . أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

أجلَبَ عليه : صاح به ، وأجلبَ على الجواد : صاح به راكبه ليسرع. والجلْبة هي : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبه الجلْبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فيسهلُ عليك التغلّب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أي : صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم ، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان ، كما في الحديث النبوي الشريف : « يا خيل الله اركبي »[1].

وما أشبه هذا بما كنا نُسمِّيهم : سلاح الفرسان (ورَجِلك) من قولهم : جاء راجلاً . يعني : ماشياً على رِجلَيْه و (رَجِل) يعني على سبيل الاستمرار ، وكأن هذا عمله وديدنه ، فهي تدل على الصفة الملازمة ، تقول : فلانٌ رَجِلٌ أي : دائماً يسير مُترجلاً . مثل : حاذر وحذِرٌ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركهم أموالهم ؟ بأن يُزيِّن لهم المال الحرام ، فيكتسبوا

---

(١) أورده العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥٣١) ، وقال : « رواه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ عن عبد الكريم قال : حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين ، قال : كان ناس أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : نبايعك على الإسلام ، فذكر القصة ، وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس : ياخيل الله اركبي ، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً » . وقال ابن حجر في الفتح (٧/ ٤١٣) : « روى ابن عائذ من مرسل قتادة قال : « بعث رسول الله ﷺ منادياً ينادي ، فنادى : يا خيل الله اركبي» .

من الحرام وينفقوا في الحرام (وَالأَوْلاَد) المفروض في الأولاد طهارة الأنساب ، فدَوْر الشيطان أنْ يُفسِدَ على الناس أنسابهم ، ويُزيِّن لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام . أو : يُزيِّن لهم تهويد الأولاد ، أو تنصيرهم ، أو يُغريهم بقتْل الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد .

وقوله تعالى ﴿ وعِدْهُمْ ﴾ أي : مَنِّيهم بأمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أي : لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغِرَّة والغفلة ، ومنها الغرور : أي يُزيِّن لك الباطل في صورة الحق فيقولون : غَرَّهُ . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوِّر لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً ؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره ، وعلى غَفْلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ [الأنعام] ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ .. (٨٢) ﴾ [النساء] ويُنادينا بقوله : ﴿ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أن يطلب الله منَّا ذلك ؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبُّر في كل شيء ؟

لا شكَّ أن الذي يُوقِظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى

النظر والتدبر واثق من حُسْن بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذي يبيع الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته في ثقة ، ويدعوك إلى فحصها ، وقد يشعل النار لِيُريك جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر .

وهكذا الشيطان لا يُمنِّيك ولا يُزيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ، إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتصحباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً ، ومن حيله أنْ يُزيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها فرصة للمتعة فانتهزها وَخذْ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن تُصدِّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصدِّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإنْ كان يوم القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ، استفزز ، وأجلب ، وشاركهم ، وعدهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها ، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة ،

(١) المُصْرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

أو صَدّ الناس عنها ، وكأن الحق سبحانه يقول له : إفعل ما تريد ودبِّر ما تشاء ، فلن توقف دعوة الله ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ، وقلنا كلاماً نُوجزه في أن العبيد هم المقهورون للسيد في الأمور القَسْرية القهرية ، ومتمردون عليه في الأمور الاختيارية ، أما العباد فهم مقهورون في الأمور القسرية القهرية ، وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم في الأمور الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أنْ يكونوا مقهورين لله في جميع أحوالهم .

وقد تحدّث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]

فعباد الله الذين هم أصفياؤه وأحباؤه الذين خرجوا من مرادهم لمراده ، وفَضّلوا أن يكونوا مقهورين لربهم حتى في الاختيار ، فاستحقوا هذه الحصانة الإلهية في مواجهة كيد الشيطان ووسوسته وغروره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ تحدّثنا عن كَيْد الشيطان الذي قال الله عنه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء] ففي مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الذين أغواهم وأضلّهم ، سيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. ﴾ (٢٢) [ابراهيم] فليس لي سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ [الإسراء]

الوكيل هو المؤيِّد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً . أي : وثقت به ليؤدي لي كل ما أريد ، فإنْ كان في البشر مَنْ تثق به ، وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل ؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوِجك لغيره سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي[1] لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) ﴾

الربُّ هو المتولِّي تربيتك : خَلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء : الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الْفُلْك ﴾ هي السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكَّر والمؤنث .

---

(١) زجا الشيء : تيسَّر واستقام . وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أي : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤)﴾ [البقرة]

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٢)﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٥)﴾ [الإسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت ، ومُستودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾ [الإسراء]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله ، فالذي أعطاكم البرّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التي نعيش عليها إما برّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس ، فالباقي بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير .

وطُرق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي أو تركب ، وكُلٌّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْبَ قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شيء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحي من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قبله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

فلم يكُنْ للناس عَهْد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له علْم بهذه المسألة . فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبى من أنبيائه إلى مركب من المراكب التى تيسِّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مَرِّ العصور ، فبعد أنْ كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يُسمَّى بالقِلْع ، والذى يتحكم فى المركب من خلاله ، ويستطيع الربّان الماهر تسفيح القلع ، يعنى توجيهه إلى الناحية التى يريدها .

فكان الريح هو الأصل فى سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمى الذى اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مَرِّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتى تشبه فعلاً الجبال ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] (٣٢) ﴾ [الشورى]

يعنى : كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على

---

(١) الأعلام : الجبال . والعلَم : الجبل الطويل . [لسان العرب – مادة : علم] .

علمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقيّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال ، وإلاّ ففى زمن نزول القرآن لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تُبنَى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسيِّر هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألاّ يغترّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمام الأمور فى الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإنْ قال قائل الآن : إنْ توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرتَ إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لوجدتَ أن معنى الريح القوة المطلقة أيّاً كان نوعها ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] يُسكن القوة المحرِّكة للسفن أيّاً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإنْ شاء سبحانه تعطّلَتْ كُلُّ هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

البحر هو المزنق والضائقة التي لا يستطيع الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء ، فالبر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحيل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله المنقذ الحقيقي والمفرِّج للكرْب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل في النجاة .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالي ، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار في هذا الموقف يَصْدُقون مع أنفسهم ، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها ، فإنْ آمنوا بآلهة أخرى وإنْ عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم في هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله ، ولا يدعون إلا الله ؛ لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة .

قوله تعالى : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء] أي : ذهب عن بالكم مَن اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خاطركم ، فلن يقولوا هنا يا هبل ؛ لأنهم لن يغشُّوا أنفسهم ، ولن ينساقوا وراء كذبهم في هذا الوقت العصيب .

إنهم في هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطرَ لهم ببال

أبداً ؛ لأن مجرد تذكرهم يُضعف ثقتهم في الله الذي يملك وحده النجاة ، والذي يطلبون منه المعونة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدّعى العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إنْ خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإنْ كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإنْ أحاطتْ به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكروب وإغاثة الملهوف ، حتى وإنْ كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذي أمره أنْ يلجأ إليه ، وأنْ يدعوه ، فقال :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فإنْ دَعَوْهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخَلْقه وصَنْعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمَنْ كفر به !

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب إئذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إئذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إئذن لي أن أخرّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إئذن لي أن أُغرقَ ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وما خلقت ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنهم عبادي ، فإنْ تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأنْ يقفوا في وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه ربٌّ ، وما دام ربّاً فهو

رحيم ، فتضرعوا إليه ودعوه، فلمَّا نجَّاهم إلى البر أعرضوا ، وعادوا لما كانوا عليه وتنكَّروا للجميل والمعروف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أى : كثير الكفر للنعمة ، ولَيْتَه كفر بنعمة الخلق فقال : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة ، إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مأزقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نجَّاه الله أعرض وتمرَّد ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا(١) ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نجَّاهم فى البحر آمِنُوا مكْر الله فى البر ؟ وهل الخطر فى البحر فقط ؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنزِل بهم فى البر مثل ما أنزل بهم فى البحر ؟

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فى شأن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ولستم ببعيدين عن هذا إنْ أراده الله لكم ، وإنْ كنا نقول « البر أمان » فهذا فيما بيننا وبين بعضنا ، أما إنْ جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : الإعصار الشديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (٦٨)﴾ [الإسراء] أى : ريحاً تحمل الحصباء ، وترجمكم بها رَجْماً ، والحصباء الحصى الصغار ، وهى لَوْن من ألوان العذاب الذى لا يُدفَع ولا يُرَدّ ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)﴾ [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ، سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾

أى : وإنْ نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر ؛ لأنه قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة أخرى ، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْب فى المرة الأولى ، فالمعنى : أنجوتُمْ فأمنتُم .

وقوله تعالى : ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ .. (٦٩)﴾ [الإسراء]

القاصف : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى اليابس ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ .. (٦٩)﴾ [الإسراء] أى : بسبب كفركم بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم وتمردتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتُقِرُّوا له بالفضل .

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۝٦٩ ﴾ [الإسراء]

عندنا تابع وتبيع ، التابع : هو الذى يتبعك لعمل شيء فيك ، أما التبيع : فهو الذى يُوالى تتبعك ، ويبحث عنك لأخذ ثأره منك . فالمعنى : إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم ، إذن : لا أملَ لكم فى ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم ، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا ضربتُ فلاناً فسيأتى أهله ويفعلون بى كذا وكذا ، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحدَ يستطيع رداً على انتقامه أو عذابه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾

وهل هناك تكريم لبنى آدم أعظم من أنْ يُعدَّ لهم مُقوِّمات حياتهم قبل أنْ يخلقهم ؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا .. ۝٢٩ ﴾ [البقرة]

إذن : فكل ما فى الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجَدوا ؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم ، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يقُلْ الحق سبحانه : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ⦗١١⦘ ﴾ [الرعد]

وقال تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ⦗٥⦘ ﴾ [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفى خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْى منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفة تأمُّل وتفكُّر ؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون ، وليهتدى إلى أن له خالقاً مُبْدعاً ، يكفى أن أنظر إلى آيات الله التى تخدمنى ، وليس لى قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتى ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطينى وتُمدّنى دون قدرة لى عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنِ الذى أعدَّ لى كلَّ هذه الأشياء التى ما ادَّعاها أحد لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذى خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أنْ تُرهِفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذى حيَّركم .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذى انقطعتْ به السُّبل فى الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب ، أليس حَرِياً به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتتْه ؟

---

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

إذن : كان على الإنسان أن يُعمل عقله وفِكْره فى معطيات الكون التى تخدمه وتسخر من أجله ، وهى لا تأتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

وقد اختلف العلماء فى بيان أَوْجُه التكريم فى الإنسان ، فمنهم مَنْ قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرِّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرِّم بالاختيار ، ومنهم مَنْ قال : كُرِّم الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنحنياً إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها فى شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة فى تناول الأشياء ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم ملْحظ فى التكريم[1] .

ولنا فى مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أودُّ أنْ يلتفت إليه العلماء ، ألاَ وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٢٢) : « والصحيح الذى يُعوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ[1] ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾

أى : يوم القيامة ، والداعى هو المنادى ، والناس هم المدعوون ، والنداء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصِّل هذا الإجمال ، فتُنادى كل جماعة بمَنْ بلَّغهم وهداهم ودلَّهم ليُغرى الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال بعضهم (بِإِمَـٰمِهِمْ) أى : بأمهاتهم ، وفى دعاء الناس بأمهاتهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وستْر على

---

(١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمامهم » :
- بكتابهم ، بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قاله ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك .
- بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدعى كل إنسان بكتابه الذى كان يتلوه ، فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، قاله ابن زيد .
- بنبيهم ، والإمام مَنْ يؤتم به . قاله مجاهد
- بإمام عصرهم . قاله قتادة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .
- بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . قاله الحسن وأبو العالية وابن عباس .
- بأمهاتهم . قاله محمد بن كعب .

ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٥/٤٠٢٥) .

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفضحوا على رؤوس الأشهاد في مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة] إنه مسرور بعمله الصالح الذي يحب أنْ يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء]

الظلم أنْ تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص في شيء تريد أنْ تحصل عليه ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخَلْق ؟! إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغني عن الخَلْق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿فَتِيلًا﴾ عادةً يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضّل والعلف لماشيتهم ، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل ، وهي ثلاثة أشياء تجدها في نواة الثمرة ، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل .

فالنقير[1] : هو تجويف صغير في ظهر النواة مثل النقطة .

---

(١) ورد لفظ « النقير » في القرآن مرتين :
- ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء] .
- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء]

والقطمير[1] : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النواة .

فمعنى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء] أي : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم مهما تناهى في الصِّغَر .

وفي مقابل مَنْ أوتي كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أوتي كتابه بشماله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحاقة] وفي آية أخرى قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه ؛ لأنه عميتْ بصيرته في الدنيا فعمى في الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شكَّ أنه من أهل الشمال ، فالآيات ذكرتْ مرة السبب ، وذكرتْ مرة المسبِّب ، ليلتقي السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغي .

فكأن الحق سبحانه قال : إن مَنْ أوتي كتابه بيمينه وقراه وتباهى به لم يكُنْ أعمى في دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

---

(١) ورد لفظ « القطمير » في القرآن مرة واحدة :

- ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة لا عمى بصر ؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم . مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكى يسير فى رحلة الحياة على هدى لا بُدَّ له من بصر يرى به المرائى المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذى لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التى يكتسبها الإنسان من منهج الله الذى آمن به وسار على هَدْيه .

وقوله : ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء]

إنْ كان عماه فى الدنيا عمى بصيرة ، فَعَماه فى الآخرة عمى بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه فى الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ، إذن : العمى فى الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

وقال عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية فى الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. ﴿٧٥﴾﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا..﴿٥٣﴾﴾ [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة فى مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم فى هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم فى كَرْب وحَيْرة لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمى البصرى عندهم .

أما الحالة الثانية وهى الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حادّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففى قوله تعالى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء]

فلفظ (أعمى) واحد ، لكن فى الآخرة قال (وأَضلُّ سَبيلاً) إذن : لابُدَّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خَيْر من هذا فقد فضّلْتَ الأول فى الخيرية عن الثانى ، إذن : كلمة خير إما أنْ تأتى وَصْفاً ، وإما أن تأتى تفضيلاً .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[(١)] .

فالمراد أن المؤمن القوى أكثر فى الخيرية . إذن : فكلمة : ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ.. (٧٢)﴾ [الإسراء] ليست وَصْفاً ، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا ، أى أنه فى الآخرة أشدّ عمًى .

وقوله تعالى : ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾ [الإسراء] ومعلوم أنه كان ضالاً فى الدنيا ، فكيف يكون أضلَّ فى الآخرة ؟

قالوا : لأن ضلاله فى الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السَّوِىّ ، أما فى الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلالهُ فى الآخرة أشدّ وأعظمُ من ضلاله فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه[(٢)] :

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)﴾

وهذه خبيئة جديدة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متعنا باللات سنة ، وحرِّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجبهم . فأنزل الله هذه الآية . وقال سعيد بن جبير : قال المشركون للنبى ﷺ : لا نكف عنك إلا بأن تُلم بآلهتنا ولو بطرف أصابعك ، فقال النبى ﷺ : ما علىّ لو فعلت والله يعلم أنى بارّ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا ـ أى : ثقيف ـ كما حرمت مكة . ومرة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

ومعنى (كادوا) أى قاربوا ، والمقاربة غير الفعل ، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له ، لكنه لم يحدث ، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذى أُنزل إليك لكن لم يحدث ؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد ، فهى تحوم حول فتنتك عن الدين ، كما قالوا مثلاً : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة[1] .

ومعنى : ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ لَيُحوّلونك ويَصْرِفونك عما أنزل الله إليك ، لماذا ؟ ﴿ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ .. (٧٣) ﴾ [الإسراء] كما حكى القرآن عنهم فى آية أخرى : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥) ﴾ [يونس]

فيكون الجواب من الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

ونلاحظ فى مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فنزل الوحى بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [الكافرون] ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) .

رسوله ، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى ، لكى لا تكون عداوة بين محمد وقومه ، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصَدَّق عندهم ، لكن المسألة عندى أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) ﴾ [الإسراء]

الخليل : هو المخَالّ الذى بينك وبينه حُبٌّ ومودّة ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى فى إبراهيم : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ [النساء]

ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ ... خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِتَابَا

كأَنَّ خَلِيلاً فِى خِلاَلِ خَلِيله ... تَسَرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وَغَابَا

فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما فى صاحبه أو تخلَّله ودخل فيه .

فالمعنى : لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذى جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذى جعلهم فى حالة عداء لك هو منهج الله الذى جئتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذى أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ وَلَوْلَا ﴾ أداة شرط إنْ دخلت على الجملة الإسمية ، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط ، ويسمونها حرف امتناع لوجود . كما لو قلت : لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد .

فإنْ دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ.. ﴿١٣﴾ ﴾ [النور]

و (لولا) في الآية دخلتْ على جملة إسمية ؛ لأن (أن) بعدها مصدرية ، فالمعنى : لولا تثبيتنا لك لقاربتَ أنْ تركنَ إليهم شيئاً قليلاً .

والمتأمل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات ، فلم تقُلْ : لولا تثبيتنا لك لَركنتَ إليهم ، لا ، بل لَقاربتَ أنْ تركنَ فمنعتْ مجرد المقاربة ، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير مُتصوَّر من رسولِ الله ، ومع ذلك أكّد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله : ﴿ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء] أي : ركوناً قليلاً .

مما يدلُّ على أن طبيعته ﷺ - حتى دون الوحي من الله - طبيعة سليمة بفطرتها ، فلو تصوَّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه ؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أنْ يركنَ إليهم شيئاً قليلاً ، وقلنا : إن المقاربة تعني مشروعَ فِعْل ، لكنه لم يحدث ، مِمّا يدلُّ على أن لرسول الله ذاتية مستقلة .

ومعنى ﴿ ثَبَّتْنَاكَ.. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء] التثبيت هو منع المثبَّت أنْ يتأرجح ، لذلك نقول للمتحرك : اثبت .

ومعنى : (تَرْكَنُ) من ركون الإنسان إلى شيء يعتصم به ويحتمي ، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم ، وإذا احتمى الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مثلاً فقد حمَى ظهره فقط ، وأمن أنْ يأتيه أحد من ورائه ، فإنْ أراد أنْ يحميَ جميع جهاته الأربع ، فعليه أن يلجأ إلى رُكْن وأنْ يسند ظهره إلى الركن فيأمن ما أمامه ، ويحتمي بجدار عن يمينه وجدار عن شماله . إذن : الركون أن تذهب إلى حِرْز يمنعك من جميع جهاتك .

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود] أي : احتمى به وألجأ إليه .

والحق سبحانه في هذه الآيات يريد أنْ يستلَّ السخيمة على محمد ﷺ من قلوب أعدائه ؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم ، وقد كان يشقُّ على نفسه ويُحمِّلها ما لا تطيق في سبيل هذه الغاية ، ومن ذلك ما حدث من تَرْكه عبد الله بن أم مكتوم الذي جاءه سائلاً ، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش ؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شقَّ على نفسه[1] .

وكأن الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يقول : يا قوم إنْ لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه من الانصراف عَمَّا أُنزِل إليه من ربه ، فاعذروه ؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني ، ولا ذنب لمحمدٍ فيما خالفكم فيه ، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأ ما ، فأردتَ أنْ تتحمل عنه المسئولية ، فقلت : أنا الذي كلفتُه بهذا وأمرتُه به ، فالأمر عندي وليس للخادم ذنب فيما فعل .

---

(١) وقد قال تعالى عن هذا : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ إذاً ﴾ أى : لو كِدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات ، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكُرْه من صدور القوم لمحمد ، وينقلها له سبحانه وتعالى .

ومعنى ﴿ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء] الضعْف : مضاعفة الشيء مرة أخرى . أى : قَدْر الشيء مرتين ، ولا يُذاق فى الحياة إلا العذاب ، فالمراد : لأذقناك ضِعْف عذاب الحياة وضِعْف عذاب الممات ، لكن لماذا يُضاعَف العذاب فى حَقِّ محمد ﷺ ؟

قالوا : لأنه أُسْوة كبيرة وقُدْوة يقتدى الناس بها ، ويستحيل فى حقِّه هذا الفعل ، ولا يتصور منه ﷺ ، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعَف له العذاب ، كما قال تعالى فى نساء النبى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين ، وهنَّ أُسْوة لغيرهنَّ من نساء المسلمين ، وكلما ارتفع مقام الإنسان فى مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أنْ يتبرأ عن الشبهة ؛ لأنه سيكون أُسْوة فعل ، فإنْ ضَلَّ فلن يضل فى ذاته فقط ، بل سيضل معه غيره ، ومن هنا شدَّد الله العقوبة وضاعفها للنبى ولزوجاته .

وقد اختار الحق سبحانه لفظ ﴿ لأَذَقْنَاكَ ﴾ ؛ لأن الإذاقة من

الذَّوْق ، وهو أعمّ الملكات شُيوعاً في النفس ، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك ، لكنّ المذاق تشترك فيه كل الملكات .

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تجد مدافعاً يدافع عنك ؛ أو ناصراً ينصرك ؛ لأن مددك منى وحدى ، فكيف يكون لك ناصر من دونى ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ[2] لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) ﴾

وهنا أيضاً يقول تعالى : ﴿ كَادُوا ﴾ أى : قاربوا ، فهم لا يجرؤون على الفعل ، ولا يستطيعون ، فالأمر مجرد القُرْب من الفعل ، فإنهم سيحاولون إخراجك ، لكنك لن تخرج إلا بأمرى وتقديرى .

وقوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ .. (٧٦) ﴾ [الإسراء] من استفزَّه أى : طلب منه النهوض والخِفَّة إلى الفعْل ، كما تقول لولدك المتثاقل : (فِز) أى : قُمْ وانهض ، والمراد : يستحثونك على الخروج ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ من مكة بإيذائهم لك ، وعَنَتهم معك ليحملوك على الخروج ، ويكرِّهوك فى الإقامة بها .

---

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد وقتادة : نزلت فى همّ أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ، ولكن الله أمره بالهجرة فخرج . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣٠) : « وهذا أصح ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر » .

(٢) يريد أرض مكة . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣٠) .

وكفار مكة يعلمون أن فى خروجه ﷺ من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أسْوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) ﴾ [الإسراء]

أى : لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه ﷺ من مكة بعام جاءت بدر ، فقُتل سبعون من صناديد قريش ، وأسرَ سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التى كانوا يرجُونها بعد خروجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سُنة من سُنن الله فى الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فكان عليهم أنْ يأخذوا عِبْرة من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذّبوا وعُودوا واضطهِدُوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الغلبة .

والسُّنة : هى العادة والطريقة التى لا تتخلَّف ولا تتبدَّل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧) ﴾ [الإسراء] ؛ لأن السُّنة لا تتحوَّل ولا تتبدَّل إلا بالأقوى الذى يأتى ليُغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السُّنة من الله القوى بل الأقوى ، فهو سبحانه وحده

الذى يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقوله الحق الذى لا يُبدِّله أحد ، ولا يُعارضه أحد .

● ● ●

وبعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أنْ يأتي لنا بثمرة هذا المنهج وحصيلته النهائية ، وهى أنْ يستقيمَ لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها .

هذا المنهج الإلهى جاء فى صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »[1] .

إذن : هذه هى الأركان التى بُنِى عليها الإسلام ، لكن ما حَظُّ المسلم من هذه الأركان ؟ لو تأملتَ لوجدتنَا نشترك كلنا فى شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفى الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لأىِّ سبب ، وهى المكرَّرة فى اليوم خمس مرات .

أما باقى الأركان وهى : الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالفقير لا تُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن : عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التى هى : الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقتْ أركان الإسلام مع أركان المسلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وتلاحظ في هذه الأركان أن الشهادتين يكفي أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ، والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة ؛ لذلك جعلها عماد الدين[1] .

ثم قال تعالى :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ[2] ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ[3] ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾

فالصلاة هي الفريضة الثابتة المتكررة التي لا تسقط عن المسلم بأي حال ، وفيها إعلانُ ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهي أيضاً تنتظم كل أركان الإسلام ؛ لأنك في الصلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبدل أنْ كنتَ تقولها مرة واحدة ها أنت تقولها عدة مرات في كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تشتمل على الصوم ؛ لأنك تصوم في أثناء الصلاة ، فتمتنع عن شهوتَيْ البطن والفرج ، وكذلك عن أيٍّ فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام في غير ألفاظ الصلاة . إذن : في الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

---

(١) لفظه : « الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨) » : « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووي في التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ح٢٧٩) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤٠٣١/٥) : « اختلف العلماء في الدلوك على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم .
الثاني : أن الدلوك هو الغروب ، قاله علي وابن مسعود وأبي بن كعب قال الماوردي : من جعل الدلوك اسماً لغروبها ، فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبينها حالة المغيب ، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها » .

(٣) الغسق : ظلمة الليل ، وهو وقت صلاة العشاء . [القاموس القويم ٥٣/٢]

وفى الصلاة زكاة ؛ لأن المال الذى تكتسبه وتُزكّيه ناتج عن الحركة ، والحركة فرع الوقت ، وفي الصلاة تُضحّى بالوقت نفسه ، فكأن الزكاة فى الصلاة أبلغ .

وكذلك فى الصلاة حج ؛ لأنك تتوجّه فيها إلى كعبة الله ، وتستحضرها فى ذهْنك وأمام ناظريْكَ .

لذلك استحقت الصلاة أن تكون عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدمها فقد هدم الدين ، ومن هنا جاءت الصلاة فى أول هذه الأحكام ، فقال تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ .. (٧٨)﴾ [الإسراء] أى : أدّها أداءً كاملاً فى أوقاتها .

والصلاة لها مَيْزة عن كل أركان الإسلام ؛ لأن كل تكليفات الإسلام جاءت بواسطة الوحى لرسول الله إلا الصلاة ، فقد فُرضَتْ بالمباشرة مما يدلُّ على أهميتها ، وقد مثَّلْنَا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بالرئيس الذى يتصل بمرؤوسه تليفونياً ليأمره بشيء ، فإذا كان هذا الشيء من الأهمية بمكان استدعاه إليه وأفهمه ما يريد .

وهكذا كانت الصلاة ، فقد فُرِضَتْ على رسول الله ﷺ وعلى أمته بالمباشرة لما لها من أهمية بين فرائض الدين ، ثم تولى جبريل عليه السلام تعليم رسول الله الصلاة ، وعلَّمها رسول الله للناس ، وقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلِّى »[1] .

وقوله تعالى : ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨)﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا مواقيت الصلاة . و (الدلوك) معناه : الزوال من حركة إلى حركة ، ومنها قولنا : فلان (المدلكاتى)

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه . ضمن حديث .

أى : الذى يتولَّى عملية التدليك ، وتتحرك يده من مكان لمكان .

والمراد بدلوك الشمس : مَيْلها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب ، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السماء ، فيراها على شكل قوس ممتدّ وعلى حَسْب نظره وقوته يرى الأفق ، فإنْ كان نظره قوياً رأى الأُفق واسعاً ، وإنْ كان نظره ضعيفاً رأى الأفق ضيّقاً ؛ لذلك يقولون لقليل التفكير : ضيِّق الأفق .

وأنت حين تقف فى مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة ، وأنت مركزها ، وساعةَ أنْ ترى الشمس عمودية عليك ، فهذا وقت الزوال ، فإذا ما انحرفتْ الشمس ناحية المغرب يُقَال : دلكت الشمس . أى : مالت ناحية المغرب ، وهذا هو وقت الظهر .

والمتأمل فى فَرْض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهْر هو أول وقت صَلاَّه رسول الله ؛ لأن الصلاة فُرِضَتْ عليه فى السماء فى رحلة المعراج ، وكانت بليل ، فلما عاد ﷺ كان يستقبل الظهر ، فكانت هى الصلاة الأولى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] أى : أقِم الصلاة عند دُلوك الشمس إلى متى ؟ إلى غَسَق الليل أى : ظُلْمته ، وفى الفترة من دُلوك الشمس إلى ظُلْمة الليل تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] ونتساءل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يَقُلْ صلاة ؟

قالوا : لأن القرآن فى هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن ندياً طرياً وتستقبله استقبالاً واعياً قبل أن تنشغل بأمور الحياة ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : تشهده الملائكة . إذن : المشهودية لها دَخْل فى العبادة ، فإذا كانت مشهودية مَنْ لا تكليف عليه فى الصلاة جعلها الله حيثية ، فكيف بمشهودية مَنْ كُلِّفَ بالصلاة ؟

والحق سبحانه وتعالى جعل فى صلاة الجماعة استطراقاً للعبودية ، ففى صلاة الجماعة يستوى كل الخَلْق حيث يخلعون وجاهتهم ، ويخلعون أقدارهم على أبواب المسجد ، كما يخلعون أحذيتهم ، فالرئيس بجانب المرؤوس والوزير بجانب الخفير .

لذلك نهى النبى ﷺ أن يُوطِّن الإنسان لنفسه مكاناً فى المسجد ، يجلس فيه باستمرار[1] ؛ لأن الأصل أنْ يجلس المصلى حيث ينتهى به المجلس ، فيجلس الناس بأولوية الحضور كل حَسْب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب[2] ، ولا يُفرق بين اثنين[3] .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ، ويضع سجادته ليحجزَ بها مكاناً ، ثم ينصرف لحَاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطَّى رقاب الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرُّف ، وينُحُّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها ، إنه تصرُّف لا يليق ببيوت الله التى تُسوِّى بين خَلْق الله جميعاً ، وتحقق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٨/٣) ، وابن ماجة فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطنُ البعير » .

(٢) أخرج ابن ماجة فى سننه (١١١٦) من حديث معاذ بن أنس قال قال ﷺ : « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتُّخذ جسراً إلى جهنم » .

(٣) عن سلمان الفارسى قال قال ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر ، ثم ادهن أو مسَّ من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كُتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصت ، غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) .

استطراق العبودية لله ، فأنت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً في مناسك الحج ، حيث يأتي أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً متضرعاً ، وهو مَنْ هو في دُنْيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهده ملائكة الليل ، وهم غير مكلَّفين بالصلاة ، فالأفضل من مَشْهدية الملائكة مَشْهدية المصلِّين الذين كلَّفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف[1] .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس بالوقت ، وبآية كونية تدلُّ عليه هي الشمس ، فكيف العمل إذا غابت ، أو حُجِبَتْ عنَّا بغيم أو نحوه ؟

إذن : على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويُعملَ تفكيره في إيجاد شيء يضبط به وقته ، وفعلاً تفتقتْ القرائح عن آلات ضبط الوقت الموجودة الآن ، والتي تُيسِّر كثيراً على الناس ؛ لذلك كانت الطموحات الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء المسلمين ، على اعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٦٥٠) .

الهجود : هو النوم ، وتهجَّد : أى أزاح النوم والهجود عن نفسه ، وهذه خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته ، أنْ يتهجَّد لله في الليل ، كما قال له ربه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ ﴾ [المزمل]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فَرْضاً عليه ، إلا أنها ليست فى قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية فى هذه العبادة ، المهم أن يقوم لله تعالى جزءاً من الليل ، لكن ما علَّة هذه الزيادة فى حَقِّ رسول الله ؟ العلة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل]

وكأن التهجُّد ليلاً ، والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألاَ وهى مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس .

وفى الحديث الشريف « أن رسول الله كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة »[1] ، ومعنى حَزَبه أمْر : أى : ضاقت أسبابه عنه ، ولم يَعُد له فيه منفذ ، فإنْ ضاقت عليه الأسباب فليس أمامه إلا المسبِّب سبحانه يلجأ إليه ويَفْزع إلى نجدته ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ ﴾ [المزمل]

لأنك فى الوقت الذى ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدى ربك مناجياً مُتضرِّعاً ، فتتنزل عليك منه الرحمات والفيوضات ، فَمَنْ قام من الناس فى هذا الوقت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

واقتدى بك فَلَهُ نصيب من هذه الرحمات ، وحَظٌّ من هذه الفيوضات . ومَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له .

إذن : في قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظّه من قيام الليل أزيد من حظهم ، فأعباء الرسول ﷺ كثيرة ، والعبءُ الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ، حتى يستعين بلقاء رَبّه على قضاء مصالحه .

ومن العجيب أنْ ينصرف المسلمون عن هذه السُّنة ، ويتغافلون عنها ، فإذا حزبهم أمر لا يُهْرَعون إلى الصلاة ، بل يتعللون ، يقول أحدهم : أنا مشغول . وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة ؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتح لك الأبواب ، وتقضي في ساعة ما لا تقضيه في عدة أيام .

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها ، فإنْ صلُّوا صلُّوا قضاءً ، فإنْ سألتَهم قالوا : المشاغل كثيرة والوقت لا يكفي ، فهل إذا أراد أحدهم الذهاب لقضاء حاجته ، هل سيجد وقتاً لهذا ؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر ، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا ، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً ؟!

وقوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ .. (٧٩) ﴾ [الإسراء]

النافلة هي الزيادة عما فرض على الجميع (لك) أي : خاصة بك دون غيرك ، وهذا هو مقام الإحسان الذي قال الله عنه :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

والمحسن هو الذى دخل مقام الإحسان ، بأن يزيد على ما فرضه الله عليه ، ومن جنس ما فرض ؛ لذلك جاءت حيثية الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

وهذا المقام ليس فرضاً عليك ، فلك أن تصلى العشاء وتنام حتى صلاة الفجر ، لكن إنْ أردت أن تتأسَّى برسول الله وتتشبَّه به فادخُلْ فى مقام الإحسان على قَدْر استطاعتك .

ثم يقول تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء]

تحدثتْ الآية فى أولها عن التكليف ، وهذا هو الجزاء ، و (عَسَى) تدل على رجاء حدوث الفعل ، وفَرْق بين التمنى والرجاء ، التمنى : أن تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غير ممكن الحدوث أو مستحيل ، ومن ذلك قول الشاعر :

لَيْتَ الكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمُهَا

فالشاعرَ يتمنى لو أصبحت الكواكب بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمن يمدحه ، وهذا أمر مستحيل الحدوث .

وقوله :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يعُودُ يَوْماً   فَأُخبرُه بِمَا فَعَلَ المشيبُ

أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن الحدوث .

ويقع تحت الطلب أشياء متعددة ؛ فإنْ طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تمنٍّ ، وإنْ طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجٍّ ، وإنْ طلب صورة الشيء لا حقيقته فهو استفهام كما تقول : أين زيد ؟ وفَرْقٌ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة .

فإنْ طلبتَ حقيقة الشيء ، فأمامك حالتان : إما أنْ تطلب الحقيقة على أنها تُفعل فهذا أمر ، مثل : قُمْ ، فإنْ طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهي : لا تَقُمْ .

إذن : (عَسَى) تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإنْ رجوت من فلان فقد يعطيك أو يخذلك ، فإنْ قُلْتَ : عسى أنْ أعطيك فقد قربت الرجاء ؛ لأنني أرجو من نفسي ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يَفِي بما وعد .

فإنْ قُلْت : عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء ؛ لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجِزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولا تتناوله الأغيار إذن : فالرجاء فيه مُحقّق لاَ شكَّ فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود : أي الذي يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يَقُلْ : محمود ممَّنْ ؟ فهو محمود ممَّنْ يمكن أن يتأتَّى منه الحمد ، محمود من الكل من لَدُنْ آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود : هو مقام الشفاعة ، حينما يقف الخَلْق في ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشدّته ، حتى ليتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، ساعتها تستشفع كُلُّ أمة بنبيها ، فيردّها إلى أنْ يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء ، فيقول : أنا لها ، أنا لها[1] .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٠٣٨/٥) : « اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال :
الأول : وهو أصحها ـ الشفاعة للناس يوم القيامة . قاله حذيفة بن اليمان .
الثاني : إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة . قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .
الثالث : هو أن يُجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه .
الرابع : إخراجه من النار بشفاعته من يخرج . قاله جابر بن عبد الله .

لذلك أمرنا ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء : « وابعثه اللهم المقام المحمود الذى وعدته »[1] ولا شكَّ أنه دعاء لصالحنا نحن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : من حيث النظرة العامة ؛ لأنك قبل أنْ تدخلَ اطلب الخروج أولاً ؛ لأنك لن تدخلَ إلا بعد أنْ تخرجَ . وإنْ كان الترتيب الطبيعى أن نقول : أخرجنى مُخْرَج صدق ، وأدخلنى مُدْخَل صدق .

نقول : لا ؛ لأن الدخول هو غاية الخروج ، ولأن الخروج متروك والدخول مستقبل لك ، إذن : الدخول هو الأهمّ فبدأ به . لذلك يقولون : إياك أنْ تخرجَ من أمر إلا إذا عرفتَ كيف تدخل .

ومعنى مخرجَ الصدق ، ومدخل الصدق ، أنك لا تدخل أو تخرج بدون هدف ، فإنْ خرجتَ من مكان فليكُن مخرجك مخرج صدق ، يعنى : مطابقاً لواقع مهمتك ، وإنْ دخلتَ مكاناً فليكُنْ دخولك مدخل صدق . أى : لهدف محدد تريد تحقيقه . فإن دخلتَ محلاً مثلاً فادخل

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤) ، والترمذى فى سننه (٢١١) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٥٤) .

لهدف ، كشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صدْق ، أما لو دخلتَ دون هدف أو لتؤذى خَلْق الله ، فليس فى هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرجَ صدْق ، ودخل مُدخَل صدق ، لأنه ﷺ ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعُدْ التربة فى مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُّصْرة والمؤازرة من أهلها .

فالصدق أنْ يطابق الواقع والسلوك ما فى نفسك ، فلا يكُنْ لك قصور فى نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[الإسراء]

طلب النُّصْرة من الله تعالى لرسوله ﷺ ؛ لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفسادُ الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعادُون الدعوة ، ويُجابهونها ؛ لذلك توجه رسول الله ﷺ إلى ربه تعالى الذى أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى : ﴿ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] السلطان : سبق أنْ أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع ، وإما سيف يَرْدَع ، وهذا واضح فى قوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] أى : بالآيات الواضحات ، وهذه أدوات الحجة والإقناع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] وهذه أدوات القوة والردع .

فالخيِّر من الناس يرتدع بقول الله وبقول الرسول ويستجيب ، أما الشرير فلا تُجدى معه الحجة ، بل لا بُدَّ من رَدْعه بالقوة ، فالأول إنْ تعرَّض للحلف بالله حلف صادقاً ، أمـا الآخر فإنْ تعرَّض للحلف حلف كاذباً ، ووجدها فُرْصة للنجاة ، ولسان حاله يقول : أتاك الفرج .

وفي الأثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن »(1) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

هكذا أطلقهـا الحق سبحـانه شعاراً مُدوِّياً (جَاءَ الْحَقُّ) وما دام قال للرسـول : (قل) فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شكَّ فيـه ؛ لذلك أمره بهذا الأمر الصريح ولم يُوسْوِسْهُ له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله في عام الفـتح ، وعندما دخل مكة فـاتحاً وحوْلَ البـيت ثلاثمائة وسـتون صنماً فـيكبكبُهم جميـعاً ، وينادى : « جاء الحق وزهق البـاطل ، جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد »(2) .

أي : جاء الحق واندحـر الباطل ، ولم يَعُدْ لديْه القـوة التى يُبدِىء بها أو يُعيد ، فقد خَمدتْ قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَة ولا كلمة .

وقـوله تـعـالى : ﴿ جَـاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَـاطِلُ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسـراء]

---

(1) قال ابن منـظور فى (لسان العرب ـ مـادة : وزع) : « معناه أن من يكفـه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار » .

(2) أخرجـه مسلم فى صـحيحـه (١٧٨١) من حـديث ابن مسعـود رضى الله عنه . وأورده القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٤٢) وعزاه للبخارى والترمذى عن ابن مسعود .

يشعرنا بأن الحق اتى بنفسه ؛ لأنه نسب المجيء إلى الحق كأنه أمر ذاتيّ فيه ، فلم يأت به أحد ، وكذلك فى ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء] فالباطل بطبيعته زاهق مُندحِر ضعيف لا بقاءَ له .

ومن العجيب أن الحق الذى جاء على يد رسول الله فى فتح مكة انتفع به حتى مَنْ لم يؤمن ، ففى يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة فى دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبَّروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ويُوقفهم أمامه ويقول : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

إذن : جاء الحق ليس لاستعباد الناس ، ولكن لراحتهم ورَفْع رؤوسهم . ومن الحق الذى أظل مكة بالفتح ما يُرْوَى أن واحداً دخل على النبى ﷺ الكعبة وأراد إيذاءه ، وحينما وضع يده على رسول الله ﷺ تبدَّل حاله وقال : فو الله لقد أقبلت عليه ، وما فى الأرض أبغض إلىَّ منه ، فحين وضعت يدى عنده فو الله ما فى الأرض أحب إلىَّ منه[2] ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ حين سار إلى مكة يستفتحها وفتح الله عليكم ، ثم دخل صناديد قريش من المشركين الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يُرفع عنهم ، ثم طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : ابن أخ وابن عم حليم رحيم . [ثلاثاً] فقال رسول الله ﷺ : أقول كما قال يوسف : ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف] قال : فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٥٨) .

(٢) قال ابن هشام فى سيرة النبى ﷺ (٤/٣٧) : أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أراد قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أفضالة » قال : نعم فضالة يا رسول الله . قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله عز وجل . قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحبّ إلىّ منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]

زَهُوق صيغة مبالغة ، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر ، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله ؛ لأن الباطل لو لم يُؤلم الناس ويُزعجهم ما تشوَّقوا للحق وما مالوا إليه ، فإذا ما لدغهم الباطل واكتَوواْ بناره عرفوا الحق .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل ، فقال : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

الحق سبحانه يُمثِّل للحق وللباطل بشيء حسِّيٍّ نراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء إلى الأودية بين الجبال حاملاً معه صغار الحصى والرمال والقشّ ، وهذا هو الزَّبَد الذى يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وحين تهب الرياح تُنحِّي هذا الزبد جانباً ، ويبقى الماء الرائق الصالح الذى ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثالٌ للحق الذى ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذى لا خَيْر فيه .

أو : يعطينا المثال فى صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائغ الذى يُوقِد النار على الذهب ليخرج منه ما علق به من شوائب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

الآية تُعطينا نموذجين لتلقِّي القرآن : إنْ تلقَّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة ، وإنْ تلقَّاه الظالم كان عليه خَسَار ، والقرآن حَدَّد الظالمين ليُبيِّن أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن ؛ لأن القرآن خير فى ذاته وليس خساراً .

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً ، لكن يختلف القابل للفعل ، ويختلف الأثر من شخص لآخر ، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح ، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مُرّاً مائعاً ، فالماء واحد لكن المنفعل للماء مختلف . كذلك أكل الدَّسم ، فإنْ أكله الصحيح نفعه ، وزاد فى قوته ونشاطه ، وإنْ أكله السقيم زاده سُقْماً وجرَّ عليه علة فوق علّته .

وقد سبق أن أوضحنا فى قصة إسلام الفاروق عمر - رضى الله عنه - أنه لما تلقَّى القرآن بروح الكفر والعناد كَرِهه ونَفَر منه ، ولما تلقاه بروح العطف والرِّقّة واللين على أخته التى شجَّ وجهها أعجبه فآمن .

إذن : سلامة الطبع أو فساده لها أثر فى تلقِّى القرآن والانفعال به . وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم ، فلو عندك كوب ماء قد مُلِيء نصفه ، فالمتفائل يُلفت نظره النصف المملوء ، فى حين أن المتشائم يُلفت نظره النصف الفارغ ، فالأول يقول : نصف الكوب ممتليء . والآخر يقول : نصف الكوب فارغ ، وكلاهما صادق لكن طبعهما مختلف .

وقد عالج القرآن مسألة التلقِّى هذه فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا

الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

فالآية واحدة ، لكن الطبع المستقبل مختلف ، فالمؤمن يستقبلها بملكات سليمة ، فيزداد بها إيماناً ، والكافر يستقبلها بملكات فاسدة فيزدادَ بها كفراً ، إذن : المشكلة في تلقِّى الحقائق واستقبالها أن تكون ملكاتُ التلقى فاسدة .

ومن هنا نقول : إذا نظرتَ إلى الحق ، فإياك أنْ تنظره وفى جوفك باطل تحرص عليه ، لا بُدَّ أن تُخرج ما عندك من الباطل أولاً ، ثم قارن وفاضل بين الأمور .

وكذلك جاءت هذه المسألة في قول الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقولهم : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن ، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

ومثالٌ لسلامة التلقِّى من حياتنا المعاصرة إرسال التلفاز مثلاً ، فقد تستقبله أنت فى بيتك فتجده واضحاً فى حلْقة من الحلقات أو برنامج من البرامج ، فتتمتع بما شاهدت ، ثم تقابل صديقاً فيشكو

لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ، إلا أن العيب فى جهاز الاستقبال عندك ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز الاستقبال عندك لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن : قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء] متوقف على سلامة الطبع ، وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء : أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة : أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ، فالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاء القرآن شفاءٌ معنويٌ لأمراض القلوب وعِلَل النفوس ، فيُخلِّص المسلم من القلق والحَيْرة والغَيْرة ، ويجتثّ ما فى نفسه من الغلّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ، أم هو شفاء للماديات ، ولأمراض البدن أيضاً ؟

والرأى الراجح ـ بل المؤكد ـ الذى لا شكَّ فيه أن القرآن شفاء بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة ، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء للمعنويات ، بدليل ما رُوِى عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ، فأبَوْا إطعامهم ، وحدث أنْ لُدِغ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعْلٍ[1] ، وذلك لما رأوه من

---

(١) الجُعْل : ما جعله له على عمله . وهو الأجر على الشيء فعلاً أو قولاً . [لسان العرب ـ مادة : جعل] .

بُخْلهم وعدم إكرامهم لهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف]

ولما اتفقوا معهم على جُعْل من الطعام والشياه قام أحدهم برقية اللديغ بسورة الفاتحة فبرىء ، فأكلوا من الطعام وتركوا الشياه إلى أنْ عادوا إلى رسول الله ﷺ ، وسألوه عن حِلِّ هذا الجُعْل فقال ﷺ : « ومَنْ أدراك أنها رقية » أي : أنها رُقْيَة يرقى بها المريض فيبرأ بإذن الله ، ثم قال ﷺ : « كُلوا منها ، واجعلوا لي سهماً معكم »[1] .

فشفاء أمراض البدن شيء موجود في السُّنة ، وليس عجيبة من العجائب ؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه ، وهو رَبُّ كل شيء ومليكه ، يتصرَّف في كونه بما يشاء ، وبكلمة (كُنْ) يفعل ما يريد ، وليس ببعيد أنْ يُؤثِّر كلام الله في المريض فيشفى .

ولما تناقش بعض المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء ، قالوا له : كيف يُشْفَى المريض بكلمة ؟ هذا غير معقول ، فقال العالم لصاحبه : اسكت أنت حمار !! فغضب الرجل ، وهَمَّ بترك المكان وقد ثارت ثورته ، فنظر إليه العالم وقال : انظر ماذا فعلتْ بك كلمة ، فما بالُكَ بكلمة ، المتكلِّم بها الحق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء] لأنهم بظُلْمهم واستقبالهم فُيوضات السماء بملَكَات سقيمة ، وأجهزة متضاربة متعارضة ، فلم ينتفعوا بالقرآن ، ولم يستفيدوا برحمات الله .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٤) والبخاري في صحيحه (٥٧٣٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾

الله تعالى يريد أن يعطى الإنسان صورة عن نفسه ؛ لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض ، كما يعطى الطبيب جُرْعة الطُّعْم أو التحصين الذى يمنع حدوث مرض ما . فها هى طبيعة الإنسان وسِمَتُه الغالبة ، وعليه أنْ يُخفِّف من هذه الطبيعة ، والمراد أن الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرضَ .

ولكى نُوضِّح هذه المسألة نُمثِّل لها - ولله المثل الأعلى - بالوالد الذى يعطى للابن مصروفه كل شهر مثلاً ، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر ، حيث يأتى موعد ما تعوَّد عليه من مصروف ، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره ، أما إذا عوَّده على أنْ يُعطيه مصروفه كل يوم ، فترى الولد فى الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم . فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه ، ما الذى دعاه إلى هذا التصرف ؟

لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر ، فإنْ كان الابن باراً مؤمناً فإنه لا ينسى فَضْل والده الذى وفَّر له طاقة الاستغناء هذه ، فيُذكِّر والده بالخير ، ويحمل له هذا الجميل .

فإنْ كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الربِّ الأعلى سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أعرض عنا وعن ذِكْرنا وانصرف عن منهجنا ، ومن الناس مَنْ يُعرِض عن ذكر الله ، ولكنه يؤدِّى منهجه ، ولو أدّى المنهج مع ذكر صاحب المنهج ما نسى المنعم أبداً .

وإذا شُغل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فكأنه يُخطِّىء المنعم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾[العلق]

فالاستغناء هنا ليس ذاتياً فى الإنسان ، بل هو استغناء موهوب ، قد ينتهى فى يوم من الأيام ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعِم سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝ ﴾ [العلق]

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى فى الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ۝ ﴾ [الإسراء] وهذه صفة مذمومة فى الإنسان الذى إذا ما تعرَّض لشرٍّ أو مسَّه ضُرٌّ يقنط من رحمة الله ، وكأن الحق سبحانه يخاطب عبده الذى يقنط : لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقتْ بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبِّب سبحانه ، وما دُمْتَ فى رحاب مُسَبِّب الأسباب فلا تيأس ولا تقنط .

لذلك يقولون : « لا كَرْبَ وأنت ربٌّ » ، فيجوز لك القنوط إن لم يكُنْ لك رَبٌّ يتولاَّك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومَنْ له أب لا يُلقى لهموم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه فى قضاء حاجاته ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ يرعاه ويتولاَّه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه فى كل وقت ؟

والحق سبحانه حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أنْ يُعطينا الأُسْوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان : لا تحزن إن

أديْتَ للناس جميلاً فأنكروه ، أو معروفاً فجحدوه ، وكيف تحزن وهم يفعلون هذا معى ، وأنا ربُّ العالمين ، فكثيراً ما أُنعِم عليهم ، ويُسيئون إلىَّ ، ويكفرون بي وبنعمتى .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حينما طلب من ربه تعالى ألاَّ يُقال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وأنا لم أفعل ذلك لنفسى ؟! إنهم يفترون على الله ما ليس فيه ، ويكفرون به سبحانه وينكرون إيجاده ونعمه ، فَمنْ يغضب لقول الكافرين أو إيذائهم له بعد هذا ؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويقنط ؟ لأنه في حال النعمة أعرض عن الله ونأى بجانبه : أى ابتعد عن ربه ، لم يَعُدْ له مَنْ يدعوه ويلجأ إليه أن يُفرِّج عنه ضيق الدنيا .

إذن : لما أعرض في الأولى يَئِس في الثانية . والله تعالى يجيب مَنْ دعاه ولجأ إليه حال الضيق حتى إنْ كان كافراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) ﴾

أى : أن كل إنسان يعمل على طريقته ، وعلى طبيعته ، وعلى مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان ، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان ، أو بما عنده من خلايا كفر ، فالناس مختلفون

وليسوا على طبع واحد ، فلا تحاول - إذن - أن تجعل الناس على طبع واحد .

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإنْ أساء إليك إنسان سيء الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيِّب ؛ لذلك يقولون : لا تُكافىء مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه . وبذلك يستقيم الميزان في المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾ [الإسراء]

والربُّ : المتولّي للتربية ، والمتولّي للتربية لا شكَّ يعلم خبايا المربَّى ، ويعلم أسراره ونواياه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول في الروح ؟ فسكت ثم ماج ، فأمسكت بيدي على جبهته ، فعرفت أنه ينزل عليه ، فأنزل الله عليه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٢١) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٩٤) .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٠) : « هذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه » .

والسؤال يَرِد في القرآن بمعانٍ متعددة ، ووردتْ هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في مواضع عدَّة ، فإنْ كان السؤال عن شيء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة]

فإنْ كان السؤال عن شيء لا يضر الجهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما في سؤالهم عن الأهلّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً ، ثم يأخذ في التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن في هذه الأمور الكونية التي لم نعرفها إلا حديثاً أمر غير ضروري ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن في إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أميَّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوِّلهم القرآن ، ويلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهلّة : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وقد يأتي السؤال ، ويُرَاد به اختبار رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن

الروح ، وهم يعلمون تماماً أن هذه مسألة لا يعلمها أحد ، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله ، فلعله يقول فى الروح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه فى صَرْف الناس عن دعوته[1] .

ولا شكَّ أنه سؤال خبيث ؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر فى مظهر العالم ، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة ، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة ، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم .

ولكن خيَّب الله سَعْيهم ، فكانت الإجابة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم ؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح ، وأنها من عند الله .

و (الرُّوح) لها إطلاقات مُتعدِّدة ، منها : الرُّوح التى تمدُّ الجسم بالحياة إن اتصلت به ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة ، وتحوَّل إلى جثة هامدة ، وفيها يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾

[الواقعة]

وقد تأتى الروح لتدل على أمين الوحى جبريل عليه السلام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/ ٦٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] .

وقد تُطلَق الروح على الوحي ذاته ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢) ﴾ [الشورى]

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة ، كما في قول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وأطلقتْ الروح على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. (١٧١) ﴾ [النساء]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة ، فما العلاقة بينها ؟

قالوا : الروح التي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطي مادية الحياة ، ومادية الحياة شيء ، وقِيَمُ الحياة شيء آخر ، فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً ؟ لا ، بل هو روح الروح ؛ لأن الروح الأولى قصاراها الدنيا ، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة في الآخرة ، فأيُّهما حياته أطول ؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هي حياتك أنت وكونك تُحسُّ وتتحرك وتعيش طالما فيك روح ، لا بل هناك روح أخرى أعظم في دار أخرى أبْقى وأدْوم : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

لأن الروح التي تعيش بها في الدنيا عُرْضَة لأنْ تُؤخَذ منك ، وتُسلَب في أيِّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً في بطن أمك ، إلى أنْ تصير شيخاً طاعناً في السنِّ .. أما روح الآخرة ، وهي روح القيم وروح المنهج ، فهي الروح الأقوى والأبْقى ؛ لأنها لا يعتريها الموت .

إذن : سُمِّى القرآن ، وسُمِّى الملك النازل به روحاً ؛ لأنه سيعطينى حياة أطول هى حياة القيم فى الآخرة .

وهنا يقول تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى .. (٨٥) ﴾ [الإسراء]

أى : أن هذا من خصوصياته هو سبحانه ، وطالما هى من خصوصياته سبحانه ، فلن يطلع أحداً على سرِّها . وهل هى جوهر يدخل الجسم فيحيا ويسلب منه فيموت ، أم هى مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه ، فإنْ قال لها كُنْ تحيا ، وإنْ قال مِتْ تموت ؟

إنّ علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة ، وسيظل بينهما مسافات طويلة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

وهل عرف العقل البشرى كل شىء حتى يبحث فى أسرار الروح ؟!

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفى : وهل أحَطْتَ علْماً بكل شىء فى الكون ؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذى لا تعلم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهِلّة قال : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وهذه هى الفائدة التى تعود علينا والتى تهمنا من الأهلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التى تمر بها الأهلّة فأمور لا يضُر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفادة بالشىء ليستْ فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل

الأمىّ فى ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة ؟ وكيف تستقبل ؟

إذن : الاستفادة بالشىء لا تحتاج معرفة كل شىء عنها ، فيكفيك - إذن - أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك فى متاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدى ، وألاَّ يُتعِب نفسه ويُجهدها فى علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره فى مثل مسألة الروح هذه ، أنْ ينشغل بعمل ذى فائدة له ولمجتمعه . وأىّ فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سِرٍّ من أسرار الروح ؟ وأىّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً ؟

إذن : مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التى تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، وما زال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم ،

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

وكأنه سبحانه يقول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

وهاهم العلماء والباحثون يقفون كل يوم على جديد في الكون الفسيح وفي الإنسان ، ولو تابعتَ ما توصَّل إليه علماء الفضاء ورجال الطب لَهالكَ ما توصَّلوا إليه من آيات وعجائب في خَلْق الله تعالى ، لكن هل معنى ذلك أننا عرفنا كل شيء ؟ إن كلمة ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخُطىً واسعة ، ففي الماضي كان التقدم يُقَاسُ بالقرون ، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد ، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل ؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ .. (٢٤)﴾ [يونس]

فكلُّ مَا نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كُنَّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء ، وكُنَّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال ، فابتكارات الإنسان في الكماليات ، أما الضروريات فقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض .

فإذا ما استنفدتْ العقول البشرية نشاطاتها ، وبلغتْ مُنْتهى مَا لديها من ابتكارات ، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في

زمام الكون ، لا يعجزهم فيه شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فبعد ما أخذتم أسرار المنعم في الكون على قَدْر ما استطعتم ، فاذهبوا الآن إلى المنعم ذاته لتروا النعيم على حقيقته ، وكلما رأيت في دنيا الناس ابتكارات واختراعات تُسعد الإنسان ، فهذا ما أعدَّ البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّ الله الخالق لخلْقه ؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد أو الحسد لمن توفرتْ لديه ، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقي عند المنعم سبحانه .

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التي خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله ، فدوْر الإنسان أنه أعمل عقله وفكره في المقوّمات التي خلقها الله ، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات ، ومهما تطورتْ هل ستصل إلى درجة : إذا خطر الشيء ببالك تجدْه بين يديك ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) ﴾

---

(١) أي : كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن ، كأن لم تنعم . [تفسير ابن كثير ٤١٣/٢] .

الحق سبحانه فى هذه الآية يريد أنْ يُربِّى الكفار ويُؤنِّبهم ، ويريد أن يُبَرّىء ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبلِّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْترٍ ، أو أتى بشىء من عنده ، بدليل أننى لو شِئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإنْ سأل متسائل : وكيف يذهب الله بوحى مُنزَّل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول ﴿ وَلَئِن شِئْنَا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء] بمعنى : لو شئْنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد بيان إمكانية ذلك ليُبرِّىء موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمر شىء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران] أنها ضد رسول الله ، وقَدْح فى شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أنْ يتحمَّل عنه ما يمكن أن يُفسد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندى أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذى فعل شيئاً ، فيأتى سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذى أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد فى قدرة الخالق سبحانه أن يسلب منَّا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقد الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ فى الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إنْ » ، وهى

تستخدم للأمر المشكوك في حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتي للأمر المحقق .

ثم يُوضِّح لنا الحق سبحانه أنه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)﴾

قوله تعالى ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٧)﴾ [الإسراء] أي : أنك لا تجد لك وكيلاً في أيِّ شيء إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فضلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعلن تحديه للعالمين :

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، وأسمعْ بها الناس جميعاً ؛ لأن القضية قضية تَحدٍّ للجميع .

﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] وهما الثَّقَلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذي هو مناطُ التكليف . وقد أرسل النبي ﷺ إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى

القرآن كما استمعت إليه البشر :

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. ②﴾ [الجن]

والتحدِّي معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحدَّاهم بشيء لا عِلْم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه ؛ لأنه لا معنى للتحدي في هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدَّيْتَ إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدَّى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدِّي في محلِّه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى ـ عليه السلام ـ العصا واليد ، وهي من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر ، وجاءت معجزة عيسى ـ عليه السلام ـ إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن قومه نبغوا في الطب ، وكانت معجزته ﷺ في البلاغة والفصاحة التي نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صِدْق رسالته ، لكن الآيات لا تُقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذي يختار الآيات التي تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صِدْق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزات في مجالات لا عِلْم لهم بها ، فكيف يتحدَّاهم الله في مجال لا نبوغَ لهم فيه ، وليس لهم دراية به ؟

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد ﷺ ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لَدُن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثتْ لرسول الله ليراها القوم الذين عاصروه ، ومثْل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردتْ من صادق معصوم ؛ لأن الهدفَ من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله في نفوس مَنْ شاهدوها ، فنبُوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكَوْنُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يُكلِّمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره ﷺ .

وفي القرآنُ خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوى يُنظِّم حركة الحياة ، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفكّ عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتي بمنهج فقط ، أما المعجزة فشيء آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد ﷺ فقد انفرد بأن تكون معجزته هي منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أنْ يُفسِح لهم جبال مكة ، ويُوسِّع عليهم الأرض ، وأنْ يُحيي لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : كان في القرآن غَنَاءٌ لكم عن كُلِّ هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إنْ كانت

الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته في البلاغة والفصاحة ليتحدَّى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب ؟

نقول : أولاً : إذا كان العرب الذين ارتاضوا على الملكة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدى ، فغيرهم مِمَّنْ اتخذ العربية صناعة لا شكَّ أعجز .

ثانياً : مَنْ قال إن المعجزة في القرآن في فصاحته وبلاغته فقط ؟

لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للأمة المتلقِّية للدعوة الأولى ، هؤلاء الذين سيحملون عِبْءَ الدعوة ، ويَسِيحُون بها في شتى بقاع الأرض ، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر .

فالغيبيات التي يخبرنا بها ، والكونيات التي يُحدِّثنا عنها ، والتي لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن ، وهو مُنزَّل على نبي أميٍّ ، وفي أمة أميّة غير مثقفة ، فهذه كلها نواحي إعجاز للعرب ولغيرهم ، وما زِلْنا حتى الآن نقف أمام آيات ، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها .

وفي الماضي القريب توصَّل العلم إلى أن الذرة أصغر شيء في الوجود ، وقد ذكر القرآن الذرة في مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ۝ ﴾ [الزلزلة]

وبتقدُّم وسائل البحث توصَّلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها ، ووجدنا في الكون ما هو أقل من الذرة ، فظنَّ البعض أن هذه لا ذكْر لها في القرآن ، وظنوا أنهم تصيَّدوا على القرآن مأخذاً ، ولو أمعنوا

النظر فى كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمى رصيداً فى كتاب الله حيث قال تعالى :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

والقرآن يقول (أصغر) لا صغير ، فلو فتتنا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً فى كتاب الله ، ألاَ ترى فى ذلك إعجازاً ؟

إذن : تحداهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] وأدخل الجنّ فى مجال التحدى ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مُفوَّه ، أو عبقرى عنده نبوغ بيانى شيطاناً يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادى عَبْقَر » ، لذلك لم يكتَفِ القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوة فى هذا الأمر .

ثم يقول تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] فالتحدى أنْ يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أنْ يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الأمر ، فمستحيل أنْ يأتُوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأن الواقع لا يقع مرتين .

إذن : المتصوَّر فى مجال التحدى أنْ يأتوا بمثله ، فلو قلت : هذا الشىء مثل هذا الشىء ، فلا شكَّ أن المشبَّه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقى المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أوْلَى .

فالحق سبحانه فى قوله : ﴿ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء ، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/ ١٨] .

لا ينفى عنهم أن يأتوا بقرآن ، بل بمثل القرآن ، فإذا كانوا لا يأتون بالصورة ، فهل يقدرون على الأصل ؟!

ثم يقول تعالى زيادة فى التحدى : ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)﴾ [الإسراء]

والظهير : هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

لأنه قد يقول قائل : إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد ، فقال لهم سبحانه : بل هاتوا كل ما لديكم من طاقات إبداعية وعبقريات بيانية ، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجن ، وتعاونوا جميعاً فى سبيل هذا التحدى ، حتى إذا كان فى أحدكم نقص أكمله الآخر .

لكن ، هل ظَلَّ التحدى قائماً على أنْ يأتوا بمثل القرآن ؟

المتتبع لهذا الموضوع فى القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يتنزَّل معهم فى القدر المطلوب للتحدى ، وهذا التنزُّل يدل على ارتقاء التحدى ، فبعد أنْ تحدَّاهم بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، تحدَّاهم بعشر سُور[(1)] ، ثم تحدَّاهم بسورة واحدة[(2)] ، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدى ، فلا شكَّ أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحديهم بمثل هذا القرآن .

وهذا التنزُّل الذى يفيد الارتقاء كما نجمع مثلاً بين المتناقضات ،

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣)﴾ [البقرة] .

فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التنزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدّى ، فليس الهدف منه تعجيز القوم ، بل أن نثبت لهم السواسية بين الخَلْق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هى القضية التى تُزعجهم وتقضّ مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صدْق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبِّرون لقتله .

ولذلك من غبائهم أن قالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن فى حدِّ ذاته ، بل على محمد الذى نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكانة ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

وسبحان الله ، إذا كان الخَلْق يختلفون أمام رحمة الله فى مسائل الدنيا التى لهم فيها أسباب وسَعْى واجتهاد ، فكيف بالأمر الذى ليس فى أيديهم ؟ كيف يريدون التدخُّل فيه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآنى ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) ﴾

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ،

والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعانى مختلفة ، فلا بُدَّ أن يصرف الأسلوب ويُقلِّبه على أكثر من وجه ، فالذى لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثالاً على ذلك قضية القمة ، وهى الألوهية ووحدانية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها فى معارض مختلفة هكذا : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

أى : فى السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربى ؛ لأنه يفتقد الملكة اللغوية التى يتلقّى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لَفسدتَا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإنْ كان معه آخرون ، والمنطق فى هذه الحالة يقول : لو كان فى السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن (إلاَّ) هنا ليس للاستثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لَفسدتَا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى مُنزَّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله

آخر لَذهبَ كل إلـه بما خلق ، واختصّ نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضُهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء للوجود ، فأيّهما يبرزه ؟ إنْ قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإنْ لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للألوهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أي : إنْ كان مع الله آلهة كما يدَّعي المشركون لَذهَب هؤلاء الآلهة إلى ذي العرش يُعاتبونه أو يُؤدِّبونه ، أو يُعاقبونه ؛ لأنه انفرد بالملْك من دونهم .

وبأسلوب آخر يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

ولم يأتِ مَنْ ينازعه هذه المكانة ، أو يدَّعيها لنفسه ، إذن : فقد ثبتتْ له هذه القضية إلى أنْ يُوجَد معارض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إنْ لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى : هَبْ أن جماعة انصرفوا من مجلس ، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود في مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فلم يدَّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هي لي ، أيشكُّ صاحب البيت أنها له ؟

نرى هذا التصريف أيضاً في أسلوب القرآن في مسألة ادعاء أن لله تعالى ولداً ، تعالى الله عمَّا يقول المبطلون علُواً كبيراً ، فيعرضها القرآن هكذا : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ

اللَّه .. ﴿٣٠﴾ [التوبة] فيردُ القرآن هذا الزعم بقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ .. ﴿١٠١﴾ ﴾[الأنعام]

وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل]

أي : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أنْ تأخذوا أنتم البنين ؛ لأنهم المفضلون حَسْب زعمكم ، وتتركون له تعالى البنات : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم] أي : قسمة جائرة .

وهكذا يُصرِّف القرآن أسلوبه ، ويُحوِّله ليقنع به جميع العقول ؛ ليناسب كل الطباع . وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة ؛ لذلك كان من التصريف في أسلوب القرآن استخدام المثل ، وهو تعبير مُوجَز ، يحمل المعاني الكثيرة وتتعشق لفظه ، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته .

فإذا أرسلتَ أحداً في مهمة أو جماعة ، فيمكنك حين عودتهم تقول لهم مستفهماً : (ماذا وراءك يا عصام ؟) هكذا بصيغة المؤنثة المفردة ، لأن المثل قيل هكذا ، حيث أرسل أحدهم امرأة تسمى عصام لتخطب له إحدى النساء وحينما أقبلتْ عليه خاطبها بهذه العبارة ، فصارت مثلاً[1].

وكما تقول لصاحبك الذي يتعالى عليه : (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) إذن : المثل يمتاز بأنه يثبت على لفظه الأول ولا يتغير عنه .

أما الحكمة فهي : قول شارد يقوله كل واحد ، وهو كلام يقلُّ لفظه ، ويجِلُّ معناه .

---

(١) ذكر ابن منظور في لسان العرب (مادة : عصم) هذا المثل ولكن للمذكر . ثم قال : « عصام هو اسم حاجب النعمان بن المنذر ، وهو عصام بن شهبر الجَرْميّ » وقد ذكره الزركلي في الأعلام (٤/٢٣٣) .

كما تقول : « رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أمك » .

« لا تُعلَّم العَوانُ الخمْرة »[1] .

« إن المنبتَّ[2] لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » أى : أن الذى يُجهد دابته فى السير لن يصل إلى ما يريد ؛ لأنها ستنقطع به ولا تُوصلُه .

ومن الحكمة هذه الأبيات الشعرية التى صارت حكمة متداولة :

وَمَنْ يكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُراً بِهِ المَاءَ الزُّلالاَ[3]

وقوله :

وأتْعَس النَّاسِ حَظّاً مَنْ تكونُ لَه نَفْسُ الملُوكِ وحالاتُ المسَاكين

وهَبْ أن ولدك أهمل دروسه طوال العام وعند الامتحان أخذ يجدّ ويَجْتهد ويُرهق نفسه ، هنا يمكنك أن تقول له : (قبل الرماء تُملأ الكنائن) والكِنَانة هى المخلاة التى تُوضَع بها السهام ، وهذه لا بُدَّ أنْ يُعِدّها الصياد قبل صَيْده لا وقت الصيد .

إذن : لأهمية المثل فى لغة العرب جعله القرآن لَوْناً أسلوبياً ، وأداة للإقناع ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

لأن الله تعالى يخاطب بالقرآن عقولاً مختلفة وطبائع متعددة ؛ لذلك لا يستحى أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته ليُقنِعَ الجميع كُلاً بما يناسبه .

---

(١) قال ابن برى : أى المجرِّب عارف بأمره ، كما أن المرأة التى تزوجت تُحسن القناع بالخمار . [لسان العرب ـ مادة : عون] .

(٢) الانبتات : الانقطاع . والمنبت فى الحديث : الذى أتعب دابته حتى عطب ظهره ، فبقى منقطعاً به . [لسان العرب ـ مادة : بتت] فلا هو وصل إلى غايته من مسفره ، ولا هو حافظ على دابته .

(٣) الماء الزلال : سريع النزول والمرِّ فى الحلق . وقيل : هو الماء العذب الصافى . [لسان العرب ـ مادة : زلل] .

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا قال ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر ؟

نقول : المراد بما فوقها . أى : فى المعنى المراد ، وهو الصِّغر . أى : ما فوقها فى الصِّغر لا أكبر منها .

ثم يأتى بالمعنى فى صورة أخرى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت]

إذن : يُصرِّف الله الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به ، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطى للجميع . بل يُشخِّص الداءات ويُحلِّلها ويعالجها بما يناسبها ؛ لذلك يأتى الأسلوب مختلفاً .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث النبوى الشريف ، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ السؤال الواحد ، وتأتى الإجابة مختلفة من شخص لآخر ، فقد سُئِل ﷺ كثيراً : ما أفضل الأعمال يا رسول الله ؟ فقال للسائل : « الصلاة لوقتها »[1] . وقال لآخر :

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

« بر الوالدين »[1] وقال لآخر : « أنْ تلقى أخاك بوجه طلْق »[2] .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعي حال سائله ، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هي مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء]

نعرف أن (إلاّ) أداة استثناء ، تُخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيدا ، والآية أسلوب عربي فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يَرْضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفي .

ثم يقول الحق سبحانه[3] :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾

---

(١) قال أبو عمرو الشيباني : أخبرنا صاحب هذه الدار ـ وأومأ بيده إلى دار عبد الله ـ قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها . قال : ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين » أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧٠) ، ومسلم في صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال لي النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٣) .

(٣) سبب نزول الآية : ذكر الواحدي في أسباب النزول (ص ١٦٨ ـ ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه تعنتهم حتى جلس إليهم ، ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدي بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْى الفعل فى المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه . أى : فى المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذى لا يتغيَّر ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أنْ يحكمَ على شيء حكْماً قاطعاً فى مستقبل هو لا يملكه ، فالذى يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذى لا تتناوله الأغيار .

لذلك ؛ فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصهُ تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّ

والعجيب أن الناس يتطلعون فى نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبَّذا ، لو حدث كذا لَتَمّت هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص فى النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كلُّ صاحب نعمة بما فيها من نقص ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عيْن حاسد ، أو حقد حاقد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .. وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة فى الآخرين ، وأنه التميمة التى تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبى[1] أن يمدح سيف الدولة[2] قال له :

شَخِصَ الأنامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ — مِنْ شرِّ أعْيُنِهِمْ بعَيْبٍ واحِدِ

أى : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعمل عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن)تفيد تأبيد النفى فى المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أمَّا صاحب الأغيار فليس له ذلك ، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتُكم (لن) فى الكذب ؛ لأنكم أبَّدتُم نَفْى الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفجِّر لكم النبى ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبى جهل وقال فى الخَنْدَمَة[3]

---

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) هو : على بن عبد الله بن حمدان التغلبى ، أبو الحسن سيف الدولة ، ولد فى ميافارقين بديار بكر عام ٣٠٣ هـ ، له أخبار ووقائع مع الروم كثيرة ، ملك واسط ودمشق وحلب وتوفى بها ودفن فى ميافارقين عام ٣٥٦ هـ عن ٥٣ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٣٠٣] .

(٣) الخندمة : جبل معروف عند مكة ، قال ابن برى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

وكان عكرمة بن أبى جهل قد قال قبل هذا عن أذان بلال بن رباح للظُّهر فوق ظَهْر الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبا الحكم (يقصد أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . [دلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٢٨] .

ما قال ، ثم رجع إلى النبى ﷺ مؤمناً معتذراً[1] وخرج محارباً مع خالد بن الوليد فى اليرموك ، وحين طُعِن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبِّر لأسلوب القرآن فى سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④﴾ [الكافرون]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر فى الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤﴾ [الكافرون] لينفى أيضاً احتمال العبادة فى المستقبل ، إذن : فليس فى الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصَار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ : كيف نفى القرآن الحدث فى المستقبل ؟ نقول : لأن المتكلّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذى يملك الأحداث ولا تُغيِّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبَّد النَّفى فيه .

---

(١) فرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئاً . فقال عكرمة : « والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره ، اللهم إن لك علىَّ عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » [الإصابة فى تمييز الصحابة [٢٥٨/٤ ، ترجمة ٥٦٣٢] .

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى قال : ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا .. ۝١٢﴾ [القمر]

فالتفجير : أن تعمل فى الأرض عملية تُخرج المستتر فى باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرج لك الماء من الأرض ، وتأخذ منه حاجتك فلا ينقص ؛ لأنها تعوض ما أُخِذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يغيض الماء فيها قليلاً .

أما الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما فى زمزم مثلاً ، ولا شكَّ أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول ﷺ ، فقالوا :

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول (جنة) أى : بستان أو حديقة من النخيل والعنب ؛ لأنهما الصِّنْفان المشهوران عند العرب ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۝٩١﴾ [الإسراء] أى : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويواصلون تحديهم لرسول الله ﷺ ، فيقولون :

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾

الزَّعْم : هو القول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطيَّة

الكذب ، قال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا .. ۝ ﴾ [التغابن]

وإنْ كانوا اتهموا رسول الله بالزعم ، فما هو إلا مُبلِّغ عن الله ، وناقل إليهم منهج ربه ، فإنْ أرادوا أنْ يتَّهموا فليتهموا الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن رسوله لا ذنبَ له ، وقد جاءوا بمسألة إسقاط السماء عليهم ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال عنهم :

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ۝ ﴾ [سبأ]

لذلك طلبوا من رسول الله أنْ يُوقِع بهم هذا التهديد .

و﴿ كِسَفًا .. ۝ ﴾ [الإسراء] أي : قِطَعاً ، ومفردها كسفة كقطعة .

ويقول تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء] أي : نراهم أمامنا هكذا مُقابلةً عياناً ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. ۝ ﴾ [الفرقان]

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد ؛ لذلك يقول الحق سبحانه ردّاً على لَجَج هؤلاء وتعنُّتهم : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .. ۝ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ[1] فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

البيت : هو المكان المعدّ للبيتوتة ، والزخرف : أى المزيّن ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة ؛ لأن كل زُخْرف من زخارف الزينة يطرأ عليه ما يُغيِّره فيبهت لونه ، وينطفىء بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذى لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورَوْنقه ، فإنْ كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

ونرى الذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاقَ الحضارات ، ويتبارَوْنَ فى زخرفة الصناعات يُلصقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب ؛ لتظلَّ محتفظة بجمالها ، كما فى الأطقم الفرنساوى أو الإنجليزى مثلاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : يكونْ لك سلّم تصعد به فى السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ، ورأوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) رقى : علا وصعد . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

وكأنهم يُبيِّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون في الأولى ، وكاذبون في الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذي أرادوا ما آمنوا ، وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ [الأنعام]

وانظر إلى ردِّ القرآن على كل هذا التعنت السابق : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي .. ۝٩٣ ﴾ [الإسراء] وكلمة (سبحان) كلمة التنزيه العُلْيا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله ؛ لأنها كلمة لا تُقَال إلا لله تعالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أنْ قالها أحد لأحد ، مع ما في الكون من جبابرة وعُتَاة ، يحرص الناس على منافقتهم وتملُّقهم ، وهذه كلمة اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان ، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد .

والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرون عليها ، وتحدى المختار في المثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تستطيع أن تفعل ذلك ، ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد]

نزلت هذه الآيات في أبي لهب ، وهو كافر ، ويحتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدرِي رسول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرآناً يُتلَى

ويُحفظ ويُسجَّل ، وفـيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيـموت كافراً ، وأن مصيره النار .

وهنا نقـول : أمَا كـان فى إمكان أبى لهب أنْ يُكذِّب هذا القـول ، فـيقـوم فى قـومـه مُنادياً بلا إله إلا الله ، وأن مـحـمداً رسـول الله ـ ولو نفَاقاً ـ وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟

لكن هذا لم يحدث ؛ لأن المتكلم هو الله ربُّ العالمين .

ومن هذا التحدى أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء مأخوذة من الصـفات ، إلا اسم واحد مأخـوذ للذات ، هو لفظ الجلالة (الله) ، فهـو علَم على الذات الإلهية لم يُؤخَـذ من صفة من صـفاته تعالى ، فالقـادر والغفور والحىّ القيـوم وغيرها من الأسمـاء مأخوذة من صفات ، إنما (الله) علَم على الذات الجامعة لكلِّ هذه الصفات

لذلك تحدَّى الخالق سبحانه جميع الخلْق ، وقد أعطاهم الحرية فى اختـيار الأسمـاء أنْ يُسمُّـوا أنفسهم أو أبنـاءهم بهذا الاسم (الله) ، ويعلن هذا التـحدى فى كـتابه الكريم وعلـى رؤوس الأشهاد يـقول : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم] ؟

ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أنْ يُسمِّيَ هذا الاسم ليظلَّ هذا التـحدى قائمـاً إلى قيـام السـاعـة ؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمـان به وبوجوده تعالى متغلغل حتى فى نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن هذه الكلمة كذب ، أو لا وجـودَ لها لأقدموا على التسـمـية بها دون أن يُبالُوا شـيئاً ، أمَـا وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحـد ، ويُجرِّب هذه التسمية فى نفسه ؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدرى ما هى .

لذلك ردّ الحق سبحانه على تعنُّت الكفار فيما طلبوه من رسوله ﷺ قائلاً : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] لأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حداً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهمْ :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجُّب أيضاً : أيطلبون هذه الآيات ، ولم يكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناءٌ لهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

هل ادعيْتُ لكم أنّى إله ؟! ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربى ، وأفعل ما يأمرني به ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

أى : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً ، هذه هى القضية التى وقفت فى حلوقهم : ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

والمتأمل في مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أنْ تتم إلا ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقِّي عن الله من وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع أنْ يتلقَّى عن القُوة العليا مباشرة ، فإذنْ : هناك مراحل : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

لكن الرسول البشرى كيف يُكلِّم الله ؟ لا بُدَّ أنْ نأتي برسول من الجنس الأعلى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً .. (٧٥) ﴾ [الحج] وهذا مرحلة ، ثم يصطفي رسولاً من البشر يتلقَّى عن الملَك كي يستطيع أنْ يُبلِّغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى : أنت إذا أردتَ إضاءة لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائي عالٍ ، هل يمكن أنْ تُوصِّله بهذه اللمبة ؟ لا لأنها ستحترق فوراً ، إذن : ما الحل ؟ الحل أنْ تأتي بجهاز وسيط يُقلِّل لك هذا التيار القوى ، ويعطى اللمبة على قَدْر حاجتها فتضيء .

كذلك الحق سبحانه يصطفي من الملائكة رسلاً يمكنهم التلقِّي عن الله ويصطفي من البشر رسلاً يمكنهم التلقِّي عن الملائكة ، ثم يُبلِّغ الرسول المصطفى من البشر بني جنسه . إذن : فماذا يُزعجكم في أنْ يكون الرسول بشراً ؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهي أمر طبيعي ؟

يقول تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ .. (٢) ﴾ [يونس]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[1] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا .. (١٥) ﴾ [يس]

إذن : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح ـ عليه السلام ـ ألم يَقُلْ له قومه : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

وقالوا : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ (٣٤) ﴾ [المؤمنون]

وقالوا : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾ [القمر]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر فى السُّنة المتبعة فى الرسل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالاً ليتمّ اللقاء بينكم ، وإلاَّ فلو جاء الرسول ملَكاً كما تقولون ، هل سترَوْن هذا الملك ؟ قالوا : لا هو مُستتر عنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ، وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوَّر لكم الملك فى صورة رجل ليؤدى مهمة البلاغ

---

(١) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه أنها مدينة انطاكية ، وكان بها ملك يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم . وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ورجحوا أنها قرية أخرى أو تكون أنطاكية مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انظر تفسير ابن كثير (٥٦٦/٣ ، ٥٧٠) .

عن الله ، وهكذا نعود من حيث بدأنا : لأنها الطبيعة التى لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام] إذن : لا داعى للتمحك والعناد ، ومصادمة الفطرة التى خلقها الله ، والطبيعة التى ارتضاها لخلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(قُلْ) أى : ردّاً عليهم : لو أن الملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين لَنزَّلنا عليهم ملَكاً رسولاً لكى يكون من طبيعتهم ، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ ، وهذا واضح فى حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين ليُعلِّم الصحابة : ما الإحسان ؟ ما الإيمان ؟ ما الإسلام . فيأتى جبريل مجلس رسول الله فى صورة رجل من أهل البادية ، وبعد أنْ أدّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد . فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم ليُعلِّمكم أمور دينكم »[1] .

شىء آخر يقتضى بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أُسْوة سلوك لقومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب .

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة ؟ وكيف يقتدى الناس بها إنْ كان الرسول ملكاً ؟

فالرسول عندما يُبلِّغ منهج الله عليه أنْ يُطبِّق هذا المنهج في نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بِنَجْوَة ، بل هو إمامهم في القول والعمل .

لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبِّق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر - رضى الله عنه - إذا أراد أن يُقنِّن قانوناً ويرى أنه سيتعب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذِّرهم من المخالفة : « فو الذى نفسي بيده ، مَنْ خالفنى منكم إلى شيء لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أطبِّقه على نفسي » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها في عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة : « حكمتَ ، فعدلْتَ ، فأمنت ، فنمْتَ يا عمر » ، وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحَواليْه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدى به ، فإنْ رأوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجرؤ أحد منهم على المخالفة ، وإنْ رأوْه منحرفاً فاقوه في المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدها تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب[1] .

ولقد رأينا في واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأسْوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن

(١) وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنهما : أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته ، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك [حلية الأولياء ١/ ٥٠] .

أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، في حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش في قصر ورثه عن أبيه أو جَدِّه ، وكأنه يُغلِظ على نفسه ويبغى الرفاهية لرعيته .

وكذلك رسول الله ﷺ وقد أتى بمنهج ، وهو في الوقت نفسه أُسْوة سلوك وقُدْوة ، فنراه ﷺ يحثّ الغنيّ على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإنْ توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُوَرَّثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين[1] ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه ﷺ .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا ما أحسَّ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم في كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إنْ جاء ملكاً فإن الأُسْوة لا تتمّ به ، فإنْ أمرنا بشيء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتجّ عليه : كيف وأنت ملَكٌ لا شهوةَ لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث، ما تركنا فهو صدقة » ، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧١١ ، ٣٧١٢) .

ومن هنا لا بُدّ أن يكون الرسول بشراً فإنْ حمل نفسه على منهج فلا عُذْر لأحد فى التخلُّف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى الاقتداء بسلوكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً وقُلْنا : هَبْ أنك رأيتَ فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً ؟ إنما لو رأيتَ فارساً على صَهْوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب الأعداء ، ألاَ تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن : لا تتمّ القُدْوة ولا تصح إلا إنْ كان الرسول بشراً ، ولا داعى للتمرُّد على الطبيعة التى خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(قُلْ) أى : رَدّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم على بشرية الرسول : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء]

والشهيد إنما يُطلَب للشهادة فى قضية ما ، فما القضية هنا ؟ القضية هى قضية تعنُّت الكفار مع رسول الله ﷺ ؛ لأنهم طلبوا منه مَا ليس فى وُسْعه . والرسول لا يعنيه المتعنتون فى شىء ؛ لأن أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فإنْ كانت شهادة الشاهد فى حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فهو كافيك هذا الأمر ؛ لأنه كان بعباده (خَبِيرًا) يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم من وراء هذا التعنُّت (بَصِيرًا) لا يخفى عليه شىء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

سبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دَلّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خاصّة بالمؤمن ، فبعد أنْ دلّه الله آمن وصدّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

أى : دللْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بأسلوبين قرآنيين يوضِّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة ؛ لأنه ﷺ لا يملكها ، وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

[الشورى]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة ؛ لأن هذه هى مهمته كمبلِّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه ؛ لأن الجهة مُنفكَّة أى : أن جهة الإثبات غير جهة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الروم]

فمرة : نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرِّر مثل هذه القضايا لكى تستقرَّ فى النفس الإنسانية ، وفى مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قوْلُ الحق سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة ؛ لأن النبي ﷺ في غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرَّمْي الذي أثبتته الآية ، وقد تولَّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلتْهم عن القتال ، وهذا هو الرَّمْي الذي نفاه الحق عن رسوله ﷺ[1] .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذي تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتي بالكتب ويضعها أمامه ويُقلِّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعتَ معه ما ذاكر لا تجدْه حصَّل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثْبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدي الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف] لكن يهدي العادلين .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف] .. لكن يهدي الطائعين .

---

(١) قال الواحدي النيسابوري في أسباب النزول (ص١٣٣) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت في رمي النبي عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين : شاهت الوجوه ، ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء » . وانظر الآثار المروية في هذا في الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٤٠ ، ٤١) .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] .. لكن يهدى المؤمنين .

إذن : بيَّن الحق سبحانه فى أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام]

نعود إلى (مَن) فى قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] قلنا : إن (من) اسم موصول بمعنى الذى ، واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذى) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذى ، التى ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتى . فتقول : مَنْ جاءك فأكرمْه ، ومَنْ جاءتك فأكرمْها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم ، ومَنْ جِئْنَكَ فأكرمْهُن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهى - إذن - صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) فى الآية : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] جاءت (مَنْ) دالّة على المفرد المذكر ، وهى فى نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث . فنقول : مَنْ يهدِهَا الله فهى المهتدية ، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غيره في مجال الهدى ، أما في الضلال فجاءتْ (مَنْ) دالَّة على الجمع المذكّر ؟

نقول : لأنه لاحظ لفظ (مَنْ) فأفرد الأولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

وهنا ملْحظ دقيق يجب تدبُّره : في الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

أما في الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابة خطّاً مُسْتقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً مُتعرّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي »[2] .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص (٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) والحاكم في مستدركه (٣١٨/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ ـ موارد الظمآن) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألْف مذهب ، وألف منهج ؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص فى الضلال . فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعى وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولاتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهى التى وضعتْ كُلَّ حَرْف فى موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَرَاء ومعاونين ومُعينين (مِنْ دُونه) أى : من بعده ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]

الحشْر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَى وُجوهِهم) هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على وجهه ؟ فقال ﷺ : « إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم »[1] .

وما العجب فى ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور]

ألم تَرَ الثعبان ، كيف هو سريع فى مشْيته ، خفيف فى حركته ، فالذى خلق قادر أن يُمشِيَ من ضلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحشر الناس ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم . قالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم . قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) ، والترمذى فى سننه (٣١٤٢) وحسَّنه .

المسـالة إرادة مريد لِيُوقع بهم غـاية الذِّلَّة والهوان ، ويـاليتـهم تنتهى بهم المهانة والمـذلَّة عند هذا الحدّ ، بل ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

هذا استطراق لوسـائل الإهانة ، ففضـلاً عن مَشْيـهم على الوجوه فهم عُمْى لا يرونَ شيئاً ، ولا يهـتدون ، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام ، ولك أنْ تتصوَّر إنسـاناً جمعت عليه كل هذه الوسائـل ليس في يوم عادي ، بل فى يوم البـعث والنشور ، فإذا به يُفَـاجأ بهوْل البـعث ، وقد سُدَّتْ عـليه جمـيع منافذ الإدراك ، فهـو فى قلب هذا الهَوْل والضجـيج ، ولكنه حائر لا يـدرى شيـئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفتـة على هذه الآية ، فقـد ورد فى القرآن كثـيراً : صُمٌّ بُكْم بهـذا الترتيب إلا فى هذه الآية جـاءت هكذا : (بُـكْمًا وَصُـمًّا) ومعلوم أن الصَّمَم يسـبق البكَم ؛ لأن الإنسان يحكى ما سمـعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يسـتطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهى ظاهرة اجتماعية ليستْ جنساً وليست دَماً .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الولد الإنجليزى إذا تربَّى فى بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس ؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فـما تسمعـه الأذن يحكيه اللسان . حتى العـربى نفسه الذي يعيش فـى بيئة عـربية ، إلا أنه لم يسـمع هذه الألفاظ الغـريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن فى هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحـشر كان المفـروض أن يسأل أولاً عمَّا يحـدث ، ثم يسمع

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجئ بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم في هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجارونهم ممَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] فينفي عنهم الرؤية ، وفي آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. (٧٥) ﴾ [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣) ﴾ [الكهف]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل في حال هؤلاء المعذَّبين في موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْيًا ليتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل في الحالَيْن : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء] مأواهم : أي : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أي : ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفيء ؟ أليس في ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل في الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو في حدِّ ذاته

لَوْنٌ من العذاب ؛ لأن استدامة الشيء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إلْف له ، فإنْ خَبت النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكَى لهم وآلم في تعذيبهم .

وهذا يُسمُّونه في البلاغة « اليأس بعد الإطماع » ، كما جاء في قول الشاعر :

فَأصبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَداةَ كَقَابِضٍ عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأصَابِعِ

وفي السجون والمعتقلات يحدث مثل هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتي له بكوب الماء حتى يكون على شفَتَيْه ، ويطمع في أنْ يبلّ ريقه ويطفيء غُلّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ في التعذيب .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

أي : ساعة أنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

---

(١) هو : كثير بن عبدالرحمن الخزاعي أبو صخر ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة ، أكثر إقامته بمصر ، أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة ، وكان عفيفاً في حبه . توفي ١٠٥ هـ (الأعلام للزركلي ٥/٢١٩) .

(٢) البيت لكُثيِّر عزة . انظر ديوانه (ص١٠٧) ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، تحقيق إحسان عباس . وقال شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) في كتابه : « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » تحقيق أكرم عثمان يوسف (ص ١٢١) « فإن مجرد قوله « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه ؛ لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعاً أدى إلى انتهاء مؤيس » .

وكذلك من ألوان العذاب التى قد يظنُّها البعض لَوْناً من الراحة فى جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبدِّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمةً بهم بل نكايةً فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

لأن الجلود إذا نضجتْ وتفحَّمتْ امتنع الحسُّ ، وبالتالى امتنعتْ إذاقة العذاب ، إذن : العلة من تبديل الجلود تجديدَ الحسِّ ليذوقوا العذاب إذاقةً مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحسَّ يأتى من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شيء للمخ .

فمثلاً : لو أشرت بأصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمض عينه قبل أنْ تلمسه ، وفسَّروا ذلك بما يسمونه العكس فى النخاع الشوكى ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحسِّ فى الإنسان أيْن هى ؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذتَ حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة ؟ ومَنْ أخبر بها الرسول ﷺ؟ إنه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآنى للعرب ولغيرهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا(١) أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾

(١) رفت الشيء رفْتاً : جعله رفاتاً ، أى : دقه وكسَّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/٢٧٠] .

(ذَلِكَ) أى : ما حدث لهم من العذاب الذى تستبشعه أنت (جَزَاؤُهُمْ) أى : حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً ، فإياك حين تسمع آيات العذاب هذه أنْ تأخذك بهم رأفة أو رحمة ؛ لأنهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذى يعطف قلوب الناس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب .

فهناك فَرْقٌ بين العقوبة فى وقت وقوع الجريمة ، وهى ما تزال بشعةٌ فى نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل فى القلوب ، فإنْ عاقبتَ فى هذا الجو كان للعقوبة معنىً ، وأحدثتْ الأثر المرجوّ منها وتعاطفَ الناس مع المظلوم بدلَ أنْ يتعاطفوا مع الظالم .

فحين نُؤخِّر عقوبة المجرم فى ساحات المحاكم لعدة سنين فلا شكَّ أن الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها ، وتتلاشى بشاعتها ، ويطويها النسيان ، فإذا ما عاقبتَ المجرم فلن يبدو للناس إلاَّ ما يحدث من عقوبته ، فترى الناس يرأفون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

وإلى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله ، فاحذر أنْ تأخذك بهم رحمة ، ففى سورة النور يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

ثم يُوضِّح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِآيَاتِنَا .. (٩٨)﴾ [الإسراء] والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيِّدة لصدْق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام .. وقد وقع منهم الكفر بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبَّروا الحكمة من خَلْق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به .

وهذا كله يدلُّ على نقص في العقيدة ، وخَلَل في الإيمان الفطرى الذى خلقه الله فيهم ، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرسول ، فدلَّ ذلك على خلل في التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)﴾ [الإسراء] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التى جاءتْ على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسبُون ، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : ﴿عِظَامًا وَرُفَاتًا .. (٩٨)﴾ [الإسراء] الرفات : هو الفُتَات وَزْنًا ومعنىً ، وهو : الشيء الجاف الذى تكسَّر ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : عظاماً ورُفَاتاً ؛ لأن جسم الإنسان يتحلَّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسَّر هذه العظام ، وتتفتتْ وتصير رفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٩٨)﴾ [الإسراء] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ فى ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أنْ ينكر البعث ، وعلى فَرْض أنه سيحدث فإنهم

سيكونون في الآخرة سادة ، كما كانوا سادةً في الدنيا . وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هي الحركة الحسية التي يمارسونها ، وبها يعيشون حياتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شيء حياةً تناسبه .

فمثلاً : علماء الجيولوجيا والحَفْريات يقولون : إن الأشياء المطمورة في باطن الأرض تتغيَّر بمرور الزمن ، وتتحول إلى موادّ أخرى ، إذن : ففيها حركة وتفاعل أو قُلْ فيها حياة خاصة بها تناسبها ، فليست الحياة قاصرة على حركتنا في الحياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التي يفهمها هؤلاء .

فالإنسان الحيّ مثلاً له في مظهرية أموره حالتان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته في النوم محكومة بقانون ، وحياته في اليقظة محكومة بقانون ، هذا وهو ما يزال حياً يُرزَق ، إذن : عندما نخبرك أن لك قانوناً في الموت وقانوناً في البعث فعليك أنْ تُصدِّق .

ألم تَرَ النائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكيها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث وألوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه في اليقظة ؟ حتى مكفوف البصر الذي فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو في اليقظة لا يرى ؟

نقول : لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك في النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة . ألاَ ترى الرجلين ينامان في فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة

مُحزِنة يصحو فيها مُكدّراً محزوناً ، ولا يدرى الواحد منهم بأخيه ولا يشعر به ، لماذا ؟

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحياته المستقلة التي لا يشاركه فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصاحبك في نصف ساعة ، في حين أن العلماء توصلوا إلى أن أقصى ما يمكن للذهن متابعته في النوم لا يتجاوز سبع ثوان ، مما يدلُّ على أن الزمن في النوم زمن مُلْغى ، كما أن أدوات الإدراك ملغاة ، إذن : فحياتك في النوم غير حياتك في اليقظة ، وكذلك في الموت لك حياة ، وفي البعث لك حياة ، ولكل منهما قانون يحكمها بما يتناسب معه .

وقد يقول قائل عن الرُّؤَى : إنها مجرد تخيُّلات لا حقيقةَ لها ، لكن يَرُدّ هذا القول ما نراه في الواقع من صاحب الرُّؤْيا الذي يحكي لك أنه أكل طعاماً ، أو شرب شراباً ما يزال طَعْمه في فمه ، وآخر ضُرِب ، ويُريك أثر الضرب على ظهره مثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصبَّب عَرَقاً ، وكأنه كان في عراك حقيقي لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُوضّح لنا أننا في النوم لنا حياة خاصة وقانون خاص ، لنأخذ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد الموت .

والعلماء قالوا في هذه المسألة بظاهرة المتواليات ، والمراد بها : إذا كانت اليقظة لها قانون ، والنوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة ، فبالتالي للموْت قانون أخفّ من قانون النوم ، وللبعث قانون أخفّ من قانون الموت .

وقد حَسَمَ القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص]

أى : كلُّ مـا يُقَال له شيء فى الوجـود هالك إلا الله تعـالى فهـو الباقي ، والهلاك ضدّه الحـياة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : لكل شيء مهما صَغُر فى كَوْن الله حياة خاصة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن فى علبة الكبريت هذه التى نضعها فى جيوبنا قوةَ تجـاذب بين ذراتها ، تصلح هذه القوة لتسيير قطار حول العـالم لمدة ست سنوات ، سبحـان الله .. أين هذه القوة ؟ إنهـا موجـودة لكنّنا لا نشعـر بهـا ولا ندركهـا ، إنما البـاحثـون فى معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجـاذبية التى تعلّمناها منذ الصِّـغَر والتى تعتمد على ترتيب الذرّات ترتيبـاً مُعيناً ، ينتج عنه المُوجَب والسالب ، فيتم التـجاذب فكانوا يضعون لنا بُرادةَ الحـديد فى أنبوبة ، ويُمرّرون عليهـا قضـيباً مُـمغْنَطاً ، فنرى برادة الحـديد تتحرك فـى نفس اتجاه القضيب .

إذن : في الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغتْ من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام وللرفـات حياةً ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أنْ صِرْتَ رُفـاتاً ، فشيء منك موجود يمكن أن يكون

نواةٌ لخلْقك من جديد ، وبمنطق هؤلاء المنكرين أيهما أهونُ فى الخَلْق : الخَلْق من شىء موجود ، أم الخَلْق ابتداءً ؟

وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

أى : فى علمه سبحانه عدد ذرات كل منّا ، وكم فى تكوينه من مواد ، لا ينقص من ذلك شىء ، وهو سبحانه قادر على جمع هذه الذرات مرة أخرى ، وليس أمره تعالى متوقفاً على العلم فقط ، بل عنده كتاب دقيق يحفظ كل التفاصيل ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال تعالى كذلك فى الرد عليهم : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ [ق] أى : فى خلْط وشكٍّ وتردُّد .

وقد ناقشنا منْ منكرى البعث الشيوعيين الذين قتَلوا فى أعدائهم ، وأخذوا أموالهم مُعاقبةً لهم على ما اقترفوه من ظلم الناس ، فكنت أقول لهم : فما بال الذين ماتوا من هؤلاء ، ولم يأخذوا حظّهم من العقاب ؟ وكيف يذهبون هكذا ويُفلتون بجرائمهم ؟ لقد كان الأوْلَى بكم أنْ تؤمنوا بالآخرة التى يُعاقب فيها هؤلاء الذين أفلتوا من عقاب الدنيا ، حتى تتحقق عدالة الانتقام .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ⑨⑧﴾ [الإسراء]

إنهم يستبعدون البعث من جديد ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يجارى هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ②⑦﴾ [الروم]

فإعادة شىء كان موجوداً أسهلُ وأهونُ من إيجاده مِنْ لا شىء ،

والحديث هنا عن بَعْث الإنسان ، هذا المخلوق الذى أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقى المخلوقات وهى أعظم فى الخَلْقِ من الإنسان ، وأطول منه عُمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فلا تَنْسَ أيها الإنسان أن خَلْقك أهونُ وأسهلُ من مخلوقات أخرى كثيرة هى أعظم منك ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ، ولم تتكر كما أنكرتَ ، يقول تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فمَنْ ينكر بَعْث الإنسان بعد أن يصير رفاتاً عليه أن يتأمل مثلاً الشمس كآية من آيات الله فى الكون ، وقد خلقها الله قبل خَلْق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهى تعطى الضوء والدفء دون أنْ تتوقف أو تتعطّل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهى تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسخَّرة لخدمتك ، ما تخلَّفتْ يوماً ولا اعترضتْ . فماذا يكون خَلْقك أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء]

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفى ، فاعلم أن الهمزة دخلتْ على شيء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : أيقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذى خلق السموات والارض قادر على أنْ يخلقَ مثلهم .

وقوله تعالى : (مِثْلَهُمْ) أى : يخلقهم هم ويُعيدهم من جديد ؛ لأن الخَلْق إنشاء جديد ، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ ، فالمثلية هنا فى أنهم مُعَادون ، أو يكون المراد (مِثْلَهم) أى : ليسوا هم ، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا فى الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد فى الآخرة وإنْ كان مثلهم فى التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شيء لا إرادةَ له ؛ لأنه الآن فى الآخرة التى سينادى فيها الخالق سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء]

أى : أن القيامة التى كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكَّ فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصِرُّون على الكفر مهما أتيتَ لهم بالأدلة ، ومهما ضربتَ لهم الأمثلة ، فإنهم مُصمِّمون على الإنكار ؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة ، الإيمان سيُسوِّى بينهم وبين العبيد ، وسيُقيِّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تأبَّوْا على الإيمان ، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرَّضوا لظلم من أحد فى الدنيا ؟ ألم يعتَدِ عليكم أحد ؟ ألم يسرق

منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعـاقبته ؟ لقد كان أَوْلَى بكم الإيمـان بالآخرة حـيث تتحـقق عدالة العـقاب وتنالون حـقوقكم مِـمَّنْ ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآنى إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ) أمر من الحق سبحانه وتعالى أنْ يقولَ لأمته هذا الكلام ، وكان يكفى فى البلاغ أن يقول النبى ﷺ لأمته : لو أنتم تملكون خـزائن رحمـة ربى .. لكن النبى هنا يحافظ علـى أمانة الأداء القرآنى ، ولا يحذف منه شيـئاً ؛ لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليلٌ على مدى صدق الرسول فى البلاغ عن ربه .

ومـعنى (خَزَائِن) هـى ما يُحـفظ بهـا الشىء النفـيس لوقتـه ، فالخزائن مثلاً-لا نضـع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : خَيْرات الدنيا من لَدُنْ آدم عليه السـلام وحتى قيام السـاعـة ، وإنْ من شىء يحدث إلى قيام السـاعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجـود بالفعل ، ظهر فى عالم الواقع أو لم يظهر : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] أى : أنه موجود فى عِلْم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدَّث الحق سبحـانه عن خلق الآيات الكونية فى السماء والأرض قـال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَـيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝١٠ ﴾ [فصلت]

نلاحظ أن قوله تعالى (وَبَارَكَ فِيهَا) جاءت بعد ذكر الجبال الرواسى ، ثم قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ۝١٠ ﴾ [فصلت] كأن الجبال هى مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض . والقوت : وهو الذى يتمّ به استبقاء الحياة ، وهذا ناشىء من مزروعات الأرض ، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخبار بما سيحدث ، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التى تُكوِّن الإنسان هى نفس عناصر التربة الزراعية التى نأكل منها .

لكن ، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذى جعله الله فى الأرض قبل أن يُخلَق الإنسان ؟

نقول : إن الجبال هى أساس التربة التى نزرعها ، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التى تراها أمامك جامدة هى فى الحقيقة ليست كذلك ؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة ، كل هذه عوامل تُفتِّت الصخر وتُحدث به شروخاً وتشققات ، ثم يأتى المطر فيحمل هذا الفُتات إلى الوادى ، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر ، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى ، وقاعدته إلى أسفل ، والوادى مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وهكذا ، فكُلُّ ما ينقص من الجبل يزيد فى الوادى ، ويُكوِّن التربة الصالحة للزراعة ، وهو ما يسمى بالغِرْيَن أو الطمى ؛ لذلك حدَّثونا أن مدينة دمياط قديماً كانت على شاطىء البحر الأبيض ، ولكن بمرور الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغِرْيَن أو الطمى الذى حمله النيل من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر ، والآن وبعد بناء السد وعدم تكوُّن

الطمى بدأت المياه تنحت فى الشاطىء ، وتنقص فيه من جديد .

إذن : فقوله تعالى عن بداية خَلْق الارض : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⑩﴾ [فصلت] كأنه يعطينا تسلسلاً لخَلْق القُوت فى الارض ، وأن خزائن الله لا حدودَ لها ولا نفادَ لخيراتها .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ⑩⑩﴾ [الإسراء]

أى : لو أن الله تعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح فى أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخِلَ وقَتَّر خوف الفقر ؛ لأنه جُبِل على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التى لا نفادَ لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يُحدث شيئاً .

والبَخل يكون على الغير ، فإنْ كان على النفس فهو التقتير ، وهو سُبَّة واضحة ومَخْزية ، فقد يقبل أن يُضيِّق الإنسانُ على الغير ، أما أنْ يُضيق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوُّره ؛ لذلك يقول الشاعر[1] فى التندُّر على هؤلاء :

يُقتِّر عِيسَى عَلَى نَفْسِه ... وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِد
فَلَوْ يستطيعُ لتَقْتِيرِه ... تنفَّسَ مِنْ مَنْخرٍ وَاحِدِ

(١) هو : الشاعر ابن الرومى ، وهو على بن العباس بن جريج ، أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد (ت ٢٢١ هـ) ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٣ عاماً . (الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧) .

ويقول أيضاً :

لَوْ أنَّ بيتكَ يا ابْنَ يوسف كُلَّه إبرٌ يَضِيقُ بِها فضاءُ المنْزِلِ

وأتاكَ يُوسُفُ يَستعِيرُكَ إبْرةً لِيَخيطَ قدَّ قميصه لَمْ تفْعَلِ[1]

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر على نفسه ؛ لأنه جُبِل على البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتِى خزائن السموات والأرض .

ثُمَّ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات ذُكِرَتْ في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أنْ يُلفت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر في كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء] أى : واضحات مشهورات بلقاء

---

(١) البيت لابن الرومى أيضاً .

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هى الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] هى الآيات التى أُرسِل بها إلى فرعون وقومه وهى : العصا التى انقلبتْ حية ، واليد التى أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل[1] ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التى ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق[2] الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ؛ لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بنى إسرائيل

---

(١) القُمَّل : صغار الذر والدبى . وهو شىء صغير له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . [لسان العرب ـ مادة : قمل] .

(٢) نتقه : رفعه من مكانه وحرّكه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] .

المعاصرين لرسول الله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ⓺﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجدُوا هم ، فكان نجاة السابقين نجاةً للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لأنهم هم الأمة التى لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلة سابقة بوَحْى السماء ؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ⓸⓷﴾ [الرعد]

لأن الذى عنده علْم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم علْم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم[2] .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤالَ حُجَّة واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات ـ سبق ذِكْرها ـ لكى يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرِّ

(١) يسومونكم : يذيقونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشِّم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام ، قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١٩٤/١] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجُّوا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رأوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا.. (٥٩)﴾ [الإسراء] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل واعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء ؛ لأن الكفر مِلّة واحدة فى كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ فى الحقيقة رغبة فى الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١)﴾ [الإسراء] أى : بعد أنْ رأى الآيات كلها : ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١)﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿مَسْحُورًا (١٠١)﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتى اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة فى السَّتْر ، كما نبالغ نحن الآن فى استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ظِلاً ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾ [النساء] فالظل نفسه مُظلَّل ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا في الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رَطباً بارداً ، لماذا ؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر في النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله (مسحوراً) تفيد أنه سحَرَ غيره ، أو سحره غيره ؛ لأن المسحور هو الذي ألَمَّ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله ﷺ فقالوا : ﴿إن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء] والمسحور بمعنى المخبول الذي أثّر فيه السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل رَدُّه وضَحْده .

فإنْ كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره ؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به ؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا ؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأتَّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرّ على العقل الواعي الذي يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خُلُق أبداً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أنْ اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الغَلَبة لموسى ، وخَرَّ السحرة ساجدين ، قال : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾

أي : قال موسى لفرعون ، والتاء في (علمْتَ) مفتوحة أي : تاء الخطاب ، فهو يكلّمه مباشرة ويُخاطبه : لقد علمتَ يا فرعون علْمَ اليقين أنني لستُ مسحوراً ولا مخبولاً ، وأن ما معي من الآيات مما شاهدتَه وعاينته من الله رب السموات والأرض ، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها ؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتُقوِّض عروشهم .

وقوله تعالى : ﴿ بَصَائِرَ .. (١٠٢) ﴾ [الإسراء] أي : أنزل هذه الآيات بصائر تُبصِّر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيُقبلوا على ذلك الرسول الذي جاء بآية معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه .

ثم لم يَفُتْ موسى ـ عليه السلام ـ وقد ثبتتْ قدمه ، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة ، وأن يُجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء] فقد سبق أنْ قال فرعون : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء] فواحدة بواحدة ، والبادي أظلم .

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كُلِّ خير ، وكأن الله تعالى أطْلَعَ موسى على مصير فرعون ، وأنه هالكٌ عن قريب . وعلى هذا يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإنْ فقد نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ، لأنك لو تأملتَ حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء دون أنْ يتعرَّض له أحد أو يُحاسبه أحد ، وهذا مُنْتَهى ما يتمناه السلاطين والحكام وأهل الجبروت في الأرض ، فماذا ينتظر القادة والأمراء إلاَّ أنْ تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مُطَاعاً ؟ وهذا كله ينعَم به المجنون .

وهنا قد يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قَيْد الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذى يتميز به ؟

نقول : أنت لا تدرى أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيُها العاقل لتمنيتَ أنْ تُجَنَّ !! ألاَ تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أنْ يعترضه أحد ، أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم فى وجهه ، ثم بعد ذلك لا يُحاسَب فى الآخرة ، فأىُّ عِزٍّ أعظم من هذا ؟

إذن : سَلْب أىِّ نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه ولا يستنبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فإياك أنْ تظنَّ أنك أفضل منه عند الله ، لا ليس منَّا مَنْ هو ابنٌ لله ، وليس منَّا مَنْ بينه وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذى حُرِم نعمة البصر عُوِّض عنها فى حواس أخرى ، يفوقك فيها - أنت أيها المبصر - بحيث تكون الكِفّة فى النهاية مُسْتوية .

واسمع إلى أحد العميان يقول :

عَمِيتُ جَنِيناً والذكاءُ مِنَ العَمَى ... فجئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعِلْمِ مَوْئِلاً
وَغَابَ ضِيَاءُ العَيْنِ للقلْبِ رافداً ... لِعِلْمٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حَصَّلا[1]

فحدِّث عن ذكاء هؤلاء وفطنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كُلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كُلَّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص في تكوينهم يُعوِّضهم عنه في شيء آخر عزاءً لهم عما فاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يُدرِكه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقْصٍ ما يحاولون تعويضه ويتفوقون في نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويُحدِثوا توازناً في حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية في مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألماني (شاخْت) وقد أصيب بقِصَرٍ في إحدى ساقيْه أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأثَّر ذلك في نفسه فصمَّم أنْ يكون شيئاً ، وأنْ يخدُمَ بلده في ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخُطّة

---

(١) هذان البيتان لبشار بن برد . وقد قيل له عندما أنشد قوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنَا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يُقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر حِسُّه وتذكو قريحته . ثم أنشدهم هذين البيتين . الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٢٧٦/١) .

التي تعينها في السِّلْم وتعويضها ما فاتها في الحرب ، فكان (شاخْت) رجل الاقتصاد الأول في ألمانيا كلها .

ويجب أن نعلم أن التكوين الإنساني وخَلْق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطي نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس ماكينة كالتي تصنع الأكواب مثلاً ، وتعطينا قطَعاً متساوية ، بل لا بُدَّ من الشذوذ في الخَلْق لحكمة ؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه ، ألا ترى الأولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين في اللون أو الطول أو الذكاء .. الخ ؟!

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم]

إنها قدرةٌ في الخَلْق لا نهاية لها ، وإبداعٌ لا مثيلَ له فيما يفعل البشر .

وهناك ملْمح آخر يجب أن نتنبه إليه ، هو أن الخالق سبحانه وتعالى جعل أصحاب النقص في التكوين وأصحاب العاهات كوسائل إيضاح ، وتذكُّر للإنسان إذا ما نسي فضْل الله عليه ، لأنه كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعم سبحانه ، فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكَّر نعمة الله ، وربما تجد المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبَّط في الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول : الحمد لله .

إذن : هذه العاهات ليستْ لأن أصحابها أقلُّ منَّا ، أو أنهم أهونَ

على الله .. لا ، بل هي ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين لتلفتهم إلى نعمة الله .

لكن الآفة في هذه المسألة أنْ ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بَلْوَاه على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول لهم : انظروا ماذا فعل الله بي ، ويتخذ من عَجْزه وعاهته وسيلةً للتكسُّب والترزّق ، بل وابتزاز أموال الناس وأَخْذها دون وَجْه حق .

وفي الحديث الشريف : « إذا بُليتم فاستتروا »[1] .

والذي يعرض بَلْواه على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ووالله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساقَ له رزقه على باب بيته . والأدْهَى من ذلك أن يتصنَّع الناس العاهات ويدَّعوها ويُوهموا الناس بها ليُوقِعوهم ، وليبتزّوا أموالهم بسيف الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذي ربَّى موسى منذ أنْ كان وليداً ، وفي وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى في قلب فرعون وزوجته فقالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً .. ⑨ ﴾ [القصص]

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢١١) بلفظ : « إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا » وقد أخرج الحاكم في مستدركه (٤/٢٤٤) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمي فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها ، فمن ألمَّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحته نُقِم عليه كتاب الله » قال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

فأين ذهبت عداوته وبُغْضه للأطفال ؟ ولماذا أحبَّ هذا الطفلَ بالذات ؟ ألم يكُنْ من البدهي أنْ يطرأ على ذِهْن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله في اليَمِّ لينجو من القتل ؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البدهية على ذهْنه ؟ اللهم إلا قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه لِيُبيِّن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُمْقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأسرة عنايةُ المربِّي الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ مِنْ بَنِيكَ عِنَايةٌ ... فَقَدْ كذبَ الرَّاجِي وَخَابَ المؤمِّلُ
فمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كافِرٌ ... وَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣)﴾

(فَأَرَادَ) أى : فرعون . (أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ) كلمة « استفزَّ » سبق الكلام عنها في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. (٦٤)﴾ [الإسراء] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالى ، يقوم المنَادَى ويخفّ من مكانه ، وهذا الصوت أو هذه الصَّيْحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى في لعبة الكراتيه مثلاً لِيُزعج الخصم ويُخيفه ، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغل الخَصْم ، وتأخذ

جزءاً من تفكيره ، فيقلّ تركيزه ، فيمكن التغلُّب عليه . ومن الاستفزاز قَوْل أحدنا لابنه المتكاسل : فِزْ . أى : انهض وخِفّ للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا ليأخذ بنى إسرائيل ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

فكان غباء فرعون أعان القدر الذى جاء به موسى ـ عليه السلام ـ ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بنى إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أنْ يُنفذ ما أراد .

كما يقولون فى الأمثال عند أهل الريف للذى هدّد جاره بأنْ يحرق غلّته وهى فى الجرن ، فإذا بالقدر يعاجله (والغلة لسه فريك) أى : يعاجله الموت قبل نُضْج الغلة التى هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومَنْ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِهِ) أى : من بعد موسى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) أغلب العلماء[1] قالوا : أى الأرض المقدسة التى هى بيت المقدس ، التى قال تعالى عنها : ﴿ يَـٰقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[2] الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة] فكان ردّهم على أمر موسى بدخول بيت المقدس : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ[3] وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة]

وقالوا : ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة]

لكن كلمة (الارض) هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف (اسْكُنُوا الأَرْضَ) دون أنْ يُقيِّدها بوصف ، كما نقول : أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردتَ أنْ تُسكِنَ إنساناً وتُوطِّنه تقول : اسكن أى : استقر وتوَطَّن فى القاهرة أو الأسكندرية مثلاً ، لكن اسكن الأرض ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٠٦٧/٥) : « أى أرض الشام ومصر » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٧/٢) : « قال ابن عباس : هى الطور وما حوله . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وعن ابن عباس أيضاً قال : هى أريحاء وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين ، وفى هذا نظر لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس ، إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس » .

(٣) ذكر كثير من المفسرين مهنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع . وهذا شىء يستحى من ذكره . ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » قاله ابن كثير فى تفسيره (٣٨/٢) .

كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل ؟! لا بُدَّ أن تُخصِّص لي مكاناً اسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) هكذا دون تقييد بمكان معين ، لينسجمَ مع آيات القرآن التي حكمتْ عليهم بالتفرُّق في جميع أنحاء الأرض ، فلا يكونَ لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. ١٦٨ ﴾ [الأعراف]

والواقع يُؤيد هذا ، حيث نراهم مُتفرِّقين في شتَّى البلاد ، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمَّعون فيها ، ولا يذوبون في الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤ ﴾ [الإسراء]

والمراد بوَعْد الآخرة : هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله ﷺ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ٥ ﴾ [الإسراء]

فقد جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم في المدينة ، وفي بني قريظة وبني قَيْنُقاع ، وبني النضير ، وأجلاهم إلى أذْرِعَات بالشام ، ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفسادة الثانية لبني إسرائيل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[1] مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ٧ ﴾ [الإسراء]

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . مُتَبَّر : اسم مفعول أي مُدمَّر مُهلَك . [القاموس القويم ١/ ٩٧] .

وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم في شتيت الأرض ؟ لا بُدّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

أى : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

الحق من حقّ الشيء . أى : ثبت ، فالحقّ هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فإنْ رأيت في عَصْر من العصور خَوَراً يصيب أهل الحق ، وعُلُواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو علُوّ الزَّبَد الذى يعلو صفحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقى به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكث فى الأرض الماء الصافى الذى ينتفع الناس به فى الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الأعلى الذى لا تتناوله الأغيار .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب فى ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدَّم عليه شىء يوضِّح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف ، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يُسبِق الضمير بشىء ، كما سُبِق بمرجع فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير فى (بِمِثْلِهِ) إلى القرآن الذى سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشىء يرجع إليه ، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيِّناً لا يختلف فيه اثنانِ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يُختلَفُ عليه .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى : القرآن ؛ لأنه شىء ثابت مُتعيِّن لا يُختلَف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكأن الحق سبحانه كان كلامه ـ وهو القرآن ـ محفوظاً فى اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يأتىَ زمان مباشرة القرآن لمهمته ،

فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ①﴾ [القدر]

وهذا هو المراد من قوله (أَنْزَلْنَاهُ) ثم نُنزِّله مُنَجَّماً حَسْبَ الأحداث فى ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها ، فكلما حدث شيء نزل القسط أو النجم الذى يعالج هذه الحالة .

و ﴿أَنزَلْنَاهُ .. ⑩⑤﴾ [الإسراء] أى : نحن ، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذى حفظه فى اللوح المحفوظ ، وهو الذى أنزله ، وأنزله على الأمين من الملائكة الذى اصطفاه لهذه المهمة .

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ⑲③﴾ [الشعراء] أى : جبريل ـ عليه السلام ـ الذى كرَّمه الله وجعله روحاً ، كما جعل القرآن روحاً فى قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ⑤②﴾ [الشورى]

وقال عنه أيضاً : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲﴾ [التكوير]

والكريم لا يكتم شيئاً مما أوحى إليه ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ㉑﴾ [التكوير]

هذه صفات جبريل الذى نزل بالوحى من الحق سبحانه ، ثم أوصله لمن ؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ㉒ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ㉓ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ㉔ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ㉕﴾ [التكوير]

إذن : فالقرآن الذى بين أيدينا هو هو الذى نزل من اللوح المحفوظ ، وهو الحق الثابت الذى لا شكَّ فيه ، والذى لم يتغيَّر منه حرفٌ واحدٌ ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] الأولى كانت : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نزل بها كلها ثابتة ، وكلها حقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شكٌ ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥) ﴾ [الإسراء] أى : مضمونه ، وما جاء به القرآن هو أيضاً حقٌّ ثابت ؛ لأن القرآن نزل معجزة ، ونزل كتاب منهج ، معجزة حق لأنه تحدّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللغة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شىء فى منهج القرآن أنّه تكلّم عن العقائد التى هى الأصلُ الأصيل لكل دين ، فقبل أنْ أقول لك : قال الله ، وأمَر الله لابُدَّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَن الرسول الذى بلَّغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السُّلوكيات .

إذن : تعرَّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرَّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كُلُّ هذا فى العقائد ؛ لأن الإسلام حرصَ أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة فى مكة تُركِّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربِّىَ فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزِّمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلْقِى زمام حركته إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدَّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلِّغ عن الله .

وفى القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسَخ بشريعة أخرى ؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

إذن : نزل القرآن بما هو حقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حقٌّ ثابت لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنْ اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَن اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفي طي ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير على مَرِّ العصور ، ففي ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف في استعمال الحق ، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف في استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بنى سويف للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذى ادعَوْا السبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذى تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامي ثابت وموجود في سُنّة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذى شكا إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل في بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم الرسول في هذه المسألة ؟

هذا الرجل له حَقٌّ في النخلة ، فهي ملْكٌ له لكنه تعسَّف في استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذى سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس ؟

أضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات فى معنى : (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أى : وعلى الحق الذى هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أى : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط فى التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدِّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبشِّر بالجنة وتُنذِر بالنار فى مُتَّسَع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل فى مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) ﴾ [الكهف]

أى : مُهلكها حُزْناً على عدم إيمانهم ، وفى آية أخرى قال :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العِبْءَ عن رسوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه فى دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان .

لكن حِرْص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولى عليه لخَّصها فى قوله : « والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

فالنبى ﷺ كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا فى وجه دعوته كان إلى آخر لحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً »[2] .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان ، عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم علىَّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْل هؤلاء حال كفرهم فى معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكِّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

معنى (فَرَقْنَاهُ) أى : فصّلناه ، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث (عَلَى مُكْثٍ) على تمهُّل وتُؤدَة وتأنٍّ .

وقد جاءت هذه الآية للردّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

وأول ما نلحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هُمْ فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن ؟ وها هم الآن يُقِرُّون بأنه نزل عليه ، أى : من جهة أعلى ، ولا دَخْلَ له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذى نزل عليه القرآن .

ثم يتولّى الحق سبحانه الردّ عليهم فى هذا الاقتراح ، ويُبيِّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

١ - : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

(كَذَلِكَ) أى : لنزلناه كذلك على الأمر الذى تنتقدونه من أنه نزل مُفَرّقاً مُنَجّماً حسْب الأحداث ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. (٣٢)﴾ [الفرقان] لأن رسول الله ﷺ سيتعرض لكثير من تعنّتات الكفار ، وسيقف مواقف مُحرجة من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو فى كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفى نزول الوحى عليه يَوْماً بعد يَوْم ، وحسْب الأحداث ما يُخفّف عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعانى من مصاعب ومَشَاقّ الدعوة ، وفى استدامة الوحى ما يصله دائماً بمَنْ بعثه وارسله ، أما لو نزل القرآن جملةً واحدة لكان التثبيت ايضاً مرة واحدة ، ولَفقد رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحى ، وهذا هو الجانب الذى يتعلق فى الآية برسول الله .

٢ - ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] أى : نَزّلْناه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشىء . كما نقول : رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة فى التنزيل تُيسّر للصحابة حِفْظ القرآن وفَهْمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القَدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسَّر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه الميْزَة خاصة بالصحابة الذين حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجزِّىء القرآن للحفظة ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ اللوح تلو الآخر .

٣ - ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين

سيعترضون عليه ، ويحاولون أن يستدركوا عليه أموراً ، وأن يتهموا رسول الله ، فلا بُدَّ من الردّ عليهم وإبطال حُجَجهم في وقتها المناسب ، ولا يتأتّى ذلك إذا نزل القرآن جملة واحدة .

(ولاَ يَأْتُونكَ بمثَلٍ) أي : بشيء عجيب يستدركون به عليك (إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) أي : ردّاً عليهم بالحق الثابت الذي لا جدالَ فيه .

وإليك أمثلة لردّ القرآن عليهم ردّاً حيّاً مباشراً .

فلما اتهموا رسول الله وقالوا : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء] ردَّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] والمسحور لا يكون أبداً على خُلق عظيم .

ولما قالوا : ﴿مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾﴾ [الفرقان] يردُّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان]

فليس محمد ﷺ بدعاً في هذه المسألة ، فهو كغيره من الرسل الذين عُرفت عنهم هذه الصفات ، وفي هذا ما يؤكد سلامة الأسْوة في محمد ﷺ ، وأنه بشر مثل الذين أرسلنا إليهم من قبله ، إنما لو كانت في محمد خاصية ليست في غيره ربّما اعترضوا عليها واحتجُّوا بها .

لذلك كان من أدب النبي ﷺ مع ربه ومع صحابته أنه قال : « إنما أنا بشر يرد عليَّ - أي بالوحي - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

فانظر إلى أىّ حدٍّ كان تواضعه ﷺ ؟

ولما اتهموا الرسول ﷺ ، فقالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود]

ثم يتنزّل معهم فى هذا التحدى ، ويترأف بهم : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يناقشهم فى هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والنموذج العالى للحوار : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود]

وفى آية أخرى يقول : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدّث عن نفسه يقول (أَجْرَمْنَا) وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجرام ، بل يقول : (وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

هذا كله من الحق الذى جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملةً واحدة ، أكان من الممكن الردُّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا ؟

ولئنْ كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله ﷺ وتبرئة ساحته فى مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع ، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً

لا يتغير إلى يوم القيامة ، ولن يُنسَخ منه حرف واحد كما حدث في الكتب السابقة عليه .

فإن نظرتَ إلى العقائد وجدتَ الكلام فيها قاطعاً لا هوادةَ فيه ، يأتى هكذا قَولاً واحداً ، فالله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن الملائكة والبَعْث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف في الحديث عن العادات التى ألفها الناس فى حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطُّف وتدرُّج ، ولا يناسبها القصْر والقَطْع . ألم تَرَ إلى المشرّع سبحانه حينما أراد أنْ يُحرِّم الخمر ، كيف تدرّج فى تحريمها على عدة مراحل حتى يجتثَّ هذه العادة التى تحكّمتْ فى نفوس الناس وتملّكتهم ، أكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة ؟

انظر كيف لفتَ أنظارَ القوم بلُطْف إلى أن في الخمر شيئاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً[1] وَرِزْقاً حَسَناً .. (٦٧) ﴾ [النحل]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكأن الله يُبيِّت للخمر شيئاً . لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السُّكَر فلم يَصِفْه بالحُسْن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً في الخمر ؛ لأنه يتلف نعمة الله ويُفسدها على أصحابها .

ثم يُحوِّل هذه المسألة إلى عظة وإرشاد ، فيقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) السكر : كل ما يسكر أى الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذى لم تمسَّه النار وهو غير مسكر . والسَّكَر أيضاً : الخل . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

وهكذا قرّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالأمر ما زال عظةً ونصيحة لا تشريعاً مُلْزِماً ، إلا أنه مهّد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلّى وهو مخمور لا يدرى ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه مَنْ بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى[1] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء]

وبذلك أطال مدّة الامتناع عن شُرْب الخمر ، فالصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذاً لا بُدَّ من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عوَّدهم الامتناع ودرَّبهم على الصبر عن هذه الآفة التى تمكّنَتْ منهم . ثم يتحيَّن الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم فى مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبتْ الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالتْ دماؤهم ، وعندها ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه[2] :

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً فقرأ : قل يأيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٥٠٠) . ثم قال : « هكذا رواه ابن أبى حاتم وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكى به ، وقال : حسن صحيح » .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى النساء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] ، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادى : لا يقربنّ الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً . فنزلت هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة] . قال عمر : انتهينا » . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١١٨) .

يا رسول الله بيِّن لنا في الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحي على رسول الله بالحكم القاطع :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التي تمكَّنتْ من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة ؟

إن الحق تبارك وتعالى بنزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث ، كأنه يُجرى مشاركة بين آيات التنزيل والمتفعلين بها الذين يُصِرّون على تنفيذ مطلوباتها ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال ، مع أنه ﷺ قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال ، كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه]

إذن : وراء نزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حكَم بالغة يجب تدبُّرها ، هذه الحِكَم ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملةً واحدةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] آمنوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نَهْى . والأمر والنهى نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهى أنْ تطلبَ من الأدنى ألاَّ يفعل ، فإنْ كان الطلب من مُساوٍ لك فهو التماس ، وإنْ كان إلى أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحىّ العبارة ؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهى ، فهل نقول فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ..﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] أنها للتخيير ، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا ، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً ؟

نقول : الأمر والنهى هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال : ذاكر أو لا تذاكر ، أنت حر ؛ لا شكَّ أنك لا تقصد النهى عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة .

فقوله : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] للتسوية ، كما قال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذى يفعل الأمر أو النهى يكون طائعاً ، بل المراد هنا التهديد أو التسوية ، فسواء آمنوا أو كفروا ؛ لأن الحق سبحانه جعل في ذلك عزاءً لرسوله ﷺ فى إيمان أهل الكتاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : اليهود والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية ، واستمعوا للتوراة والإنجيل ، ونقلوها إلى غيرهم من المعاصرين للقرآن ، فهؤلاء شاهدون بأن الرسول حَقٌّ بما عندهم من بشارة به في التوراة والإنجيل ؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون عِلْم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[1] ، وكان من علماء اليهود ، وكان يعلم أوصاف رسول الله وزمن بَعْثته ؛ لذلك قال : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد[2] .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلي ٤/٩٠) .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة] . قال القرطبي : ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدرى ما كان من أمه . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٩٤) .

ولما اختمر الإسلام فى نفسه ذهب إلى رسول الله وصارحه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْتٌ[١] فإن أعلنتُ إسلامى الآن قالوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا فأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فإذا بهم يذمونه ويتهمونه بأخسِّ الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أقُلْ لك إنهم قوم بُهْتٌ[٢] .

إذن : ففى إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه فى كتبهم وعرفوا موعد بعثته وأنه حق ، فى إيمان هؤلاء عَزَاءٌ لرسول الله حين كفر به قومه وكذَّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

ونحن مُكْتفون بشهادة هؤلاء ؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التى تلقَّوْهَا ، فحينما بشَّرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يُحرِّفوها ، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبى الجديد الذى سيظهر فيها ، لقد كانوا يقولون لكفار مكة : لقد أظلَّ زمان نبى جديد نتبعه قبلكم ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم .

---

(١) البهتان : الكذب والافتراء . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

إلا أن الله أبقى للحق خلية ، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ، وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] أى : القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء]

كلمة (يَخِرُّونَ) توحى بأنهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف ، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين ؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر الإيمان فى نفوسهم . ليس ذلك وفقط ، بل ويخرون (لِلأذْقَانِ) جمع ذَقَن ، وهى أسفل الفكّ السفلى ، ومعلوم أن السجود يكون على الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) ﴾

أى : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذى وَفَّى بوعده فى التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حقق لنا وَعْده وأدركناه وآمنا به ، وكان هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) ﴾

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذى

نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به . أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء] فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(ادعُوا) اذكروا ، أو نادوا ، أو اطلبوا (الله) علَم على واجب الوجود سبحانه ، ومعنى : علَم على واجب الوجود أنها إذا أُطلقَتْ انصرفتْ للذات الواجبة الوجود وهو الحق سبحانه ، كما تُسمِّي شخصاً ، فإذا أُطلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى .

والأسماء عندنا أنواع كثيرة : إما اسم ، أو كُنْية ، أو لَقَب .

الاسم : وهو أغلب الأعلام ، ويُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به .

والكُنْيــة : وتُطلَق على الإنسان ، وتُسبق بأب أو أم أو ابن أو بنت ، كما تقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب : وصف يُشْعِر بالمدح أو بالذم ، كما تقول : الصِّديق ، الشاعر ، الفاروق .

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفه وَصْفاً يُعْرف به ، كما يحدث أن يألف شخص أن يسمي أولاده جميعاً : محمد. فالتسمية في هذه الحالة لا تُشخِّص ولا تُعيِّن المسمَّى ؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول : محمد الكبير . محمد الصغير . محمد المهندس . فإذا أُطلق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنَّا نحن نُسمِّي أولادنا ؛ فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التي قال عنها : الأسماء الحُسْنى ، وكلمة (حُسْنى) أفعل تفضيل للمؤنث ، مثل : كبرى . والمذكر منها أحسن . لكن لماذا وَصَف أسماءه تعالى بالحسنى ؟

الاسم يُبيِّن المسمَّى ، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمَّى الذي أُطلقت عليه ، فقد نُسمِّي شخصاً « سعيد » وهو شقي ، أو نسمي شخصاً « ذكي » وهو غبي . وهذا ليس بحَسنٍ في الأسماء ، الحسَن في الاسم أنْ يطابق الاسم المسمَّى ، ويتوفَّر في الشخص الصفة التي أُطلقت عليه ، فيكون الشخص الذي سميناه « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حسناً ، لكنه لا يأخذ الحُسْن الأعلى ؛ لأن الحُسن الأعلى لأسماء الله التي سَمَّى بها نفسه ، فله الكمال المطلق .

فهذه - إذن - لا تتأتَّى في تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف ؛ لذلك قلنا :

وأَقْبَحُ الظُّلْم بَعْدَ الشِّرْكِ منزلةً   أنْ يظلم اسمٌ مُسمَّى ضِدّه جُعِلاَ
فَشَارِعٍ كعِمَاد الدين تَسْمِيةً   لكنَّه لعِنَادِ الدِّينِ قَدْ جُعِلاَ

فالاسم قد يظلم المسمَّى كما حدث أنْ سَمَّوْا الشارع (عماد الدين) ،

وهذا الشارع كان فى الماضى بُؤْرَة للفسْق والفجور ، وما أبعده سابقاً عن هذه التسمية .

فلفظ الجلالة (الله) علَم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطلقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول : فلان العزيز فى قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمَنْ يتصل به ، إنما لو قُلْت : النافع على إطلاقه فهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك ؛ حلَّتْ الصفات محلَّ اسم الذات (الله) ؛ لأنها إذا أُطلقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فأسماءُ الله الحُسْنى هى فى الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول فى مقابله الذليل ، والحيّ اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعنى يُعزّ غيره ، ومقابلها المذلّ ، والضّارّ مقابلها النافع ، والمحيى مقابلها المميت وهكذا .. إنْ وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسمٌ لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند الستّار وهى صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول الفضّاح ، لماذا ؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أنْ يتخلّق خَلْقه بهذه الصفة ، وأنْ يُربِّب صفة الستر عند الناس للناس ، فلو علم الناس عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا فى كل ما يأتى من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة فى الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطى للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير ؛ لذلك الله تعالى يُعصَى ويحب أن يُستَر على عبده العاصى ؛ لكى يستمر دولاب الحياة ؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبى ﷺ ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الذِى مَا سَاءَ قَطُّ   وَمَنْ لَـهُ الحُسْنَى فَقَـطْ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه حتى تستمر حركة الحياة ؛ لأن الإنسان ابنُ أغيار ، وقلبه سريعاً ما يتقلبُ ، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيَّرْتُ لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كُلٌّ منّا بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أى : لو تكشفتْ الأسرار ، وعرف كُلٌّ منكم عَيْب أخيه ما دفنتم مَنْ يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] فاختار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدلُّ على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كل صفات الكمال فيه ، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر فى القدرة ، والحكيم فى الحكمة ، والقابض فى القبض ، والعزيز فى العزّة . فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك فى الحديث النبوى الشريف : « كُلُّ شىء لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ـ أو قال : أقطع » .

لماذا ؟ لأنك حين تُقدِم على أيِّ فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ؛ إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبل على العمل لا تَقُل : يا حكيمُ يا قادرُ يا عليمُ ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفي أن تقولَ في الإقدام على الفعل : باسم الله . لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكلِّ صفات الكمال .

﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار ؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهِر هذه الصفة لعباده حتى في أسماء الجبار والقهار ؛ لأنها من خَدَم الرحمة ومن أسبابها ؛ لأن العبد إذا عرف لله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكأنه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة] لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل . وفي الأثر : « القتل أنفَى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذي يقهره الله مرحوم أيضاً ؛ لأنه ما دام قال : أنا قهار . فاحذرني ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم (الرحمن) لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة في

حركة الحياة ، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهيّ فى دنيا الناس أنْ يعيشَ المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هى الغالبة فى كل التشريع ، وهى السِّمَة العامة ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ ﴾[الرحمن]

فالقرآن الذى نزل لِيُنظِّم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ ﴾ [الرحمن] والآلاء هى النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ ﴾ [الرحمن] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التى تدلُّ على النعمة ؟

ولو تدبَّر القوم ما اعترضوا ؛ لأن فى النار والتحذير منها والتخويف بها نعمةً ، كأن القرآن يقول لك : إياك أنْ تفعل ما يُوجِب النار والشُّواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إنْ لم يُقدِّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله (الرحمن) فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ۝٥٩ ﴾ [الفرقان]

أى : بعد أن خلق الخلْق كله بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش ؛ لأن الاستواء على العرش يعنى أن كل شىء تَمَّ له سبحانه خلْقاً وإيجاداً ، وانتهى إلى الجلوس على العرش ، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أنْ يستتبّ لهم الأمر ، فجلوس الملك على العرش يعنى أنه الأوحد الذى لا يعارضه أحد .

فالحق سبحانه يُنبِّهنا بقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان] واختار صفة الرحمة ليُوحِى لنا أن قعوده على العرش لا يعنى القَهْر والجبروت ، إنما قعد على عرشه رحمةً بكم ، قعد على العرش ليُنظِّم حياتكم ، ويرحم بعضكم ببعض ، فتسعدوا بالحياة ، فالاستواء هنا لا استواءَ قهر وغلبة ، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم .

وفى آية أخرى قال : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش فى سبعة مواضع فى كتاب الله ، نظمها الناظم فى قوله :

وَذِكْرُ استْواء الله فى كلماته ... علَى العَرْشِ فى سبْعِ مَوَاضِعَ فَاعْدُدِ
فَفِى سُورَةِ الأعرافِ ثمة يُونُسٍ ... وَفِى الرعْدِ مع طَه فَلِلْعَدِّ أكدِ
وَفِى سُورة الفُرْقانِ ثمة سَجْدة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهَمُوا فَهْم مؤيّدِ

وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هى فى خدمة رحمانيته ، لأنه يُخوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا فى المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله فى الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهى - إذن - الرحمانية المستولية والسمة العامة لمنهج الله فى الدنيا والآخرة .

وفى الحديث « فى آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة... »[1] ولم يقُلْ : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا آثر صفة الجبار فى مجال المغفرة ؟

قالوا لأن المغفرة تُوحِي بوجود ذنب ، والذنب يقتضى العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلَّبتْ صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لكِ أيتها الصفة ، لكن نستسمحك فى أن نشفع فى هؤلاء ، فكأن صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسِّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين[2] فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى ، أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً .. وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم » قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/٦٥) : « رواه البيهقى وإسناده مقارب » .

(٢) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِض علىّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون . ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجيء النبى ومعه العصابة ، والنبي ومعه الخمسة والستة ، والنبى ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص١١٩) .

تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] فأىُّ اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حُسْنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإنْ أردتَ علْماً فقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ : يا قوى قَوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فَقُلْ : يا عزيز أعزَّنى وهكذا .. فإن أردتَ الاختصار فقُلْ : يا الله . تكفيك كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ[1] بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة (وَلاَ تَجْهَرْ) فالجهر منهيٌّ عنه ، وكذلك (وَلاَ تُخَافِتْ) أى : لا تُسرَّها بحيث لا يَسْمعك من خلفك ، وهذا منهيٌّ عنه أيضاً . فكلاَ الطرفين مذموم ، وخَيْر الأمور الوسط .

ونُوضِّح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهياً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أوْلَى ، فلا يليق أبداً رَفْع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسبِّبه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف]

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة في الميكروفون تلزم الناس بالإنصات ، وتُوقِعهم فى الإثم والحرج ، أو تعطل مصالحهم ،

---

(١) خافت الرجل بصوته : لم يرفعه . وخافت بقراءته أو بصلاته : لم يرفع صوته بها .

ولعل غيرك فى هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستغفر ، أو يُسبِّح أو يصلى ، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك ؟ هذا لا يجوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حُرٌّ فيما يتنفّل به ، ولا تكُنْ من الذين قال الله فى حقهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

كالذى يُشغِل الميكروفون قبل صلاة الفجر ، ويأخذ فى إنشاد كلام ما نزل به الشرع ، يزعج به الناس ، ويُقلق به المريض ، ولا يراعى للناس حُرْمة . فمتى يفيق المسلمون ؟ ومتى يتنبهون إلى هذه البدع التى تُشوِّش على الناس وتُفسِد عليهم عبادتهم ؟

أما إنْ كان رَفْع الصوت بالقرآن لغرض دنيوى ومكْسَب شخص ، وأن نجعل الأمر مَعْرضاً للأصوات ، ومِضْماراً للسباق ، إنْ كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله ، فقد دخل صاحبه فى شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾ [الإسراء]

أى : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبيل الوسطية التى جاء بها الشرع ، وتأسَّ برسول الله ﷺ حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً ، فوجد أبا بكر - رضى الله عنه - يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سأله . قال : يا رسول الله ، أناجى ربى وهو عالم بى ، فلما ذهب إلى عمر - رضى الله عنه - وجده يقرأ بصوت عالٍ ، فلما سأله قال : يا رسول الله أزجر به الشيطان . عندها أمر ﷺ أبا بكر أنْ يرفع

صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً[1] .

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أُمرْنَا بها حتى فى الدعاء ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ (٢٠٥)﴾ [الأعراف]

فكلمة : ﴿بَيْنَ ذَلِكَ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] البينية هذه تكاد تشيع فى كل أحكام الدين ؛ لأنَّ القرآن جاء لأمة وَسَط بالأمور الوسط فى كل شئون الحياة ، ففى قمة المسائل وهى الأمور العَقَدية مثلاً يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنكرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة ، فينفى هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفي الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثْرى حياة الجماعة ، ويَرْقَى بحياة الفرد ، وقد لخَّص هذا المنهج الاقتصادي فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

فالممسك المقتِّر الذى يقبض يده عن الإنفاق يتسبَّب فى رُكود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفى التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه ، ولا يُبقى على شيء

---

(١) قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجى ربى عز وجل وقد علم حاجتى ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . قيل : أحسنت . فلما نزلت ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠)﴾ [الإسراء] قيل لأبى بكر : ارفع شيئاً . وقيل لعمر : اخفض شيئاً . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/٦٩) .

يرتقي به في الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذي فوّتَ عليك فرصة الترقّي مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

فما المحمود عليه في الآية ؟

الحق سبحانه يقول : ﴿ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا .. ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء]

فكَوْنه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أنْ يحمدوه عليها ، فإنْ كان له ولد فسوف يخصُّه برعايته دون باقي الخَلْق ، فقد تنزّه سبحانه عن الولد ، وجعل الخَلْق جميعهم عياله ، وكلُّهم عنده سواء ، فليس من بينهم مَنْ هو ابن الله أو مَنْ بينه وبين الله قرابة ، وأحبّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا ينفرد الخَلْق بكل حنان ربهم وبكل رحمته .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد ؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذَّكَر ، خاصة لأمرين : أن يكون الولد ذكرى وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر :

* أَبُنيَّ يا أنا بعْدَمَا أقْضِي *

والحق سبحانه وتعالى باقٍ دائمٌ ، فلا يحتاج لمَنْ يُخلِّد ذكراه ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك علُواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

أو يكون الولد للعِـزْوة والمكاثرة والتقوّى به مـن ضعف ، والحق سبحـانه وتعالى هو الغالب القهـار ، فلا يحتاج إلى عِـزْوة أو كثرة ، لذلك يأمـرنا سبـحـانه أن نُمجِّده لأنه لم يتـخذ صـاحبة ولا ولداً ، والمتأمل في حال الملوك والسلاطين يجـد أكثر فسادهم إما من الولد وإما من الصاحبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

وهذا أيضاً من النعم التى تسـتوجب الحمد ، ولك أنْ تتـصوّر لو أن لله تعالى شريكاً في المـلْك ، كم تكون حَيْرة العباد ، فـأيُّهما تُطيع وأيهما تُرضِى ؟

لقـد أوضح لنا الحق سبـحـانه هذه المسـألة فى هذا المـثل الذى ضربه لنا :﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

لذلك ، ففى أعـراف الناس وأمثالهم يقولون : (المـركب التى بها ريسين تغرق) وكَوْنه سبحـانه واحداً لا شريك له يجعلك تطمئن إلى أمره ونَهْـيه فتُطيعـه وأنت مطمئن ، فأوامره سـبحانه نافذة لا مُـعقِّب لها ، ولا مُعـترِض عليها ، فليس هناك إله آخر يأمرك بأمـر مخالف ، أليست هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

وأيضـــا فـإن الحـق سبـحـــانه يقـــول : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

الولىّ : هو الذى يليك ، وأنت لا تجـعل أمـرك إلا لمن تثق به أنه يجلب لك نَفْعاً ، أو يدفع عنك ضُرّاً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يُقوِّى

ضعفك ، فإذا لم يكُنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ، وتحتمى برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له وليٌّ يلجأ إليه ليعزه ؛ لأنه سبحانه العزيز المعِزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن عظمة الحق سبحانه في نفس المؤمن أكبر من كل شيء ، وأكبر من كل كبير ؛ لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ، فلا بُدَّ أن تُكبِّر الله ، وتجعله أكبر ممَّا دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت فى أىّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم ، فقل : الله أكبر من أىِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأن تُقدِّم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر ، وعلى كل نَهْى .

ولا تنسَ أنك إن كبَّرْتَ الحق سبحانه وتعالى أعززْتَ نفسك بعزة الله التى لا يعطيها إلا لمَنْ يُخلص العبودية له سبحانه ، فَضْلاً عن أن العبودية لله شرفٌ للعبد ، وبها يأخذ العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فهى مذمومة مكروهة ، وهى مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد خير عبده .

وصدق الشاعر حين قال :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتفِى بى بلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ

هُوَ فى قُدْسِهِ الأعزّ ولكِنْ ... أنَا ألْقَى متَى وأيْنَ أحِبُّ

فكم تتحمل من المشقة والعنت فى مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، أما فى مقابلة ربِّ العزة سبحانه ، فبمجرد أنْ آمنتَ به أصبح الزمام

فى يدك تلقاه متى شئتَ ، وفى أىِّ مكان أردتَ ، وتُحدّثه فى أىِّ أمر أحببتَ ، فأىُّ عِزّة بعد هذا ؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، حيث قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

فالعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألاَ ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الذِى تَجْتَوِيه ... مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فيهِ نَجَاةٌ

إذن : فكبِّر الله تكبيراً وعَظِّمه ، والتجىء إليه ، فَمن التجأ إلى الله تعالى كان فى معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كَيْد الآخرين وقهرهم . وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذى يعتدى عليه أقرانه إنْ سار وحده ، فإنْ كان فى يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك - إذن - أن تكون دائماً فى معيّة ربك تأمن كيد الكائدين ومكْر الماكرين ، ولا ينالك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشىء فكأنما يقول له : أبتليك بنعمتى لتأخذ من ذاتى ، لأن الصحيح المعَافَى إنْ كان فى معية نعمة الله ، فالمبتلى فى معية الله ذاته .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضْتُ فلم تَعُدْنى ، قال : يا رب وكيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول :

أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْه ، أما علمتَ أنك لو عُدْتَهُ لوجدتنى عنده »[1] .

فالمريض الذى يأنس بزائريه ويسعد بهم ويرى فى زيارتهم تخفيفاً من آلامه ومواساة له فى شدته ، ما باله إن أنس بالله وكان فى جواره وكلاءته ، والله الذى لا إله إلا هو لا يشعر بوخْز المرض أبداً ، ويستحى أن يتأوّه من ألم ، ولا ييأس مهما اشتد عليه البلاء ؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله ؟ وكيف ييأس والله تعالى معه ؟

إذن : كَبِّره تكبيراً . أى : اجعل أمره ونَهْيه فوق كل شىء ، وقُلْ : الله أكبر من كل كبير حتى الجنة قل : الله أكبر من الجنة . ألاَ ترى قَوْل رابعة العدوية[2] :

كُلُّهُمْ يعبدُونَك من خَوْف نار ... ويَرَوْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلا

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنَانَ فَيَحْظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سَلْسَبِيلاً

لَيْسَ لِي بالجنانِ وَالنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أَبْتَغِى بِحُبِّى بَدِيلاً

وفى الحديث القدسى : « أوَلَوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟ » .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أىّ شىء ، حتى إن كانت الجنة ، ففى آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها . لها أخبار فى العبادة والنسك . توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/ ١٠) .

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف]

فلم يَقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه ، أو جنة ربه ، أو نعيم ربه ، إن المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم ، بل يطمع في لقاء المنعِم سبحانه ، وهذا غاية أمانيه .

وفي حديث آخر يقول الحق سبحانه للملائكة : «أما رأيتم عبادي ، أنعمتُ عليهم بكذا وكذا ، وأسلب عنهم نعمتي ويحبونني» .

وبهذه الآية خُتمَتْ سورة الإسراء ، فجعلنا الحق سبحانه نختمها بما أنعم علينا من هذه النعم الثلاث ، وليست هذه هي كل نعم الله علينا ، بل لله تعالى علينا نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هي قمة النعم التي تستوجب أنْ نحمده عليها .

فالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ؛ لأنه لم يلد ولم يولد وهو واحد أحد ، والحمد لله الذي لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذي لم يكُنْ له وليٌّ من الذل لأنه القاهر العزيز المعز ، ولهذا يجب أن نُكبِّر هذا الإله تكبيراً في كل نعمة نستقبلها منه سبحانه .


سورة الكهف



سورة الكهف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① ﴾

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذى أطلقه رسول الله ﷺ فى خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله . فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه فى المعنى العام : ثناء وشكْر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت فى المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص ،

---

(١) سورة الكهف هى السورة رقم (١٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ١١٠ آية وتقع فى الجزء الخامس عشر والسادس عشر من المصحف . وهى سورة مكية فى قول جميع المفسرين . قال القرطبى-فى تفسيره : « وروى عن فرقة أن أول السورة نزلت بالمدينة إلى قوله ﴿ جُرُزًا ﴾ والأول أصح » .

وقد رُوى فى فضل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها :

- من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « وفى رواية « من آخر الكهف » قيل : سبب ذلك ما فى أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال وكذا فى آخرها » .

وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدى لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فقَوْلُ الحق : (الحمد لله) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إنَّ حمدك لأىِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو - إذا سَلْسَلْتَهُ - حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدَّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأىِّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة (الحَمْدُ للَّه) هذه هى الصيغة التى علمنا الله أنْ نحمدَهُ بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخَلْق فى الحمد حَسْبَ قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحَسْبَ قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيى والأمّى . فتحمّل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها ، والعيى يقولها ، والأمّى يقولها .

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثني عليه : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

فإنْ أردنا أنْ نُحصى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقولَ ما علّمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً فى الحمد لله نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علمنا من الحمد لله ، والحمْد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما علمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعتَ الحمدَ لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل الله محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن :

ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]

ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـٰتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ [الأنعام]

ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ۝١ ﴾ [الكهف]

ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. ۝١ ﴾ [سبأ]

ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ .. ۝١ ﴾ [فاطر]

ولكن ، لكُلّ حَمْد فى كل سورة حيثية خاصة ، فالحمد فى الأولى

لأن الله ربُّ العالمين ، وربٌّ يعنى الخالق والمتولى للتربية ، خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وتولَّى تربية عباده ، فهو رَبٌّ لكل العالمين ؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذى خلق العالمين ، وأمدَّهم بفضله .

وفى الثانية : نحمده سبحانه الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نِعَمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حياتهم بالقوت ، ويستبقى نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور منَ نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فللظُّلْمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للسعى والحركة ، ولا يمكن لساعٍ أنْ يسعى ويجدّ فى عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه ، فتقابُل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم فى ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم فى نور دائم .

وفى السورة الثالثة من السور التى افتتحها الحق سبحانه بـ (الحَمْدُ لله) - والتى نحن بصددها - أراد الحق سبحانه أنْ يُوضِّح أنه لم يُربِّ الخلْق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيمية ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخَلْق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسْب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ① ﴾ [الكهف]

فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذى يجمع كل القيم . وقلنا : إن

الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أنْ يخلق الخَلْق وضع له النماذج التى تُصلح حركة الحياة ، كما قال تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن]

فتعليم القرآن جاء قبل خَلْق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقَهم ، لعِلْمه سبحانه بطبيعة خَلْقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذى يعلم مهمتها ويُحدد قانون صيانتها ، فالكتاب الذى نزل على محمد ﷺ هو المهمة الأساسية ، فيجب أنْ تُوطِّن عليها نفسك ، وتعلَم أنه المنظِّم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ ..۝١﴾ [الكهف] كما قلنا : فى سورة الإسراء : إن العبودية كانت حيثية الرِّفْعة فى الإسراء والمعراج ، فقال سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..۝١﴾ [الإسراء]

فالعبودية رفعتْه إلى حضرته تعالى ؛ لأنه كان عبداً بحقّ ، وهذا يعنى إنزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرَى به ، وحمل منهج الله أولاً فالتفتَ لربه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه ، فأخلص هو أولاً فى العبودية ، وتحمَّل ما تحمَّل ، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به ، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزلَ بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذى سعى إليه بالمعراج .

إذن : فالنبى تناول ليناوِل ، وتناول لأنه أخلصَ العبودية ، فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه ، وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أن يلتقى بالله ، فليدخل فى الصلاة .

و ﴿الْكِتَابَ ۝١﴾ [الكهف] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتيبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أي : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى (الكتاب) وهو لم يكتمل بعد ؟

نقول : الكتاب يُطلَق ويُرَادُ به بعضه ، كما في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة] فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً ، والسورة تُسمَّى قرآناً ، والكل نُسمِّيه قرآناً .

أو : يكون المراد أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله بعد ذلك مُنَجَّماً حَسْبَ الوقائع ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف] أي : جعله مستقيماً ، لا عِوجَ فيه ، كما قال في آية أخرى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..۝٢٨﴾ [الزمر] والاعوجاج . أن يأخذ الشيءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً ، أما الاستقامة فهي الامتداد في نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس في الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم في حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخَلْق متكاملين ، فكُلٌّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرون ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقومَ بذاته أو يستغني عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس في الحياة ، وأنْ يتكاملوا .

هذا التواجه إنْ لم يُنظَّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوى كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم . إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلٌّ منّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهى هو الطريق المستقيم الذى يضمن سلامة الحركة فى الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا[1] ﴿١٠٦﴾ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا[2] ﴿١٠٧﴾﴾ [طه]

أى : أرضاً مستوية خالية من أى شىء ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه] أى : مستقيمة ﴿وَلا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه]

أى : مُستوية لا يُوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم ، وهذا ما يُسمّيه رجال المرور (العقبة) .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم :

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾

قوله : (قَيِّماً) أى : القرآن ، وقالوا : قَيِّم يعنى مستقيم ، كأنها

---

(١) الصفصف : الأرض الملساء المستوية ، أى : أن الجبال تزول فلا يكون لها أثر . [القاموس القويم ١/٣٧٩]

(٢) الأمْت : التلال الصغار ، والأمت : الوهدة بين كل نشزين ، وفي التنزيل العزيز : ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه] أى : لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . [لسان العرب مادة : أمت] .

تاكيد لقوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ①﴾ [الكهف] لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها في الطرق المستوية المرصوفة ، والتي تراها للوهْلة الأولى مستقيمة تماماً ومستوية ، فإذا مَّا نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب ؛ لذلك أكَّد الاستقامة بقوله ﴿قَيِّمًا ②﴾ [الكهف]

ومن معاني القَيِّم : المهيمن على ما دونه ، كما تقول : فلان قيِّم على فلان أي : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن ـ إذن ـ لاعوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ⑧٤﴾ [المائدة]

ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ③٤﴾ [الروم] أي : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ②﴾ [الكهف]

وهذه هي العلّة في الإنزال .

والإنذار : التخويف بشَرٍّ قادم ، والمنْذَر هنا هم الكفار ؛ لأنه لا يُنْذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملَكة العربية وللذّهْن أنْ يعملَ ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلّ شيء هكذا على طرف الثُّمام أي قريباً سهل التناول .

ثم ضَخَّم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وفقط بل ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ ،

والعذاب يتناسب مع المعذَّب وقوته ، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحد به ، ولا مهربَ لأحد منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝ ﴾ [الكهف] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، ونلاحظ أنه في البشارة ذكر المبشَّر (المؤمنين) ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ ﴾

أي : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لابدّ أنْ يُوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ماكثون فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المنعم سبحانه في الآخرة ، لقد ألِفَ الناس الأجر على أنه جُعْل على عمل ، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أجْر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإنْ ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصف المتفضّل ، وإنِ انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة ؛ لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أنْ تتركه ، وإما أنْ يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه :



والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصي ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[1] ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]

إنها قمة المعاصي أنْ نخوضَ في ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهولها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

فهذه القضية التي ادّعَوْها ، وهذه المقولة التي كذبوها على الله ، من أين أتَوْا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعَوْهَا ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتي ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الكهف]

---

(١) الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم] . أي : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/ ١٢] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ⟨٥⟩ ﴾ [الكهف]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أي : عَظُمَتْ وتناهتْ في الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو في ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ⟨٤⟩ ﴾ [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ⟨٩٩⟩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ⟨١٠٠⟩ ﴾ [المؤمنون] فسمَّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ⟨٦٤⟩ ﴾ [آل عمران] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ⟨٥⟩ ﴾ [الكهف] أي : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها في نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا في عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها ـ أي :

لا نقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »[1] .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .. ۝٥﴾ [الكهف] أي : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذِهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتي النسبة في ذِهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال في خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمَّى نسبة ذِهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كأنْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبرى الذى يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائي الذى لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث في المستقبل ؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٢) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي رواية « تلك محض الإيمان » قال النووى في شرحه لمسلم (٥١٢/١) : « إن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

والتدقيق العلمى يقول : الصدق الحقيقى أنْ تطابقَ النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدتَ شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب ؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخْبِر .

وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة ؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقتْ معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم ؛ لذلك شهد الله إنهم كاذبون ؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادى . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أنْ يُواطِىء القلب اللسان ، وهم شهدوا بألسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لَمّا قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهى نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف]

ثم يُسلّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ما يلاقى من متاعب وعناد وسَفَه فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

ومعنى : ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. ۝٦﴾ [الكهف] أى : تجهد نفسك فى دعوة قومك إجهاداً يُهلكها ، وفى الآية إشفاق على رسول الله ؛ لأنه

حمّل نفسه فى سبيل هداية قومه ما لا يحمله الله ويلزم ما لا يلزمه ، فقد كان ﷺ يدعو قومه فيُعرضوا ويتولّوا عنه فيُشيّع آثارهم بالأسف والحزن ، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز ، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق ، فكأن رسول الله لحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد يُهلك نفسه (أسَفاً) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام : ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف] وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضباً من عبادتهم العجل : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه]

وقد حدَّد الله تعالى مهمة الرسول وهى البلاغ ، وجعله بشيراً ونذيراً ، ولم يُكلّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق ، ففى الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله ﷺ ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾

وكان هذه الآية تعقيب على سابقتها ، وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة - إذن - قريبة فلا داعيَ لأنْ يُهلك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقى ؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشىء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدِّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف]

أى : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هى الزخرف الذى يبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥) ﴾ [الكهف]

فإياك أنْ يأخذك هذا الزخرف ؛ لأنه زَهْر سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً .

وقوله : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ .. (٧) ﴾ [الكهف] البلاء يعنى : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض ؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفق فى الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذى يتنبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن نلغى الاختبارات فى مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه ؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهداً واقعياً على مَنْ يخفق .

إذن : معنى : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ .. (٧) ﴾ [الكهف] أى : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

---

(١) الهشيم : الحطب أو الخشب المحطّم . وهشّم الشىء اليابس : كسره . وهشم الخبز : كسره وفتّه . [القاموس القويم : ٢/٣٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التى تظهر على وجه الأرض ، ولا نباتَ فيها و ﴿ جُرُزًا ﴾ هى الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه ، يقول تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧ ﴾ [السجدة]

وما دام الأمر كذلك والدنيا زُخْرف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدَعْهم لى أختبرهم ، وأجازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ(١) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾

وقد وردتْ قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أنْ يُحرجوا رسول الله ، ويُروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أهل الكتاب فى المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه فى كتبهم .

---

(١) اختلف الناس فى الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبى فى تفسيره :
- الرقيم : واد . قاله مجاهد .
- الرقيم : الصَّخرة التى كانت على الكهف . قاله السدى .
- الرقيم : كتابهم . قاله أنس بن مالك والشعبى .
- الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قاله ابن عباس والفراء .

وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٨٦ - ٤٠٨٧) .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبي الجديد ، يقولون : لقد أطلَّ زمان نبيٍّ نتبعه ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ؛ لذلك رغب أهل مكة في سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إنْ أردتُمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإنْ أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟[1]

وفعلاً ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتم عنه غداً »[2] وجاء غد وبعد غد ومرّت خمسة عشر يوماً دون أنْ يُوحَى لرسول الله شيء من أمر هذه الأسئلة ، فشقّ ذلك على رسول الله وكَبُر في نفسه أنْ يعطي وَعْداً ولا يُنجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ، ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]

وهذه الآية في حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٤٠٧٦) وعزاه لابن إسحاق

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٦٩ - ٢٧١) ، وكذا ابن هشام في السيرة (١/٣٢١ - ٣٢٣) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سبحانه أن يكون هذا الدرس فى ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ، وحتى لا يستنكف أحد إذا استُدرك عليه شيء ، فها هو محمد رسول الله يستدرك عليه ربه ويُعدِّل له .

فكأن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] تربية للأمة فى شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّى ، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأى على رأى حتى وإنْ كان من الخَلْق ، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه ، والتعديل والتربية من ناحيته ؟

وإليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد ورد هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء]

فكان حكم داود عليه السلام فى هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التى أكلتْ زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن ، فيكون أمراً

---

(١) النَّفْش : أن تنتشر الإبل (والغنم) بالليل فترعى من غير علم راعيها [لسان العرب - مادة : نفش] . ونفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبيّ الله سليمان فى هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور فى حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أعزّ من أىّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخَلْق على الخَلْق أمر طبيعى ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف فى المحاكم ، فلعل القاضى فى محكمة الاستئناف يستدرك على زميله فى المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شىء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يَرَهُ .

ولنا هنا وَقْفة مع أمانته ﷺ فى البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحى شيئاً حتى ما جاء فى عتابه والاستدراك عليه ، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه ، فالرسول هو الذى بلغنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الكهف] وهو الذى بلَّغنا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

وهو الذى بلغنا فى شأن غزوة بدر : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التكوير]

حتى فى مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحى حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يُخفِى شيئاً .

ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكَّروا في صدْقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرِّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقِّق ما وعد به ، وليس في قولنا : إنْ شاء الله حَجْر على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدَّعي البعض أن قول إنْ شاء الله يلغي التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطِّط كما تريد ، ودَبِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله ، وهي في حَدِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية في مشيئة الله ، فأنت غير كاذب ، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعلِّق الفعل على مشيئة الله ، فإنْ قُلْتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه في كذا ، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد ؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد ؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باقٍ لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه طارىء ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن شاء الله ، واخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التي نحن بصددها فالحق سبحانه يقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾ [الكهف]

﴿ أَمْ ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. ۝١٦ ﴾ [الرعد]

فالمراد : إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها ، فدعْكَ من كلامهم ، ودَعْك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿ الكَهْفِ ﴾ : الفَجْوة في الجبل و (الرقيم) الشيء المرقوم أي : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ ﴾ [المطففين] أي : مكتوب .

وقوله : ﴿ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾ [الكهف] أي : ليست هذه هي العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم تأخذ الآيات في تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى :

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ ﴾

(أَوَىٰ) من المأوى ، وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه (الفِتْيةُ) جمع فتى ، وهو الشاب في مُقْتبل العمر ، والشباب هم معْقِد الآمال في حمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ،

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالى من أىّ مُقوّم من مُقوّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. ⑩ ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوّمات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⑩ ﴾ [الكهف] أى : يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسّع عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ㊸ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ⑪ ﴾

يُقَال : ضُرِب الفسطاط على الأرض يعنى الخيمة ، أى : غُطّيتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلاَّ كان الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أيا هازئاً من صُنُوف القَــدَرِ بنفْســكَ تُعنف لاَ بـالقَــدَر
ويَا ضَـارِباً صَخْرةً بالعَصَــا ضَرَبْتَ العَصَا أمْ ضربْتَ الحَجَر ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ .. ⑪ ﴾ [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشىء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مكْثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادىء الذى لا يُعكّر صَفْوه شىء ، والنوم هو الراحة التامة التى تطغى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إدراك تُؤدّى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑦⑧ ﴾ [النحل]

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرختَ في أذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأووْا إلى الكهف ، وهو فَجْوة في جبل في صحراء وهي عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم ؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أي : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشيء الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عدّاً ونقداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ[1] أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

---

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قوة وصلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وآراء متشابهة . [القاموس القويم ـ مادة : حزب] . قال القرطبي في تفسيره (٥/٤٠٩٤) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً . والحزب الثاني من أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين » .

(بَعَثْنَاهم) أى : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف] أي : الفريقين منهم ؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم .

أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا فى تحديد مدة نومهم : ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف] أيْ : لنرى أيّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائباً . والأمد : هو المُدة وعدد السنين .

والمتأمل فى الآيات السابقة يجد فيها مُلخَّصاً للقصة ومُوجزاً لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فأهل الكهف فتية مؤمنون فرُّوا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصى مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطِنَا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾

(نَحْنُ) أى : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذى يقُصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاصَّ غير الله لَتُوقّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شيء من الأحداث لهَوىً فى نفسه ، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : هناك قصَص ليس بالحسن ، وهو القصَص غير الدقيق .

فالقصَصُ القرآني يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث ، ويُصوِّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع ؛ لأنها من قصَّ الأثر أي : تتبَّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصَّاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و (نَبَأَهُمْ) النبأ : هو الخبر العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ⦗١٣⦘ ﴾ [الكهف]

هذا هو تفصيل القصة بعد أنْ لخَّصها القرآن في المذكرة والبرقية السابقة ، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناسٌ هذه القصة من قبل ، لكنها قُصَّتْ بغير الحق ، وغُيِّر فيها ، لكن قَصَّنا لها هو القَصَص الحق الذي لا كذبَ فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التي ضَحَّوْا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولاَّهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⦗١٧⦘ ﴾ [محمد]

وما أشبه هذه المسألة بالمعلِّم الذي يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيُولِيه اهتمامه ، ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضَحَّوْا بكلِّ شيء وفرُّوا بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب ، وهو مظنَّة الانشغال بالدنيا والحرص على مُتعها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتاء في أهل الكهف : فتاء إيمان وفتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[1] ﴿١٤﴾ ﴾

والربط يعنى أن تربط على الشيء وتشدَّ عليه لتحفظ ما فيه ، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل منها الماء ، وتربط الدابة حتى لا تنفلت ، وقد وردتْ مادة (ربط) فى القرآن كثيراً ، منها قوله تعالى فى قصة أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : ربط على ما فى قلبها من الإيمان بالله الذى أوحى إليها أن تُلقِيَ بولدها فى الماء ، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار ﴿ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : تكشف عن الخُطّة التى أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً - أى : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً .

ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها ، وربط

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شيء ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] . أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطاً للشعور يحكم تصرفاتها فتأتى سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة ..

ومن هنا نأمر الغاضب الذى تغلى الدماء فى عروقه بالهدوء وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلجم جماح غضبه الذى لا تُحمد عُقباه ، ألا ترى التوجيه النبوى فى حال الغضب ؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذى أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [ابراهيم] أى : فارغة خالية ليس فيها شىء ؛ لأن الشىء إذا فرّغته من مُحتواه امتلأ بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه فى أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٤) ﴾ [الكهف] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذى أخبرتْ به الآيةُ السابقة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم فى وجهه ، وأن الباطل أفزعهم فهبُّوا للتصدّى له بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرّضوا فى دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطى صورة لفريقين : فريق الكفر الذى ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذى يُعلنها مُدوّية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف]

وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] فإن ادّعينا إلهاً من دون الله ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] أي : فقد تجاوزنا الحدّ ، وبَعُدْنا عن الصواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف] فأفظع الظلم وأقبحه أنْ نفتريَ على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر ، ونأيْنَا عن طريقهم ، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذى يسَّره الله لنا ، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمى فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتَّسع للحياة ، بل إلى كهف ضيق فى جبل فى صحراء ، وليس به مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف] فالضيق يقابلُه البَسْط والسَّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون فى رحمة الله معتقدون أن الذى هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم ، ألاَ ترى النائم يربع فى الدنيا هنا وهناك لا تحدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث فى قصة نبى الله موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر . فماذا قال موسى لقومه فى هذا الموقف ؟ قال بملء فيه قولَة الواثق من نصر الله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

فجاءه التأييد من ربه فى التوِّ واللحظة ، وفرَّج عنه وعن أصحابه

ما يُلاقون من ضيق المخرج ، فأوحى الله إليه : ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ.. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

كذلك هنا : ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهي مُقوّمات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إنْ ظلوا في حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ[1] عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ[2] ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾

بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التي تُزعجهم وتُقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطرَ الأشعة خاصة على النائم ، وإن للظُّلمة مهمة ، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خَلْق من خَلْق الله ، لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء]

---

(١) تزاور عنه : مال وتنحَّى وانحرف . أي : أن الشمس تميل وتنحرف عنهم لئلا تؤذيهم . [القاموس القويم ١/٢٩٢] .

(٢) قرض المكان : تركه وتجاوزه . أي : تتركهم الشمس وتتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم الشمس بحرِّها . [القاموس القويم ٢/١١٣] .

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها (تزاور) أى : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزُّور : أى الميل عن الحق ، والزورَ عن الشيء أى : مال عنه ، فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين .

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ .. (١٧) ﴾ [الكهف] والقرض ـ كما هو معلوم ـ أنْ تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكأنها تقرضهم إياه . ولا شكَّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التى تصنع الشيء وضده .

ونلحظ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الفعل للشمس فى تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ [الكهف] أى : فى الكهف ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الكهف] وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أنْ تعترضَ : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها ؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخلْق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون ، تبطله إنْ شاء ، وتحركه إنْ شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾ [الكهف]

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمُضل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟

وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهي للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدي ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدي ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ[1] ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ[2] لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

أي : لو أتيح لك النظر إليهم لخُيِّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم في نومهم مرة ناحية اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظلّ أجسامهم على حالها ، لا تأكلها الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش ، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد ـ عافانا الله وإياكم ـ وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف] ويبدو أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مادّاً ذراعيْه بفناء الكهف أو على بابه ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم في نفوس

---

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام تقليبتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلِّبوا في التسع الأواخر ، وأما في الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله . [تفسير القرطبي ٥/٤١٠٠] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتبته . [القاموس القويم ٢/٣٢٩] .

الناس ، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف وولّى هارباً يملؤه الرعب ؛ لأن هيئتهم تُوحى بذلك ، حيث يتقلّبون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ[1] هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله : (بعثناهم) أى : أيقظناهم من نومهم ؛ لأن نومهم الطويل الذى استغرق ثلاثمائة سنة وتسعاً أشبه الموت ، فقال (بَعَثْنَاهُمْ) ، والبعثُ هنا لقضية خاصة بهم ، وهى أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم فى الكهف ، وقد انقسموا فى سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الأول ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]

فَرَدَّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى ، فقال : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد فى النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

---

(١) الوَرِق : الدراهم المضروبة . والوِرِق : بكسر الراء : الفضة . [لسان العرب ـ مادة : ورق] .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب .

وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدري مُدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

لقد حكم على مُدّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدها لم يتغير منه شيء ، فكيف يتأتّى الصدق من الحق سبحانه في قوله (مائة عام) والصدق في قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم ؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان وللمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق

---

(١) سنه الطعام يسنه : تغيَّر بعد مُضى زمن عليه . وتسنَّه الطعام : تغير . [القاموس القويم ٣٣٢/١] .

القولين : ففى طعام العُزَير الذى ظلَّ على حاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفى حماره الذى رآه عظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الله الذى يجمع الشيء وضده فى آنٍ واحد .

ثم يقول تعالى حكايةً عنهم : ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .. ⁽¹⁹⁾ ﴾ [الكهف] وهو قَوْل الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف فى هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التى لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا ننتهى فيه إلى شيء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا :

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ⁽¹⁹⁾ ﴾ [الكهف]

والوَرِق يعنى العملة من الفضة ، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشترى لهم من المدينة طعاماً ؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم ؛ لذلك طلبوا الطعام ، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أطيبه وأطْهره ، وأبعده عن الحرام .

وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم ، فَمنْ سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خِلْسة ، وأن يتلطف فى الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم ، ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التى ناموا عليها ، وما زالوا على حذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسعَوْن للقضاء عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التى فرّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[1] عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

فى قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زلتم على قيد الحياة وفى سعة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ[2] فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

---

(١) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] . أى : جعلنا الناس يطلعون عليهم ويعرفون كهفهم وقصتهم . [القاموس القويم ٢/٧] .

(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٣/٧٧) .

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. (٢١) ﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم، ويبدو أنهم كانوا على مسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصح أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد ؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سعَة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا .. (٢١) ﴾ [الكهف] أي : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿ قَالَ الَّذِينَ[1] غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ[2] عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلّق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها علْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى :

---

(١) حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير في تفسيره (٧٨/٣) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤١١٠/٥) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك أشرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ[1] رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾

لقد اختلف القوم في عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه (رجماً بالغيب) ؛ لأنه قول بلا علم ، مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يُعلِّق القرآن على هذا الرأى مما يدلُّ على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتي القول الفصلُ في هذه المسألة : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ .. (٢٢) ﴾ [الكهف] فلم يُبيِّن لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقي ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث في أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من ورائه ، فالمهم أنْ يثبت أصْل القصة وهو : الفتية الأشدّاء في دينهم والذين فرُّوا به وضحَّوْا في سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثلاً وقدْوة .

---

(١) قيل : المراد بهم النصارى ، فإن قوماً منهم حضروا النبى ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبى ﷺ عن أصحاب الكهف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤١١٢/٥) .

أما فرعيات القصة فهى أمور ثانوية لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا .. (٢٢)﴾ [الكهف] أى : لا تجادل فى أمرهم .

ثم يأتى فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا فى اسمه . وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع فى القصة ولا تضرُّ ، ويجب هنا أن نعلم أن القَصَص القرآنى حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص فى قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأى .

ولو حدد زمانهم لَقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتّى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتتحقَّق الفائدة المرجوَّة من القصة ، أبهمهم زماناً ، وأبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف فى الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع فى الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ .. (٢٨)﴾ [غافر]

هكذا (رَجُلٌ مُؤْمِنٌ) دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالمهم أن الرجولة في الإيمان ، أيّاً كان هذا المؤمن في أيّ زمان ، وفي أيّ مكان ، وبأيّ اسم ، وبأيّ صفة .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ⑩﴾ [التحريم] ولم يذكر عنهما شيئاً ، ولم يُشخِّصهما ؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيانُ أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبي المرسل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حرية عَقَدية مُطْلقة .

و كذلك في قوله :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ⑪﴾ [التحريم] ولم يذكر لنا مَنْ هي ، ولم يُشخِّصها ؛ لأن تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذي ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصيّ قلبي ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وها هي امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪﴾ [التحريم]

أما في قصة مريم ، فيقول تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ .. ⑫﴾ [التحريم] فشخّصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحدث الذي ستتعرَّض له حَدَثٌ فريد وشيء خاصٌ بها لن يتكرر في غيرها ؛ لذلك عيَّنها الله وعرَّفها ، أما الأمر العام الذي يتكرر ، فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبْهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما في قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدْوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

وتتجلى في هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد ﷺ فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طلب من مسألة أهل الكهف ، ثم في النهاية ذكَّره بهذه المخالفة في أسلوب وَعْظ رقيق : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وقد سبق أنْ ذكرنا أنه ﷺ حينما سأله القوم عن هذه القصة قال لهم : سأجيبكم غداً ولم يَقُلْ : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفتَ نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله ﷺ .

كما خاطبه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

فقدَّم العفو أولاً وقرَّره ؛ لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عَوْناً أو مساعدة ، وقد سبق أنْ أساء إليك ، فمن اللياقة ألاَّ تَصدمه بأمر الإساءة ، وتُذكِّره به أولاً ، بل اقْضِ له حاجته ، ثم ذكِّره بما فعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء فى الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان فى بداية الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] أى : يهديني ويعينني ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذكْره لازمة من لوازمى فى كل عمل من أعمالى فلا أبدأ عملاً إلا بقَوْل : إنْ شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وهذه الآية تعطينا لقطة من المذكرة التفصيلية التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ عن أهل الكهف ، وهى تُحدِّد عدد السنين التى قضاها الفتْية فى كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعلىّ بحساب الشمس .

لذلك ؛ فالحق سبحانه لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف] ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة ؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السموات والأرض قسَّم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلُّنا على بداية الشهر جعل الخالق

سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذى يظهر هلالاً فى أول كل شهر ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٦)﴾ [التوبة]

فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمرى لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعاً ، إذن : هى فى حسابكم الشمسى ثلاثمائة سنة ، وفى حسابنا القمرى ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً فى كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيتات فى الإسلام بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسى فى طقس واحد لا يتغير ، فإنْ جاء الحج فى الشتاء يظل هكذا فى كل عام ، وكم فى هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج فى فصل الشتاء . والامر كذلك فى الصيام .

أما فى التوقيت القمرى فإن هذه العبادات تدور بمدار العام ، فتأتى هذه العبادات مرة فى الصيف ، ومرة فى الخريف ، ومرة فى الشتاء ، ومرة فى الربيع ، فيؤدى كل إنسان هذه العبادة فى الوقت الذى يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمتأمل فى ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب ، فلو تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة فى ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع فى ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى ، وفى الوقت الذى تنادى فيه « الله أكبر » يُنادى آخر « أشهد ألا إله إلا الله » وينادى آخر « أشهد أن محمداً رسول الله » وهكذا دواليك فى منظومة لا تتوقف .

وكذلك فى الصلاة ، ففى الوقت الذى تصلى أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلُّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلُّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله فى لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة فى كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلِّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الاسلوب فى قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف] أسلوب تعجُّب أى : ما أشدَّ بصره ، وما أشدَّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شىء بلا قانون[1] .

وقوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف] كأن الحق سبحانه وتعالى يُطمئن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغيِّر كلامه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤١١٨/٥) : « ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى : بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب » .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

أى بعد هذه الأسئلة التى سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم ، فإنْ أرادوا أنْ يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله منه ، وإياك أنْ تظنَّ أن العقبات التى يقيمها خصومك ستُؤثّر فى أمر دعوتك .

وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى فى ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التى تمرُّ بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة .

وقوله : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف] لأن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدِّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذى لا يُبدَّل ولا يُغيَّر ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : ملجأ تذهب إليه ؛ لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل ، كما قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

نزلتْ هذه الآية في « أهل الصُّفَّة[1] » وهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلون كباقي الناس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمِّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم ، ولا نُقلِّل من شأنهم أو نتهمهم ؛ لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك أن صاحب

---

(١) سبب نزول الآية : عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف] . حتى بلغ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] . يتهددهم بالنار ، فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات » أخرجه الواحدي النيسابوري في « أسباب النزول » ص ١٧١ . وكذا القرطبي في تفسيره (٥/٤١٢١) .

الدنيا الذى انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدّداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إنْ أصابه مكروه أو نزلتْ به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقبّل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجاذيب ليرد بهم جماح أهل الدنيا المنهمكين فى دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا فى خِدْمة هؤلاء العباد ، ففى يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخرِج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات ، فأتى العامل بالمبلغ فى صورة جنيهات من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدّ من جنيهات من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا الجنيه الكبير ، فقلت فى نفسى : سبحان الله مجذوب على باب المسجد ويشغل أكبر رجل اقتصاد فى مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدد النظرة من رسول الله ﷺ زاد للمؤمن ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف] لأنك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفى أمر الرسول ﷺ بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقَوِّى هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دَيْدنهم وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرُّب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة ؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قِلَّة ، في كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أُسْوة تُذكِّر الناس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدّعى حال هؤلاء ، ويُوهِم الناس أنه مجذوب ، وأنه وَلِىٌّ نَصْباً واحتيالاً ، والشيء لا يُدَّعَى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذى يدّعى الطب أو يدّعى العلم لما رأى من مَيْزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءتْ إليهم تدقُّ أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتها ، فضلاً عمّا لهم من مكانة ومنزلة فى النفس ومحبة فى القلوب .

فلماذا - إذنْ - لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالَهم ، وما خاض الناس فى سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التى استمرأتْ حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨)﴾ [الكهف] لأنه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَن اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة

الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبى ﷺ الموقف من الدنيا فى قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خدمني فاخدميه ، ومَنْ خدمك فاستخدميه... »[1] فالدنيا بأهلها فى خدمة المؤمن الذى يعمر الإيمانُ قلبه ، وليس فى باله إلا الله فى كل ما يأتى أو يَدَع .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : أن هذا الذى يُحرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جئتُ به »[2] .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) أورده الشوكانى فى « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » (ص ٢٣٨) وقال : « رواه الخطيب عن ابن مسعود . وفى إسناده : الحسين بن داود البلخى . والحديث موضوع » . قال الكنانى فى « تنزيه الشريعة » (٢/٣٠٣) : « تعقب بأن له شاهداً من حديث النعمان بن بشير . أخرجه البيهقى فى الشُّعَب وقال : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم مجاهيل » . قال الخطيب فى تاريخ بغداد (٨/٤٤) : « الحسين بن داود ليس بثقة ، حديثه موضوع » .

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] أي : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا[1] وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ[2] يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أي : قُل الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذي خلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

فمعنى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أي : بإقراركم أنتم ، فالذي خلقكم وربّاكم وتعهدكم هو الذي نزّل لكم هذا الحق و ﴿ رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أي : ليس ربي وحدي ، بل ربكم وربّ الناس جميعاً .

---

(١) السرادق : الخيمة وكل ما أحاط بالشيء أو ما يمد فوق صحن البيت . والمعنى هنا أي أنهم لا نجاة لهم فقد أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [القاموس القويم ٣٠٩/١] .

(٢) قال ابن عباس : المهل ماء غليظ مثل دردي الزيت . وقال مجاهد : القيح والدم . وقال الضحاك : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، فتموج بالغليان ، فذلك المهل . [تفسير القرطبي ٤١٢٤/٥] .

والحق : هو الشيء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيِّره أحد ؛ لأن الذى يتغير كلامه هو الذى يقضي شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن علمه شيء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .

فالربوبية عطاء ، فربك الذى خلقك وأمدَّك بالنعم ، وهو الذى يُربِّيك كما يُربِّي الوالد ولده ؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التى فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التى تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيِّد اختياراته ؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى ؛ لأنها ليس لها مطلوبات .

فالذى يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك ؟ وعَمَّا نهاك ؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْم هذا الدين ؛ لأنه يتركني بحريتى أفعل ما أريد .

لذلك ؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوَّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج ؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس ؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتْ سجاح[1] النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ،

---

(١) هي : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بني يربوع ، متنبئة مشهورة ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ ، كان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، نزلت اليمامة واجتمعت بمسيلمة وتزوجها ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والي البصرة لمعاوية عام ٥٥ هـ . [الأعلام للزركلي ٣/٧٨] .

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مُدَّعى الأمس بمدعى اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَض من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإنْ كان فطرياً فى النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفِّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويُصدِّقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل فى ظله ما يريد .

إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول فى المثل : (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبرَ فى الإيمان ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..(٢٩)﴾ [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء فى الحديث القدسى[1] : « إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضُرِّى فتضرونى ، ولو أن أوّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغْرز إبرة إذا

(١) أخرجه الترمذى فى سننه بنحوه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

غمسها أحدكم فى بحر ، وذلك أنّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقولَ له كُنْ فيكون » .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لكنى أحب لخلقى أن يكونوا دائماً على خير منى ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءتْ هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف]

وكان خصوم الإسلام حينما يَروْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته ﷺ ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخلْه أحد قبلك ، شتمتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحلامنا وسببْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنت تريد جاهاً سوَّدناكَ علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ، ولكن ربى أرسلنى بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم »[1] .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٩٥ - ٢٩٧) ، أنه قد اجتمع ١٥ من كبار قريش عند الكعبة وأرسلوا إلى محمد ﷺ ليكلموه ، فعرضوا عليه الأموال والملك والشرف والجاه أو الطب إن كان له تابع من الجن ، فقال لهم ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىَّ كتاباً .. فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ يحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عَمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهِره الله ، أو أهلك دونه »[1]

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرِف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ .. ﴾ (٢٨) [الكهف]

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذى أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزِل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أُرسلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجّه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] لأنه بعثنى بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدَّثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبى طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له : فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه . فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبداً .

توجيهى حسب أهوائكم فقد انقلبت المسألة ، ودعوتكم لى أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ وأتوجه إليكم ، فهذا دليل على عدم صدق إيمانكم ، وأنكم لستم جادّين فى اتباعى ؛ لذلك فلا حاجة بى إليكم .

ثم يقول تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حقّ ينزل من الله ، لا أن آخذ الحق منكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذى أرسلنى الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

والأمر فى هذه الآية سبق أنْ أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً بغير مطلوب فلنفهم أن الأمر استُعمل فى غير موضعه ، كما يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا فى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقها لكانَ مَنْ آمن مطيعاً للأمر : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن .. (٢٩)﴾ [الكهف] والعاصى أيضاً مطيع للأمر : ﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] فكلاهما - إذن - مطيع ، فكيف تُعذِّب واحداً دون الآخر ؟

فالأمر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أى : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار فى هذه المسألة ؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فالله سبحانه غنىّ عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خَلْق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء الله عنكم مَسْحوب على استغناء الرسول ، وسوف ينتصر محمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة في مكة ويجهر بها في أذن صناديد الكفر وعُتاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانة وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم ألِفُوا النصر وألِفُوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم لِيَسُودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهوّل الآية وتُفخّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه والإنذار به لا ليقع الناس في موجبات العقاب ، بل لينتهوا عن الجريمة ، وينأوْا عن أسبابها ، إذن : فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى (أعتدنا) أي : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسْبقاً ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهّزة ، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل ، وقد أُعِدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا ، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذي آمن وَفَّر مكانه في النار ، والذي كفر وفَّر مكانه في الجنة .

لذلك قال تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : فخلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أوْ زحام أبداً ، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : ﴿لِلظَّالِمِينَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ، لأنك تأخذ حقَّ الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه ، فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. (٢٩)﴾ [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . ومعنى سرادق : أي محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُؤيسهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾ [الكهف]

الاستغاثة : صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] أي : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب (يُغَاثُوا) يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغاثُون بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخفف عنهم العذاب .. لا ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أي : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمهْل هو عُكارة الزيت المغلي الذي يسمونه الدُّرْدِيّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْي الماء ، وهكذا يزدادون حرارةً فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : (يُغَاثُوا) أسلوب تهكميّ ؛ لأن القاعدة في الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذي يطلبه ، فهذا ينافي البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

إذن : فقوله تعالى عن الكفار : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذي أخفق في الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى : ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أن الماء من شدة حرارته يشوي وجوههم ، قبل أن يدخل أجوافهم : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أي : الذي يغاثون به ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف] المرتفق هو الشيء الذي يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً ، لكن بالله هل هناك راحة في جهنم ؟

إذن : فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم ، كما قال تعالى

مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزتها وأصحاب العظمة فيها ممن عصوا الله :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم فى هذه المسألة بأساليب متعددة ، منها استخدام كلمة (النُّزُل) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت]

فالذى أعدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذى يُعد نُزُلاً لضيفه يُعدّه على قَدْر غناه وبَسْطة كرمه ، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه ؟

وذيّل الآية بقوله : ﴿ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت فى هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزل هنا فى الجنة ، فهى محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم فى النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الواقعة] فقد استخدم النزل فى غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهي في قوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أراد سبحانه أنْ يُبيِّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر[1] ، وهو أسلوب معروف في العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورِد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أي : لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا من فضل الله في النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثاني للمحكوم عليه الثاني وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسان وخَالِقي

هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسَانُ وَخَالِقِي ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُورُ

فتكون على الترتيب : قلبي راضٍ ، وجفني باكٍ ، ولساني شاكر ، وخالقي غفور .

ومرة يأتي اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقة بأن نباهة السامع ستردُّ كل شيء إلى أصله[2] كما في الآية التي نحن

---

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [الإتقان في علوم القرآن ٣/٢٧٩ - ٢٨١] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .

بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما فى الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف]

وليكُنْ فى الاعتبار أن المتكلم ربٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ « دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جلْب المنفعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التى ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثّق الأمر أو النهى إلى الله الذى آمنتَ به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح فى مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التى تحتاج إلى التواصى بالصبر والتواصى بالحق ، ولنا أسوة فى هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحمّلوا عبء الدعوة وصبروا على الأذى فى سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن (مَنْ) هنا عامة للمؤمن وللكافر ؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ؛ لأن العامل الذى يُحسِن العمل قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حَقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن فى علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حَظَّ له فى الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ[1] عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) العاجلة : الدنيا . والآجلة : الآخرة [لسان العرب ـ مادة : عجل] .

فهـؤلاء قد اسـتوفوا أجـورهم ، وأخذوا حظّهم فى الدنيـا ألواناً من النعيـم والمـدح والثناء ، وخُلّدتْ ذكـراهم ، وأقـيـمت لهم التـمـاثيل والاحتفالات ؛ لذلك يأتى فى الآخرة فلا يـجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجىء بوجـود إله لم يكُنْ يؤمن به ، والإنسـان إنما يطلب أجـره ممّنْ عمل من أجله ، وهؤلاء ما عـملوا لله بل للإنسانية وللمجتـمع وللشهرة ، وقد نالوا هذا كله فى الدنيا ، ولم يَبْقَ لهم شىء فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ[1] وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

(أولَئكَ) أى : الذين آمنوا وعملـوا الصالحـات ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] الجنات رأينا منها صورة فى الدنيا ، وتُطلـق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعي : فهـو الذى نعرفه من أنها الدار التى أعدَّها الله تعالى لثواب المؤمنين في الآخرة . أما المعنى اللغوى : فهى المكان الذى فيه زرع وثمار وأشـجار تُوارِى مَنْ سار فـيها وتـستره ؛ ومـادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفـاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجُنَّة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم .. إلخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن شىء غيبىّ يُحدِّثنا بما يوجد فى لغتنا من ألفاظ ، واللغـة التى نتكلم بها ، يوجد المعنى أولاً

---

(١) السندس : رقيـق الديباج ، وهوالحرير الـذى يتلون ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .
والإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .

ثم يوجَد اللفظ الدالّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإنْ نُطق اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التى يُحدِّثنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

إذن : فمن أين نأتى بالألفاظ الدَّالة على هذه المعانى ونحن لم نعرفها ؟ لذلك يُعبِّر عنها الحق سبحانه بالشبيه لها فى لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذى يُميِّزها عن جنة الدنيا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. ⑮﴾ [محمد]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتى قوله : (غير آسن) ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك فى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. ⑮﴾ [محمد]

فالخمر فى الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاها اسم الخمر لنعرفها ميَّزها بأنها لذة ، وخَمْر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التى سيخلقها الله لنا فى الجنة ، فبها ما لا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله فى كتاب « الأحاديث القدسية » المجلد الأول ـ صفحة ٦٩ ـ ٨٥ .

عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن ؛ لأن العين تعطيك المشهد الذى رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذى رأيته والذى رآه غيرك ، ثم يقول : « ولا خطر على قلب بشر » فوسَّع دائرة ما فى الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. ⑮﴾ [محمد]

ونحن نعرف العسل فميَّزه هنا بأنه مُصفَّى ، ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلَقُ به الحصى والرمل ؛ لذلك مُيِّز عسل الجنة بأنه مُصفَّى .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ㉘﴾ [الواقعة] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سِدْر الجنة ؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه، ولا يُدْمِى يدك كسدْر الدنيَا .

وهنا مِيَّز الله الجنة فى الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ㉛﴾ [الكهف] أى : إقامة دائمة لا تنتهى ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فهَبْ أن واحداً يتمتع فى الدنيا بالدُّور والقصور فى الحدائق والبساتين التى هى جنة الدنيا ، فهل تدوم له ؟ إن جنات الدنيا مهما عَظُم نعيمها ، إما أنْ تفوتك ، وإما أنْ تفوتها .

والعَدْن اسم للجَنَّة ، فهناك فَرْق بين المسكن والمسكن فى الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن فى الجنة له مسكن خاص فى جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ⑫﴾ [محمد] ، وفى آية أخرى يقول : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. ⑩⑩﴾ [التوبة]

ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففى قوله : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعه أحد عنك أنْ يَسُدَّه دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجرى (من تحتها) أى : من الجنة نفسها لا يمنعه أحد عنك .

وفى هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية فى إقامة المبانى عليها ، خُذْ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الريَّاح التوفيقى من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوجدْتَ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة فى الماء ، واستخدام هندسة البناء أنْ نقيم المساكن الكافية لسُكْنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هى للخُضْرة وللزرع ولِقُوتِ الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً فى الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة فى بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتْ الحركة العمرانية على الجيزة والدقى والمهندسين ، وكانت فى يوم من الأيام أراضى تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا فى تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل .

إذن : فى الآية لفتة يمكن أنْ تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمى لنا الرقعة الزراعية الضيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التي يتحلَّى بها الرجال ؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن في طموحات الإنسان في زُخْرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمَّى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب في الآخرة زينة وزخرف ، وفي آية أخرى ، يقول تعالى : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

ومرة أخرى يقول : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فاطر]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ ؛ لذلك قال ﷺ عن هذه الحلية في الآخرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن[1] .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء الفعل (يُحلَّوْنَ) أي : حلاهم غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس ، وهو من الضروريات قال :

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدم الفضل على العمل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/٣٧١) ، ومسلم في صحيحه (٢٥٠) ، والنسائي في سننه (١/٩٣) أن أبا حازم قال : كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه . فقلت : يا أبا هريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لي : يا بني فرُّوخ أنتم هاهنا ، لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء ، سمعت خليلي ﷺ يقول : « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء »

أى : إياك أن تقول هذا بعملى ، بل بفضل الله وبرحمته ؛ لذلك نرى الرسول ﷺ يقر بهذه الحقيقة ، فيقول : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى عملك لوجدتَه بعد تكليفك الذى كلفت به فى سنّ البلوغ ، وقد عشْت طوال هذه المدة ترتع فى نِعَم الله ورزقه دون أنْ يُكلِّفك بشىء ؛ لذلك مهما قدّمْتَ لله تعالى من طاعات ، فلن تفِى بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذتَ حقك سابقاً ومُقدَّماً فى الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : ﴿ يَلْبَسُونَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] أى : بما عملوا ، أما فى الزينة والتحلية فقال : (يُحلَّوْنَ) كالرجل الذى يُجهِّز ابنته للزواج ، فيأتى لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزُخْرف الحياة من نجف أو سجّاد أو خلافه .

واللباس من ضروريات الحياة التى امتنّ الله بها على عباده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] والريش : هو الكماليات التى يتخذها الناس للفَخْفخة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة (الإستبرق) وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس ، وهي كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (آمين) التي نتخذها شعاراً في الصلاة وأصلها يمنيّ أو حبشيّ . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربي ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ في لغة العرب ساعةَ نزل ، أم جاء القرآن وهي سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارتْ على الألسنة ، وجرتْ مجرى الكلمات العربية .

ومن الكلمات التي دخلتْ العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخفّ في الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرَّها مَجْمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها في اللغة ولم تكُن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف]
الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يُريحه ، والأرائك : هي السُّرر التي لها حلْية مثل الناموسية مثلاً . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ .. (٣١) ﴾ [الكهف] كلام منطقيّ : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾ [الكهف] أي : أن هذا هو مُقْتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ[1] جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسميْن : قسم مُتكبِّر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع ، ويُسوِّى بينهم .

لذلك ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً موجوداً فى الحياة ، ففى الناس الكافر الغنى والمؤمن الفقير ، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشىء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :
– نزلت فى أخويْن من أهل مكة مخزوميين . أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث كل واحد منهما ٤ آلاف دينار ، فأنفق أحدهما ماله فى سبيل الله ، وطالب أخاه شيئاً فقال ما قال . قاله الكلبى وذكره الثعلبى والقشيرى .
– وقيل : هو مثل لعيينة بن حصْن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوينَ أحدهما مؤمن واسمه يهوذا . فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢٩ ، ٤١٣٠) .

وَيَا ضَارِباً بِعَصَاهُ الحَجَر ... ضربْتَ العَصَا أمْ ضربْتَ الحجَر ؟

وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من حالة إلى أخرى ، كذلك المثل : الشيء الغامض الذى لا تفهمه ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضّحه ويُنبّهك إليه ؛ لذلك قال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف]

وسبق أن أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُ فى معنى من المعانى ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائراً ، كما نقول : جود حاتم ، وتقابل أى جوّاد فتناديه : يا حاتم ، فلما اشتهر حاتم بالجود أُطلِقَتْ عليه هذه الصفة . وعمرو بن معد اشتُهِر بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتُهِر بالذكاء ، وأحنف بن قيس اشتهر بالحلم . لذلك قال أبو تمام[1] فى مدح الخليفة :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِم ... فى حِلْمِ أحنَفَ فِى ذَكَاءِ إياس

فأراد خصوم أبى تمام أن يُحقِّروا قوله ، وأن يُسقطوه من عين الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فوق مَنْ وصفتَ ، وكيف تُشبِّه الخليفة بهؤلاء وفى جيشه ألفٌ كعمرو ، وفى خزَّانه ألف كحاتم فكيف تشبهه بأجلاف العرب ؟ كما قال أحدهم : -

وَشبَّهه المدَّاحُ فى البَاسِ والغِنَى ... بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادِمِ

فَفِى جيْشِه خَمْسُونَ ألْفاً كعنْترٍ ... وَفِى خُزَّانه ألفُ حَاتِمِ

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) . نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

فألهمه الله الردَّ عليهم ، على نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَه مثَلاً شَرُوداً[1] في النَّدَى وَالبَاس
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأقلَّ لِنُورِه مَثَلاً مِنَ المشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ[2]

إذن : فالمثل يأتي لِيُنبِّه الناس ، وليُوضِّح القضية غير المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]

وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا .. (٩٢)﴾ [النحل]

ومنه قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]

ومنه قوله تعالى مُصوِّراً حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[3] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف]

---

(١) المثل الشرود : الخارج من المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة في جدار البيت ليست بنافذة ، وتُعرف في قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

(٣) الهشيم : الحطب والخشب المحطم الذي تكسَّر . والهشيم : النبت اليابس المتكسر . وتهشَّم الشهر تهشماً إذا تكسر من يُبسه . [لسان العرب ـ مادة : هشم] .

فالمثل يُوضِّح لك الخفيّ بشيء جليّ ، يعرفه كل مَنْ سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر[1] الذى أراد أنْ يصفَ لنا الأحدب فيُصوِّره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادعه[2] وَغَاصَ قَذَالُه[3] ... فكأنه مُتربِّصٌ أنْ يُصفَعَا
وكأنما صُفِعَتْ قَفَاهُ مرةً ... وأحسَّ ثانيةً لَهَا فتجمَّعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكفر إذا استغنى ، والفقير إذا رَضِي بالإيمان .

وقوله : ﴿ رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : هما مَحلُّ المثل : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] .

لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فِعليّ في التاريخ[4] ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بنى إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ،

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ، كانَ جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢٩٧/٤] .

(٢) الأخادع : جمع الأخدع . وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٣) القذال : جماع مؤخّر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذل] .

(٤) ذكر الماوردى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٤١٣١/٥) : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً . قال القرطبى : « سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم » .

فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه ، وأن يشترى به أرضاً فى الجنة وقصراً فى الجنة وفضّل الحور العين والولدان فى جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترّ به ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك ، ونتيجة سعْيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ۝٧٨ ﴾ [القصص] فتركه الله لعلْمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ۝٨١ ﴾ [القصص] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان فى المجتمع : كافر يستكبر ويستغنى ويستعلى بغناه ، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية فى قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ۝٣٢ ﴾ [الكهف]

فقد علّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهى من الفاكهة قبل الزرع الذى منه القوت الضرورى ، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب ، وهى للزينة قبل الثياب ، وهى من الضروريات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ .. ۝٣٢ ﴾ [الكهف] نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن

يحافظ على خصوصيات بيته ؛ لأن للإنسان مسكناً خاصاً ، وله عموميات أحباب ، فيجعل لهم مسكناً آخر حتى لا يطَّلع أحد على حريمه ؛ لذلك يسمونه السلاملك والحرملك .

وكذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا(١) (٣٣) ﴾

أي : أعطتْ الثمرة المطلوبة منها ، والأُكُل : هو ما يُؤكل ، ونعرف أن الزراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئاً اليوم ، وشيئاً غداً ، وشيئاً بعد غد وهكذا .

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [الكهف] كلمة (تظْلِم) تعطينا إشارة إلى عمل الخير في الدنيا ، فالأرض وهي جماد لا تظلم ، ولا تمنعك حقاً ، ولا تهدر لك تعباً ، فإنْ أعطيتَها جهدك وعملك جادتْ عليك ، تبذر فيها كيلة تعطيك إردباً ، وتضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف .

إذن : فهي كريمة جوادة شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْث وبَذْر ورعاية وسُقْيا ، وقد تريحك السماء ، فتسقي لك .

---

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٩٠) أن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : نهر أبي فرطس نهر الجنتين . قال ابن أبي حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أنْ يضرب لنا المثل في مضاعفة الأجر ، قال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ .. (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق الأرض ؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أنْ تعطيك على قَدْر تعبك وكدِّك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر لك هذا المجهود ، والنبي ﷺ لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه من العمل قال : « هذه يَدٌ يحبها الله ورسوله »(1) .

يحبها الله ورسوله ؛ لأنها تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي العاجزين عن العمل ، وهَبْ أنك لن تتصدَّق بشيء للمحتاج ، لكنك ستبيع الفائض عنك ، وهذا في حَدِّ ذاته نوعٌ من التيسير على الناس والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأم التي تُجزِل لك العطاء

---

(1) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » قال الهيثمي في المجمع (٤/٦٣) : « رواه الطبراني في الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » وعزاه السيوطي في الدرر المنتثرة (ص ٣٨٨) لابن عساكر ، وله أيضاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

إنْ بررْتَ بها ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألاَ تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرمتها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أمَّنا على وجه التشبيه ، بل هى أمّنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تتحمله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إنْ مات وصار جيفة يأنف منه كل أخ مُحب وكل قريب ، فى حين تحتضنه الأرض ، وتمتصّ كل ما فيه ، وتستره فى يوم هو أحوج ما يكون إلى السَّتْر .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً (٣٣) ﴾ [الكهف] ذلك لأن الماء هو أصلْ الزرع ، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾

أى : لم يقتصر الأمر على أنْ كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذى يُؤتى أكُله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أى : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاورة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾ [الكهف]

دليل على أن ما تقدم ذكره من أمر الجنتين وما فيهما من نعم دعته إلى الاستعلاء هو سبب القول (لصاحبه) ، والصاحب هو : من يصاحبك ولو لم تكن تحبه (يحاوره) أي : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فماذا قال صاحبه ؟ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً .. (٣٤) ﴾ [الكهف] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾ [الكهف] داخلة في قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ (٣٤) ﴾ [الكهف] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) ﴾

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ .. (٣٥) ﴾ [الكهف] ؟ نقول : لأن الإنسان إنْ كان له جنتان فلنْ يدخلهما معاً في وقت واحد ، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنةً واحدةً ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. (٣٥) ﴾ [الكهف] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخي لها عنان الشهوات ، فيحرمها من مشتهيات أخرى ، ويُفوِّت عليها ما هو أبقى وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه ؛ لأن النفس لها جانبان : نفسٌ تشتهي ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة - إذن - جدل بين هذه العناصر ؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التى بين جنبيه ، فإنْ قلت : كيف وأنا ونفسى شىء واحد ؟ لو تأملتَ لوجدتَ أنك ساعة تُحدِّث نفسك بشىء ثم تلوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحوازية شهوانية ، فإنْ مَالتْ النفس الشهوانية أو انحرفتْ قَوَّمتها النفس الفطرية وعَدلَت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهى فى جميع الديانات كان إذا عَمَّتْ المعصية فى الناس ، ولم يَعُدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولاً يرشدهم ويُذكّرهم ، إلا فى أمة محمد ﷺ ؛ لأنه سبحانه حَمَّلهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

وكأنه سبحانه يطمئننا إلى أن الفساد لن يَعُمّ ، فإنْ وُجِد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساسٌ يقوم عليه المجتمع الإسلامى .

ثم يقول تعالى : ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف]

فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنتُه يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار فى خاطره ، وما حدَّث نفسه به حالَ دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغنَى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النعمة ، أو تزولَ هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غرَّهُ واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه

أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا وفقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإنْ قُبِلَتْ منه : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الكهف] فلا يُقبل منه ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] لذلك لما أنكر قيام الساعة هزَّته الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلاً : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] أي : على كل حال إنْ رُددتُ إلى ربي في القيامة ، فسوف يكون لي أكثر من هذا وأعظم ، وكأنه ضمن أن الله تعالى أعدَّ له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لنتأمل قَوْل هذا الجاحد المستعلي بنعمة الله عليه المفتون بها : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] حيث يعرف أن له رباً سيرجع إليه ، فإنْ كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لا تُناقض نفسك ، فما حدثَ منك من استعلاء وغرور وشكٍّ في قيام الساعة يتنافى وقولك (رَبِّي) ولا يناسبه .

و (منقلبَاً) أي : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ[1] ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾

---

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة الذي يُخلق منه الولد . [القاموس القويم ٢/٢٧١] . والنطفة : القليل من الماء . قال ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : نطف] : « وبه سُمّي المنيُّ نطفة لقلته » .

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحاوِراً ومُجادلاً ليجُلِّيَ له وَجْه الصواب : ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشاك من تراب الذى هو أصل خَلْقك ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] وهى أصل التناسل ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : كاملاً مُسْتوياً (ملو هدومك) .

و ﴿ سَوَّاكَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] التسوية: هى إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته فى الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد السَّوِىّ مستقيم ، والخطاف فى نهايته أعوج ، والاعوجاج فى الخطاف هو عَيْن استقامته واستواء مهمته ؛ لأن مهمته أن نخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة فى ﴿ أَكَفَرْتَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] ليست للاستفهام ، بل هى استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقه .

والتراب هو أصلُ الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقه ؛ لأن الله تعالى ذكر فى خلق الإنسان مرة (من ماء)[1] ومرة (من تراب)[2] ومرة (من حمأ مسنون)[3] ومرة (من صلصال كالفخار)[4] .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة فى خَلْق الإنسان ، والحقيقة أنها شيء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإنْ أضفْتَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطْتَ الطين بعضه ببعض

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] .

(٢) ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم] .

(٣) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] .

(٤) يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] .

صار حمأ[1] مسنوناً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صلْصالاً ، إذن : فهى مرحليات لشىء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال :

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله: ﴿ لَّكِنَّا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : لكن أنا ، فحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه ، فإنْ كنت قد كفرتَ بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سوّاك رجلاً ، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقنى ، فقَوْلى واعتقادى الذى أومن به : ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف]

وتلاحظ أن الكافر لم يقُلْ : الله ربى ، إنما جاءتْ ربى على لسانه فى معرض الحديث ، والفرْق كبير بين القولين ؛ لأن الربَّ هو الخالق المتولّى للتربية ، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشكّ فى الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف ؛ لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وأنكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول :﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[الكهف]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أنْ يُعدّى إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعلّم

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مُصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٢٢١] .

صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدى الكافر ؛ لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحِّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وها هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة ، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التى يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها ؟ إنها الأرض التى خلقها الله لك ، وعندما حرثْتها حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه ، والقوة التى أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك فى أىِّ وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شىء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهية إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خُذْ هذا المقعد الذى تجلس عليه مستريحاً وهو فى غاية الأناقة وإبداع الصَّنْعة ، من أين أتى الصُّنَّاع بمادته ؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته

قطعة خشب من إحدى الغابات ، ولو سألتَ الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتْك : من الله .

لذلك يُعلّمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب فى نعمته علينا ، بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

هذه الحبة التى بذرتها فى حقلك ، هل جلستَ بجوارها تنميها وتشدّها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخّر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخرها الله لك ، وذللها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حلّلْتَ أيَّ نعمة من النعم التى لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

---

(١) ليصرمنها : أى : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشىء . [تفسير ابن كثير ٤/٤٠٦] .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) ﴾ [الواقعة]

هذا الماء الذى تشربونه عَذْباً زلالاً ، هل تعرفون كيف نزل ؟ هل رأيتم بخار الماء الصاعد إلى الجو ؟ وكيف ينعقد سحاباً تسوقه الريح ؟ هل دريتم بهذه العملية ؟ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة]

أى : ملْحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتنُّ الله على عبيده بأىّ نعمة يُذكِّرهم بما ينقضها ، فهى ليست من سَعْيهم ، وعليهم أنْ يشكروه تعالى عليها لتبقى أمامهم ولا تزول ، وإلاَّ فلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم !

وكذلك فى مسألة خَلْق الإنسان يُوضِّح سبحانه وتعالى أنه يمنح الحياة وينقضها بالموت ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) ﴾ [الواقعة]

فإنْ كنتم أنتم الخالقين ، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت . فذكر سبحانه النعمة فى الخَلْق ، وما ينقض النعمة فى أصل الخَلْق .

أما فى خَلْق النار ، فالأمر مختلف ، حيث يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

---

(١) أورى القادح زنده : أخرج منه النار . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٦) : « أى : تقدحون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها » .

فذكر سبحانه قدرته فى خَلْق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقُلْ : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خَلْق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخَلْق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخَلْق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا فى النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدها مشتعلة مضطرمة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ[1] (٧٣) ﴾ [الواقعة]

كما نقف فى هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودقَّة الأداء القرآنى ؛ لأن المتكلم ربٌّ يتحدث عن كل شىء بما يناسبه ، ففى الحديث عن الزرع - ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرْث والبذْر والسَّقْى وغيره - نراه يؤكد الفعل الذى ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما فى الحديث عن الماء - وليس للإنسان دخل فى تكوينه - فلا حاجةَ إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] دون توكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً فى هذا الماء الذى ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذى ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلِّمه كيف

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، يعنى بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها . وقال مجاهد : يعنى المستمتعين من الناس أجمعين ، وكذا ذكر عن عكرمة . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٧) : « وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع » .

يستقبل نعمة الله عليه : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ..(٣٩)﴾ [الكهف] (لَوْلاَ) بمعنى : هلاَّ وهي للحثِّ والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه في المرآة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفي الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت »[1] .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلْهيكَ النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أي : أن هذا كله ليس بقوتي وحيلتي ، بل فضل من الله فتردَّ النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها ، وضمنْتَ بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليها صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضي الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن ، فكان يقول في الخوف : « عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ (١٧٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال ﷺ : « ما أنعم الله على عبد من نعمة في أهل ولا مال فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٤٠) وقال : « رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » .

(٢) انقلبوا : رجعوا . قال ابن منظور في اللسان : « الانقلاب : الرجوع مطلقاً » . [لسان العرب ـ مادة : قلب] .

وعجبتُ لمن اغتمَّ - لأن الغَمّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شيء لا يعرف سببه - وعجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء] ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] وكأنها (وصْفة) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبيِّ الله يونس عليه السلام .

فقول المؤمن الذى أصابه الغم : ﴿ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : لا مفزع لى سواك ، ولا ملجأ لى غيرك ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصير ، فلعل ما وقعتُ فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسى هو سبب هذا الغم الذى أعانيه .

وعجبتُ لمن مُكر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [غافر] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥) ﴾ [غافر] فالله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها - صاحب الطموحات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها - كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠) ﴾ [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذى لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذى يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلّب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير فى الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩) ﴾ [الكهف]

ويستطرد المؤمن ، فيُبيِّن لصاحبه ما عيَّره به من أنه فقير وهو غنى ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) ﴾ [الكهف]

ثم ذكَّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدِّل هذا الحال ، فقال :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا(١) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه ؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه :(ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْتَ الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم] .

فقوله : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ (٤٠) ﴾ [الكهف] أى : ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوِّلها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرةَ لك على جلْبها من البداية . إذن : يمكن أنْ يعطينى ربى نعمة مثل نعمتك ، فى حين تظل نعمتك كما هى ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها :

---

(١) الحسبان : العذاب المحسوب المقدَّر كالصواعق المدمرة . [القاموس القويم ـ ١/١٥٢] .

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] هذه النعمة التى تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْباناً .

والحُسْبان : الشيء المحسوب المقدَّر بدقَّة وبحساب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطةً على نظام دقيق لا يختلّ ، مثل الساعة لا تستطيع أنْ تعرفَ بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حسباناً لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشأ على حُسْبان .

وحَسب حُسْباناً مثل غفر غفراناً ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التى اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتنى كما أصابت غيرى .. لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ صَعيداً أى : جدباء يعلُوها التراب ، ومنه قوله تعالى فى التيمُّم : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] ليس هذا وفقط ، بل ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشى عليه .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

(غَوْراً) أى : غائراً فى الأرض ، فإنْ قُلْت : يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله فى أىّ حيلة يفكر فيها : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف] أى : لن تصل إليه بأىّ وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] رجاء لم يحدث بَعْد ، ولم يصل إلى إيقاعيات القدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكان الله تعالىٰ استجاب للرجل المؤمن ولم يُكذّب توقّعه ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] أحيط : كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

وتلاحظ انه سبحانه قال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله ؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشىء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنى قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدّ ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع.

ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صـاحب الجنة وأسفه عليها : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : يضرب كفّـاً بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوتاً لا يدرى ما يقول ، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها .

ويُقلِّب كفَّيْـه على أىِّ شىء ؟ يُقلِّب كفيه ندماً على ما أنفـق فيها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] خاوية : أى خَرِبة جَـرْداء جَدْباء ، كما قـال سبـحانه فى آية أخـرى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليهـا الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشـها ، وجعلت عـاليها سـافلها ، فوقع العـرش أولاً ، ثم تهدَّمتْ عليه الجدران .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] بعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام ، فراحَ يضرب كفّـاً بكفٍّ ، أفاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القـولىّ الفورى : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها :

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

أى : ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذى حلَّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذى حاقَ بجنته ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : ما كان ينبغى له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

هنالك : أى فى وقت الحالة هذه ، وقتَ أنْ نزلتْ الصاعقة من السماء ، فأتتْ على الجنة ، وجعلتها خاوية على عروشها ، هنالك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله ، فقوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى : فى الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكَد والكدَر .

و﴿ هُنَالِكَ ﴾ جاءت فى القرآن فى الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقاً : ﴿ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكان زكريا ـ عليه السلام ـ هو المتكفّل بها ، الذى يُحضر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يأتِ بها سألها من أين ؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فأطمع هذا القولُ زكريا فى فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

و(الوَلاَيةُ) أن يكون لك ولىٌّ ينصرك ، فالولىّ هو الذى يليك ، ، ويدافع عنك وقت الشدة ، وفى قراءة أخرى [1] : (هُنَالِكَ الْوِلاَيَةُ) .بكسر الواو بمعنى الملك ، كما فى قوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف] لأنه سيجازى على العمل

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤١٤٢/٥) : « قرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الولاية » بكسر الواو ، والباقون بفتحها ، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الولاية بالفتح من الموالاة ، وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق » .

الصالح بثواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف] أى : خير العاقبة بالرزق الطيب فى جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنىّ الكافر ، والفقير المؤمن ، وبيّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغرُّه النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعمَ سبحانه دائماً على بالك ، كى يحافظ لك على نعمتك وإلا لكُنْتَ مثلَ هذا الجاحد الذى استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت .

وهذا مثل فى الأمر الجزئى الذى يتعلق بالمكلّف الواحد ، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئىّ إلى المثل العام ، فقال تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ[1] وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يوضح المجهول لنا بما علِم لدينا . وأهل البلاغة يقولون : فى هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه سبحانه شبّه حال الدنيا فى قصَرها وسرعة زوالها بالماء الذى نزل من السماء ، فارتوتْ به الأرضُ ، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ،

---

(١) تذروه الرياح : تفرقه . قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : تنسفه . وقال ابن كيسان : تذهب به وتجيء . وقال ابن عباس : تديره . قال القرطبى فى تفسيره (٤١٤٢/٥) « والمعنى متقارب » .

ولكن سرعـان ما يذبلُ هذا النبـات ويصير هشـيماً مُـتفتتاً تذهب به الريح .

وهذه صورة ـ كمـا يقولون ـ منتزعة من مُتـعدِّد . أى : أن وجه الشبـه فيهـا ليس شيئاً واحداً ، بل عدّة أشـياء ، فإن كـان التشبـيه مُركّبـاً من أشيـاء متعـددة فهو مَـثَل ، وإنْ كان تشـبيه شىء مـفرد بشىء مفـرد يُسمُّـونه مثْل ، نقـول : هذا مثْل هذا ، لذلك قـال تعالى ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ (٧٤)﴾ [النحل] ؛ لان لله تعالى المثل الاعلى .

وهكذا الدنيـا تبدو جمـيلة مُزهرة مُـثمـرة حُلْوة نَضرة ، وفـجأة لا تجد فى يديك منها شيئاً ؛ لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحى بالحقارة ، وإلا فأىّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصـفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيا .

وكأن الحق سـبحـانه يقول لرسوله ﷺ : كـما ضربـتُ لهم مَثَل الرجلين وما آل اليه امرهما اضرب لهم مـثل الحياة الدنيا وأنها تتقلّب بأهلها ، وتتبدل بهم، واضرب لهم مثلاً للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ (٤٥)﴾ [الكهف] أى : اختلط بسـببه نبات الارض ، وتداخلَ بعضهُ فى بعض ، وتشابكتْ اغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات فى الأرض الخصبْـة ، أما إنْ كانت الارض مالحة غير خِصبْة فإنها تُخرِج النبات مفردًا ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النـبـات على حـال خُـضْـرته ونضـارته ؟ لا ، بل سرعان مـا جفّ وتكسّر وصار هشيـماً تطيح به الريح وتذروه ، هذا مثلٌ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيّن ، كما قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا.. (٢٤)﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضده ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزّ وأذلّ ، وقبض وبسط ، وضرّ ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذى اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿الْمَالُ(١) وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾

تلك هى العناصر الأساسية فى فتنة الناس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزّ أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

كما أن البنين لا تأتى إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

---

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال فى الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب ـ مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةٌ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعِزّة ، وربما يُرزَق الولد ويرى الذُّلَّ على يديه ، وكم من المشاكل تُثار فى البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إذن : فالعُقْم فى ذاته نعمة وهبَة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لَعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعلَ كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عِـزْوة وعـزّة . ونسى أن عزة المؤمن بالله لا بغيـره ، ونقول :والله لو اسـتقبلت الـبنت بالفرح والرضا على أنها هبَـة من الله لكانتْ سبباً في أن يأتي لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتي هي لك بالولد الذي يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المـال والبنون من زينة الحـياة وزخـرفـها ، وليسـا من الضـروريات ، وقد حـدد لنا النبي ﷺ الدنيـا ، فـقال : « من أصـبح مُعَـافىً في بدنه ، آمناً في سِـرْبه ـ أي : لا يهدد أمنه أحـد ـ وعنده قُوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »[1]

فما زاد عـن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسـان – إذن – يستطيع أن يعـيش دون مال أو ولد ، يعـيش بقـيم تعطى له الخـير ، ورضـاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

لأن المـال والبـنين لن يدخـلا مـعـك القـبـر ، ولن يمـنعـاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيـات الصالحات . والنبى ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة – رضى الله عنها ـ تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف[2] ؛ لأنه لَحْم رقيق خـفيف ؛ لذلك احـتفظتْ

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٤٦) ، وابن ماجه في سننه (٤١٤١) والحميدي في مسنده (٤٣٩) من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وكانت له صحبة . قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي » (ص ٢٠١) وأورده السيوطي في « الجامع الصغير » (٥/٨٥) وعزاه لأبي نعيم عن ابن عباس ، وأشار إليه بالضعف ، وأخرجه البخاري (٤٧١٢) بنحوه عن أبي هريرة قال : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

لرسول الله بالكتف وتصدقت بالباقى ، فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعتِ فى الشاة » ؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[1].

وفى حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ »[2]

وهذا معنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات فى الحياة إذن ؟ الضروريات فى الحياة هى كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهى أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهى النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هى الدين ومنهج الله والقِيَم التى تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التى يخلدون بها فى النار .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتى على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

﴿ .. خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦ ﴾ [الكهف]

والأمل : ما يتطلع إليه الإنسان مما لم تكُنْ به حالته ، فإنْ كان عنده خير تطلّع إلى أعلى منه ، فالأمل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هذا يُبيِّن لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأننا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً[1] وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ ﴾

أي : اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهي هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسيِّر الجبال التي تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقوتها وصلابتها ، وهي باقية على حالها .

ومعنى تسيير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾ [النبأ]

وقال في آية أخرى ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾ [التكوير] وقال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ ﴾ [المرسلات] وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[2] ۝٩ ﴾ [المعارج]

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت في الحياة الدنيا ، وإلا ففي الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ،

---

(١) أي : ترى الأرض ظاهرة ليس عليها ما يسترها من مساكن أو أشجار أو غيرها . [القاموس القويم ١/٦٣] .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ بأي لون أو بألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/٤٠] .

والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أولَى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

الأرض : كُلّ ما أقلّك[1] من هذه البسيطة التى نعيش عليها ، وكل ما يعلوك ويُظلُّك فهو سماء ، ومعنى : (بَارِزَةً) البَرَازُ : هو الفضاء ، أى : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمبانى والأشجار ، حتى البحر الذى يغطى جزءاً كبيراً من الأرض .

كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها ، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المبانى ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحتْ فضاء واسعاً ، ليس فيه مَعْلَمٌ لشىء .

ومن ذلك ما نُسمِّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لى بره) أى : فى مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتمى به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أى : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أي : لم نترك منهم واحداً ، الكلُّ معروض على الله ، وكلمة ﴿ نُغَادِرْ ﴿٤٧﴾ ﴾[الكهف] ومادة (غدر) تؤدى جميعها معنى الترْك ، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة .

---

(١) أقلّ الشىء واستقله : حمله ورفعه . فالأرض تُقلّنا لأنها تحملنا على ظهرها . [لسان العرب ـ مادة : قلل] .

حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّي غديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً في المواطىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف] العرض : أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظماً يدلّ على كُلِّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود في العرض العسكري مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفّاً) أي : صُفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتي صُفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر]

أي : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفي ، ولن يكون لأحد منها مفَرٌّ ، وهي صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .

وفي الحديث عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : « يَحشر الله الخَلْق ثم ينادي : يا عبادي أحضروا حُجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحَاسَبُون مَسْئولون ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »[1] .

ولك أنْ تتصوَّر المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميه ؛ لأن ثقل الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف ، وعلى

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٥/٤١٤٨) وعزاه لأبي القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد من حديث معاذ بن جبل ، وكذا السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٠٠) .

المقعدة فى حال الجلوس ، وعلى الجسم كله فى حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التى هو عليها ، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين ، فلا شكَّ أنه وَضْع مؤلم وشاقّ ، يصعُب على الناس ، حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٤٨) ﴾ [الكهف]

أى : على الحالة التى نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّل هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ(١) وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى :﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾[الكهف]

والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب ﴿ زَعَمْتُمْ (٤٨) ﴾[الكهف] والزعم مطيّة الكذب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا(٢) وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

---

(١) خوّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/٢١٤] .

(٢) الإحصاء : العد والحفظ . وفى أسماء الله تعالى : المحصى ، هو الذى أحصى كل شىء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل . وأحصى الشىء : أحاط به . [لسان العرب ـ مادة : حصى] .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] أي : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهي - إذن - صور متعددة ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة]

إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة .

﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] أي : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ، ليُفزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون في وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتي نزوع القول : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانك فاحضري .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم - عليه السلام - لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت في ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة]

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة] يا هلاكى كان يتحسَّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة ؛ لكى لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر فى كُتبهم ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾

تكررتْ قصة سجود الملائكة لآدم ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن الكريم ، وفى كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطةً معينة ، والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أنْ تذكروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكَّروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أنْ يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذا العداوة ، فإذا حدَّثكم بشيء فاذكروا عداوته لكم .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يُحذِّرنا من إبليس فإنه يُربِّى فينا المناعة التى نُقاومه بها ، والمناعة أنْ تأتىَ بالشيء الذى يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعه فى الجسم فى صورة مكروب خامد ، وهذا هو التطعيم الذى يُعوِّد الجسم على مدافعة المرض وتغلُّب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكِّرنا ما كان

منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله :
﴿أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء]

فانتبهوا ما دُمنا سنُسيِّر الجبال ، ونُسوِّى الارض ، ونحصر لكلٍّ كتابه ، فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أُذكِّركم من الآن فى وقت السَّعة والتدارك، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والأمر هنا جاء للملائكة : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمَرُون . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعنى الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذى أمركُم أنْ تكونوا فى خدمته .

لذلك سمَّاهم : المدبِّرات أمراً ، وقال تعالى عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفى خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعلَه فى خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستباله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه ، والمعنى : أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

(٢) أى : لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٢٦] .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحسَمَتْه ، فقال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذى يُوضّح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألاَّ يفعل ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذى خلقكم ورزقكم ، فكان أوْلَى بهذه الولاية .

و ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل مَنْ كان على طريقته فى الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُوراً .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذى أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم ولياً ، وتتركوا ولاية الله الذى أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾

---

(١) الزخرف : الزينة . وزخرف القول : حُسْنه بتزيين الكذب . [لسان العرب - مادة : زخرف] .

إن هذا الشيطان الذى واليتموه من دون الله ، وأعطيتموه الميْزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خَلْق السموات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خَلْق السموات والأرض كان قبل خَلْقهم ، وكذلك ما شَهِدوا خَلْق أنفسهم : لأنهم ساعة خلقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكى يخبروكم .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] أى : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونونى فيه .

والعَضُد : هو القوة التى تُسعفك وتسندك ، وهو مأخوذ من عَضُد الإنسان ، حيث يزاول أغلب أعماله بيديه ، وحين يزاول أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكُلٌّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّم أو موتور هو العضد ، وفى حركة اليد ودقتها فى أداء مهمتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دقَّة الصَّنْعة .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكى يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرِّك يدك كما شئتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكِّر فيها دون جهد منك أو تدبير ؟

فكل أجزائك مُسخَّرة لإرادتك ، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أنْ تظن أنك خَلْق ميكانيكى ، بل أنت صَنْعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقف جزءاً منك أمر المخ أنْ يقطعَ صِلَته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة موسى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] أى : نُقوِّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يعني : واذكر يا محمد ، ولتذكُرْ معك أمتك هذا اليوم ﴿ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائى الذين اتخذتموهم من دوني . وزعمتم : أى : كذبتم فى ادعائكم أنهم آلهة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف]

وهذا من سماجتهم وتبجُّحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذَّبوه ، لكنهم تمادَوْا ﴿ فَدَعَوْهُمْ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم مَنْ قالوا : عيسى ، ومنهم مَنْ قالوا : العزير ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم مَن اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم مَنْ عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهم ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنَّا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طَوْعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

ولكن ، أنَّى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعتْ بينهم الصلات ، وانقطعت

حجتهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٥٢)﴾ [الكهف] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً سحيقاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢)﴾ [الكهف]

والمَوْبِق : المكان الذى يحصل فيه الهلاك ، وهو وادٍ من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعى والمدعو مكاناً مُهلكاً ، فلا الداعي يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتصرَ للداعي ويُسعفه ، لأن بينهم منبعَ هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤)﴾ [الشورى] يعنى : يهلكهن .

ومن العجيب أن تكون هذه أولَ إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ (٥٢)﴾ [الكهف] استجابوا لهذا الأمر ، فى حين أنهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾

رأى : الرؤية : وقوع البصر على المرئيّ ، والرؤية هنا ممَّن سيُعذَّب فى النار ، وقد تكون الرؤية من النار التي ستعذبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

أى : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله . إذن : فالرؤية هنا مُتبَادلة : المعذِّب والمعذَّب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء فى قول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى : يوقنون .

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : فى حين أن بينهما مَوْبقاً ، وأيضاً لا يجدون مفراً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِق موجود ، والمصْرِف مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشيء إلى أشياء متعددة ، كما يصرِّف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتى من ناحية واحدة ، بل تأتى مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صرَّف الله الأمثال . أى : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها .

والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسٌ ليتفهموه تفهّماً دقيقاً .

وما دام أن الحق سبحانه صرَّف فى هذا القرآن من كل مثَل ، فلا عُذْر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتَّى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمى يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته ، بل وأكثر

من ذلك ، فالمتخصص فى أىِّ علم من العلوم يجد فى كتاب الله أدقّ التفاصيل ؛ لأن الحق سبحانه بيَّن فيه كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف]

أى : كثير الخصومة والتنازع فى الرأى . والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه . والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبرر مذهبك ولو خطأً ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذى يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى أو الأغراض .

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وقال: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

والنبى ﷺ لما مرَّ على علىٍّ وفاطمة - رضى الله عنهما - ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدو أنهما كانا مستغرقيْن فى نوم عميق ، فنادى عليهما ﷺ « ألا تصلون ؟ »[1] فردَّ الإمام على قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبى ﷺ وقال : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أنْ يُدلِّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٧٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٠٦) كتاب صلاة المسافرين ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٤٧) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولو دققتَ في رأيه لوجدتَ له هوىً يسعى إليه ويميل إلى تحقيقه ، وترى ذلك واضحاً إذا اخترتَ أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلاً لأنه أسهلها وأقربها ، فإذا به يقترح عليك طريقاً آخر ، ويحاول إقناعك به بكل السُّبل . والحقيقة أن له غرضاً في نفسه وهوىً يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

ما الذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن ، وصرَّفنا فيه من الآيات والأمثال ، وبعد أن جاءهم مطابقاً لكل الأحوال ؟

وفي آية أخرى ، أوضح الحق سبحانه سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فكلُّ هذه التعنّتات وهذا العناد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان بالله ، والحق سبحانه وتعالى حينما يأتي بآية طلبها القوم ، ثم

لم يؤمنوا بها يُهلكهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ..(٥٥)﴾ [الكهف] فهذه هى الآية التى تنتظرهم : أن تأتيهم سُنَّة الله فى إهلاك مَنْ كذَّب الرسل .

فقبل الإسلام ، كانت السماء هى التى تتدخل لنُصْرة العقيدة ، فكانت تدكُّ عليهم قُراهم ومساكنهم ، فالرسول عليه الدعوة والبلاغ ، ولم يكن من مهمته دعوة الناس إلى الحرب والجهاد فى سبيل نَشْر دعوته ، إلا أمة محمد فقد أمِنَها على أن تحمل السيف لتُؤدِّب الخارجين عن طاعة الله .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أى : على ما فات من المهاترات والتعنُّتات والاستكبار على قبول الحق ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أى : بهلاك المكذبين ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)﴾ [الكهف] أى مُقابِلاً لهم ، وعياناً أمامهم ، أو (قُبُلاً) جمع قبيل ، وهى ألوان متعددة من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] أى : لهم عذاب غير النار ، فألوان العذاب لهم متعددة .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا ييأس لعمل الكفار ، ولا يهلك نفسه أسفاً على إعراضهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾

قلنا : إن الجدل قد يكون بالحق ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الذين كفروا هنا ، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كل الحِيَل لدحْض

الحق أى : ليُبطلوه ويزيلوه ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۞ ﴾ [الكهف] أى : الآيات الكونية التى جاءت لتصديق الرسل ، وكذلك آيات القرآن ، وآيات الأحكام اتخذوها سُخْرية واستهزاءً ، ولم يعبأوا بما فيها من نذارة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا(1) وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۞ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. ۞ ﴾ [الكهف] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأنْ يدَّعى صاحبك أنك لم تصلْه ، ولم تصنع معه معروفاً ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معكَ كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .

إنما لو عرضْتَ المسألة على سبيل الاستفهام فقُلْتَ له : ألم أصنع معك كذا ؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شيء من خَصْم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ .. ۞ ﴾ [الكهف] ؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن : لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

---

(1) وقرت أذنه : ثقل سمعها . أو صمَّتْ . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

وقوله ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] تركها ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] نسى السيئات ، وكان من الواجب أن يتنبه إلى هذه الآيات فيؤمن بها ، لعل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيبدل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف]

أكنة : أغطية جمع كِنّ ، فجعل الله على قلوبهم أغطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحت به صدورهم زادهم منه ؛ لأنه رَبٌّ يعطي عبده ما يريد .

كما قال عنهم في آية أخرى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى في هذا المعنى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة]

ومعنى : ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : يفهموه ، يفهموا آيات الله ؛ لأنهم سبق أنْ ذُكِّروا بها فأعرضوا عنها ، فحرمهم الله فقهها وفهمها .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : صمم فلا يسمعون ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] وهذا أمر طبيعي ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسدَّ عليهم منافذ العلم والهداية ؛ لأن الهدى ناشىء من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبُكَ بالرضا ، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام ،

فتسمع بالأذن ، وتقبل بالقلب ، وتنفعل بالجوارح طاعة والتزاماً بما أُمرتْ به .

وما دام في الأذن وَقْر وصَمَمٌ فلن تسمع ، وإنْ سمعتْ شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلا بما شُحِن به القلب من عقائد .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا(١) ﴿٥٨﴾ ﴾

فمن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم ، بل أمهلهم وتركهم ؛ لأن لهم موعداً لن يهربوا منه ، ولن يُفلتوا ، ولن يكون لهم ملْجأ يحميهم منه ، ولا شكَّ أن في إمهالهم في الدنيا حكمة لله بالغة ، ولعل الله يُخرج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به ، ومَنْ يحمل راية الدين ويدافع عنه ، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام ، فمنْ ظَهْر أبي جهل جاء عكرمة ، وأمهل الله خالد بن الوليد ، فكان أعظمَ قائد في الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

تلك : أداة إشارة لمؤنث هي القرى ، والكاف للخطاب ، والخطاب هنا للنبي ﷺ ، وأمته منْضوية في خطابه ؛ لأن خطابَ الرسول

---

(١) الموئل : الملجأ أو المكان للنجاة . وأل إليه يئل : لجأ إليه فراراً . ووأل من المكروه : نجا منه أو : نجا من خطر يتهدده . [القاموس القويم ٣١٧/٢] .

خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسّ ، كما جاء في قوله تعالى :﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] .

فأين هذه القُرَى ؟ وهل كان لها وجود على عهد النبى ﷺ ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراها النبى ﷺ ويراها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم صالح ، وقرى قوم لوط ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

إذن : فتلك إشارة إلى موجود مُحَسّ دالّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حلّ بها من بأسه الذى لا يُردّ عن القوم الظالمين .

وكلمة (القرى) جمع قرية ، وتُطلَق على المكان الذى تتوفّر فيه مُقوِّمات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات ومُقوِّمات الحياة العادية ؛ لأن القرية لا تُطلَق إلا على مكان تتسع فيه مُقوِّمات الحياة اتساعاً يكفى لمن يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرَى[1] . فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أمّ ، نسميها (أم القرى)[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) القرى : طعام الأضياف . والمقرى : كل ما يؤتى به من قرى الضيف من قصعة أو جفنة . [لسان العرب ـ مادة : قرى] .

(٢) وقد جاء هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى قاصداً مكة المكرمة ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : اذكر يا محمد وقت أنْ قال موسى لفتاه ، وفتى موسى هو خادمه يوشع ابن نون ، وكان من نَسْل يوسف ـ عليه السلام ـ وكان يتبعه ويخدمه ليتعلم منه .

﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف]

لكن ، ما حكاية موسى مع فتاه ؟ وما مناسبتها للكلام هنا ؟

مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبى ﷺ ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم فى محمد : أهو مُحقٌ أم لا ؟ فقال اليهود لوفد مكة : اسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبى : اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر ، والرجل الطواف الذى طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : « فى الغد أجيبكم »[1] .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، فلو كان محمد ﷺ يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابهم ، لكنه سكت إلى أن يأتى الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه الذى أدَّبه فأحسن تأديبه .

ومرَّتْ خمسة عشر يوماً دون أن يُوحَى لرسول الله فى ذلك شىء ، حتى شقَّ الأمر عليه ، وفرح الكفار والمنافقون ؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة ليندوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شىء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم فى

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٧١/٣) وعزاه لمحمد بن إسحاق من قول ابن عباس رضى الله عنهما عن وفد قريش إلى أحبار يهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد ﷺ وصفته .

هذه المسألة إلا بوحي من الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رأيه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطْءَ في هذه المسألة دليلٌ صدق النبي ﷺ ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتردَّ على مهاترَات القوم ، وتُبيِّن لهم أن النبي لا يعلم كل شيء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شيء ؟ وهل يقدح في مكانته أنه لا يعرف مسألة ما ؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفار مكة : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية ، وها هو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يا مَنْ لقنتم كفار مكة هذه الأسئلة وأظهرتم الشماتة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحي ، اعلموا أن إبطاء الوحي لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أنْ تلفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام ـ يُقال : إنه سأل الله ـ وكان له دلال على ربه : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف] والذي أطمعه في هذا المطلب أن الله كلَّمه ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] فأطال موسى الكلام مع ربه ، ومَنْ الذي يكلمه الله ولا يطيل أمد الأُنْس بكلام الله ؟ لذلك قال موسى : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

(١) هش الشجر : ضربه بعصا ليسقط ورقه لتأكله الماشية . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي.. ﴿١٨﴾﴾ [طه] . أي : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

وهكذا أطال موسى مدة الأنس بالله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأله : يا ربِّ ، أيوجد في الأرض أعلم مني ؟ فأجابه ربُّه تبارك وتعالى : نعم في الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فاذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدي هو أعلم منك ، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مَجْمع البحرين .

وقد ورد في حديث رسول الله ﷺ أن موسى - عليه السلام - خطب مرة فسُئل : مَنْ أعلم ؟ فقال : أنا - يعني من البشر ، فأخبره الله تعالى : لا بل في الأرض مَنْ هو أعلم منك من البشر[1] حتى لا يغترّ موسى - عليه السلام - بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ..﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]

لا أبرح : أي لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعني : لا أترك مكاني الذي أنا فيه ، لكنها تعني : لا أترك ما أنا بصدده ، فإنْ كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإنْ كنتُ ماشياً لا أترك المشي ، وقد قال موسى - عليه السلام - هذا القول وهو يبتغي بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردتْ مادة (برح) في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذي أخذ عليهم العهد والميثاق أنْ يأتوا به ويُعيدوه إليه .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٢٥-٤٧٢٧) في تفسير آية : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف] . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٥) من حديث أبيّ بن كعب .

و « مجْمَع البحرين » أي : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقي مثلاً دجلة والفرات في شطّ العرب .

وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف]

الحُقُب : جمع حِقْبة ، وهي الفترة الطويلة من الزمن ، وقد قدّروها بحوالي سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى ـ عليه السلام ـ مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الحقْبة سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سرْتُ مائتين وعشرة سنين ؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشُوقاً إلى رؤية هذا الرجل الأعلم منه ، كيف وهو النبي الرسول الذي أوحى الله إليه ؛ لذلك أخبره ربه أن علْم هذا الرجل علم من لدنا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا[1] فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾

(بَلَغَا) أي : موسى وفتاه (مجْمَعَ بينهما) أي : مجمع البحرين (نَسِيَا حُوتَهُمَا) أي : حدث النسيان منهما معاً ، وإنْ كان حمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه ، فكان على موسى أنْ يُذكِّره به ، فرئيس القوم لابدَّ أن يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرَّكْب ، وكانت العادة أنْ يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقده وينظر لعل واحداً نسي شيئاً ، إذن : كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذكِّر فتاهُ بما معهم من لوازم الرحلة .

---

(١) الحوت : السمكة كبرت أو صغرت والجمع حيتان . [القاموس القويم ١/١٧٦] .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفى بعض البلاد يُطلقون على كل سمك حُوتاً ، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاءوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوى فى مكتل [1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الكهف] أى : خرج الحوت المشوى من المكتل ، وتسرَّب نحو البحر ، والسَّرَب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القِرْبة مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء فى القِرْبة أعلى فيتسرَّب منها ، وهَذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المَشوىّ ، وتعود له الحياة ، ويتوجَّه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾

أى : جاوزا فى سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى ـ عليه السلام ـ لفتاه : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنَّصَب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

---

(١) المكتل : الزِّنبيل الذى يُحمل فيه التمر أو العنب إلى الجرين . وقيل : المكتل شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً . [لسان العرب ـ مادة : كتل] .

هذا كلام فتى موسى : أرأيت : أخبرني إذْ لجأنا إلى الصخرة عند مَجْمع البحرين لنستريح ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٣)﴾ [الكهف] ونلحظ أنه قال هنا (نَسيتُ) وقال في الآية السابقة ﴿نَسِيَا ..(٦١)﴾ [الكهف] ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرف في كلّ شيء ؛ لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير في شيء ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسِيه ما هو منُوط به من أمر الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. (٦٣)﴾ [الكهف] فالشيطان هو الذي لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكْر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف] أي : اتخذ الحوتُ طريقه في البحر عَجَباً ، في الآية السابقة قال ﴿سَرَبًا (٦١)﴾ [الكهف] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول (عَجَباً) لأنه يحكي ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشويّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من العجائب ؛ لأنها خرجتْ عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

أي : قال موسى ـ عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ .. (٦٤)﴾ [الكهف] أي : نطلب ، فهذا المكان الذي فُقِد فيه الحوت هو المكان المراد ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف

عنوان المكان ، وهو مَجْمع البحرين ، حيث يلتقى البحران فيصيران بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلاَّ فى مسرح بنى إسرائيل فى سيناء . وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، ويلتقيان فى بحر واحد عند راس محمد[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، ومعنى ﴿ قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : بدقة إلى أنْ وصلاً إلى المكان الذى تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذى ضربه الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ حيث سيجد هناك العبد الصالح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإنْ كانت لله تعالى فهى العزّ والشرف ، وإنْ كانت لغير الله فهى الذلُّ والهوان ، وقلنا : إن النبى ﷺ لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء]

كما أن العبودية لله يأخذ فيها العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده .

---

(١) قال قتادة عن مجمع البحرين : هو بحر فارس والروم . وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم (أى : خليج السويس) . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة . قاله محمد بن كعب . [تفسير القرطبى ٤١٦٢/٥] .

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] وقد تكلم العلماء فى معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردتْ فى القرآن بمعنى النبوة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فكان ردُّ الله عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ.. (٣٢)﴾ [الزخرف]

أى : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل ـ عليه السلام ـ وعلى يد الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿آتَيْنَاهُ .. (٦٥)﴾ [الكهف] نحن ، وقال : ﴿مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] فالإتيان والعنْدية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] أى : من عندنا لا بواسطة الرسل ؛ لذلك يسمونه العلم اللدنى ، كأنه لا حرجَ على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويُنعم عليه بعلم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أنْ نُفرِّق بين علم وفيوضات تأتى عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تأتى من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده ؛ لأن الرسول يأتى بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علَل باطنة فوق العلل الظاهرية ، وهذه هى التى اختصَّ الله بها هذا العبدَ الصالح (الخضِر) كما سماه النبى ﷺ .

والدليل على ذلك أن النبى يأتى بأحكام تُحرِّم القتل وتحرِّم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الأعمال ؛ لأنه لا علْمَ له بعلتها ، ولو أن موسى ـ عليه السلام ـ علم العلّة فى خَرْق السَّفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلم موسى غير علم الخضر ؛ لذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝٦٨ ﴾ [الكهف]

فهذا علم ليس عندك ، فعلمي من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما في الحقيقة لا يتعارضان ، وإنْ كان لعلم الولاية علّة باطنة ، ولعلم الرسالة علّة ظاهرة .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ ﴾

كان موسى عليه السلام يُعلّمنا أدب تلقّي العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقُل له مثلاً : إن الله أمرني أن أتبعك ، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ .. ۝٦٦ ﴾ [الكهف]

والرشد : هو حُسْن التصرّف في الأشياء ، وسداد المسلك في علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشْد يكون في سنِّ البلوغ ، لكن لا يعني هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ .. ۝٦ ﴾ [النساء] أي : اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال في كفالتك ، فعليك أنْ تكلّفه بعمل ما لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرّف فيه تحت عينك وفي رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أنْ تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله فى مَعْزل عنها إلى أنْ يبلغَ الرشْد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإنْ فشل كانت التجربة فى ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتمُّ وهو ما يزال فى ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] وهو سن البلوغ ، ولم يقُلْ بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] فعلى الوصىّ أنْ يُراعىَ هذا الترتيب :

أنْ تُراعى اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به فى مُعْتَرك الحياة وتجاربها حتى يتمكّن من مواجهة الحياة ولا يتخبط فى ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإنْ علمت رُشْده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرّف فيه ، فإنْ لم تأنسْ منه الرشد وحُسْن التصرف فلا تترك له المال يُبدّده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى فى هذا المعنى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ؛ لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهِه ، بل هو مالكم لِتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشْده .

إذن : فالرشد الذى طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة فى تناول الأشياء ، لكن هل يعنى ذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً فى مذهبه هو كرسول ، راشداً فى تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذى طلبه فهو الرشد فى مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح فى

مكانة النبوة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]

لذلك يقول الشاعر :

كُلَّما ازْدَدْتُ عُلوماً زِدْتُ إيقَاناً بجهْلِي

لأن معنى أنه ازداد علماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلمَ غداً .

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محباً للعلم ، تراه كلما علم قضية اشتاق لغيرها ، فهو في نَهمٍ دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال »[1] .

والشاعر الذي تنبَّه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزَّهْو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قالتِ النفسُ قدْ علِمتُ كثيراً قلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسيرُ

ثم جاء بمثل توضيحي :

تملأُ الكُوزَ غَرْفَةٌ مِنْ مُحِيط فيَرى أنَّهُ المحيطُ الكَبِيرُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾

هنا يبدأ العبد الصالح يُملي شروط هذه الصُّحْبة ويُوضّح لموسى ـ عليه السلام ـ طبيعة علْمه ومذهبه ، فمذهبُك غير مذْهبي ، وعلمي من كيس غير كيسك ، وسوف ترى مني تصرفات لن تصبر عليها ؛

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢٢٣) (حديث ١٠٣٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/١٣٥) : « فيه أبو بكر الداهري وهو ضعيف » .

لأنه لا علْم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عُذْراً على عدم صَبْره معه ؛ لذلك يقول :

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾

فلا تحزن لأني قُلت : لن تستطيع معي صبراً ؛ لأن التصرفات التي ستعترض عليها ليس لك خُبر بها ، وكيف تصبر على شيء لا عِلْمَ لك به ؟

ونلحظ في هذا الحوار بين موسى والخضر[1] - عليهما السلام - أدبَ الحوار واختلافَ الرأي بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلاً منهما يقبل رأيَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويكفِّر بعضهم بعضاً ، فإذا رأوا مثلاً عبداً من عباد الله اختاره الله بشيء من الفيوضات ، فكانت له طريقة وأتباع نرى مَنْ ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلَّى في قول الخضْر : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف] مظهر من مظاهر أدب المعلِّم مع المتعلِّم ، حيث احترم رأيه ، والتمس له العذْر إن اعترض عليه ، فلكُلٍّ منهما مذهبه الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

(١) قال مجاهد : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء » ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٤١٦٩) .

أى : أنا قابل لشروطك أيُّها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلك ولن أعارضك فى شىء . وقدَّم المشيئة فقال : ﴿ إن شَاءَ اللَّهُ .. (٦٩) ﴾ [الكهف] ليستميله إليه ويُحنِّن قلبه عليه ﴿ صَابِرًا .. (٦٩) ﴾ [الكهف] على ما تفعل مهما كان ﴿ وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾ [الكهف] وهكذا جعل نفسه مأموراً ، فالمعلم آمر ، والمتعلِّم مأمور .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التى يجب اتباعها فى مصاحبته : إنْ تبعتنى فلا تسألنى حتى أخبرك ، وكأنه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العَجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾

(فَانْطَلَقَا) سارا معاً ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها ، عندها لم يُطِق موسى هذا الأمر ، وكبُرت هذه المسألة فى نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف]

أى : أمراً عجيباً أو فظيعاً . ونسى موسى ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كان الحقّ ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُعلِّمنا أن الكلام النظرى شىء ، والعمل الواقعى شىء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذى يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقَال فى أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رَهْن أمرك ورقبتى لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلحظ هنا أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكتف بالاستفهام : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا .. (٧١) ﴾ [الكهف] بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً فظيعاً ؛ لأن كلام موسى النظرى شىء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شىء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعى إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٢) ﴾

وهذا درس آخر من الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ يقول : إن كلامى لك كان صادقاً ، وقد حذرتُك أنك لن تصبرَ على ما ترى من تصرفاتى ، وها أنت تعترض علىّ ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاَّ تسألنى عن شىء حتى أُخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) ﴾

يعتذر موسى ـ عليه السلام ـ عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه

مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : لا تُحمِّلني من أمر اتباعك عُسْراً ومشقة . فسامحه الخضر وعاود السير .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه ، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق ، فبأيِّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذى لم يبلغ رُشْده ؟ لذلك قال فى الأولى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الكهف] أى عجيباً أما هنا فقال : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف] أى : مُنكَراً ؛ لأن الجريمة كبيرة .

والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التى لم تلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .

وكذلك يأتى الرد من الخضْر مخالفاً للرد الأول ، ففى المرة الأولى قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

وأكَّدها وأراده بالكلام أى : قُلْت لك أنت .

ثم بعد المرة الثانية التى يقاطع فيها موسى مُعلِّمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

وهكذا قطع موسى - عليه السلام - الطريق على نفسه ، وأعطى

لها فرصة واحدة يتم بعدها الفراق ؛ لذلك في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « رحمنا الله ، ورحم أخي موسى لو صبر لعرفنا الكثير »[1] .

فهذه هي الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .

ومعنى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الكهف] أي : قد فعلت معي كل ما يمكن فعله ، وليس لي عُذْر بعد ذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

استطعم : أي طلب الطعام ، وطلَبُ الطعام هو أصدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يدخره ، إنما الطعام لا يعترض عليه أحد ، ومنْعُ الطعام عن سائله دليل بُخْل ولُؤْم متأصل في الطباع ، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التي مرّا بها وطلبا الطعام فمنعوهما .

والمتأمل في الآية يجد أن أسلوب القرآن يُصوّر مدى بُخْل هؤلاء القوم ولُؤْمهم وسُوء طباعهم ، فلم يقُلْ مثلاً : فأبوا أن يطعموهما ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٨٠) كتاب الفضائل من حديث أبي بن كعب بلفظ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لرأى العجب ، ولكنه أخذته ذمامة من صاحبه » وفي لفظ آخر له أيضاً ولأحمد (١٢١/٥) : « يرحم الله موسى ، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » .

بل قال : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] وفرق بين الإطعام والضيافة ، أبَوْا الإطعام يعنى منعوهما الطعام ، لكن أبَوْا أن يُضيِّفوهما ، يعنى كل ما يمكن أنْ يُقدَّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنْتَهى ما يمكن تصوُّره من لُؤْم هؤلاء الناس .

وتلحظ أيضاً تكرار كلمة (أهْل) فلما قال : ﴿ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول ؟

بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرَّا على كل بيت فى القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخْل ولُؤْم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف]

أى : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وَجَدا جداراً يريد أنْ ينقضّ ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإنْ جاءت لغير العاقل فهى بمعنى : قَرُب . أى : جداراً قارب أنْ ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدُّع والشُّروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحى وضيِّقى الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره فى التفكير والنظر ويُدقِّقون فى المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكونَ للجدار إرادة على أساس أن لكل شىء فى الكون حياةً تناسبه ، ولله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان]

فإذا كانت السماء تبكي فقد تعدَّتْ مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] دليل على أنها تبكي على فَقْد الصالحين .

وقد سُئِل الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مات المؤمن بكي عليه موضعان : موضع في السماء وموضع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مُصلاَّه ، أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله »[1] .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكَوْن من حوله ، فالكون ساجد لله مُسبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينبُو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أي : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاص ، والمكان مُسبِّح وهو غافل .

وعلى هذا الفهم فقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث »[2] .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب بلفظ : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي رضي الله عنه ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٨٩ ، ٩٥) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٧٧) كتاب الفضائل من حديث جابر بن سمرة .

ورُوى في السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى في يده ﷺ . وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغي أن نقول : سبَّح الحصى في يد رسول الله ؛ لأن الحصى يُسبِّح أيضاً في يد أبي جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء ، فقد رأينا العلماء في العصر الحديث يبحثون في لغة للأسماك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التي أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلزال وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلزال مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فعل الخضر مع الجدار الذي قارب أن ينقض ﴿ فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] ، أي : أصلحه ورمَّمه ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف]

هذا قول موسى - عليه السلام - لما رأى لُؤْمَ القوم وخِسَّتهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطْعمونا ، بل لم يقدموا لنا مجرد المأوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجرة ؟

وجاء هذا القول من موسى - عليه السلام - لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

(قَالَ) أي : العبد الصالح (هذا) أي : ما حدث منك من قولك : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] وقد سبق أن

اشترط موسى ـ عليه السلام ـ على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفراقُ بينهما ، وكأن العبد الصالح لم يأت بشيء من عنده ، لقد قال موسى : ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف] وهاهو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]

قوله : ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] تُعد دُستوراً من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغي أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلزم أدبه في حدود ما علَّمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] أي : لن أتركك وفي نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون في نفسك مني شيء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التي اعترضْتَ عليها لتعلم أن الله لم يخدعْكَ ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعلِّمك شيئاً لم تكُنْ تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تلْو الآخر ، كما لو عتبَ عليك صاحبك في أمر ما ، وأنت حريص على مودَّته فتقول له : أمهلني حتى أوضح لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتُزيل ما التبس عليه من هذا الأمر .

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبة ، فلا يجوز بعد المصاحبة أنْ نفترقَ على الخلاف ، ينبغي أن نفترق على وفَاق ورضا ؛ لأن الافتراق على الخلاف يُنمِّي الفجوة ويدعو للقطيعة ، إذن : فقبل أنْ نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله : (لمساكينَ) اللام هنا للملكية ، يعني مملوكة لهم ، وقد حسمتْ هذه الآيةُ الخلافَ بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ، وأيهما أشدّ حاجةً من الآخر ، وعليها فالمسكين : هو مَنْ يملك شيئاً لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل في البحر ، وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى ﴿ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] أي : مجال عملهم البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافه .

وقوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] المتكلم هنا هو الخضْر ـ عليه السلام ـ فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيها له تعالى عمَّا لا يليق ، أما في الخير فنسب الأمر إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] لذلك فإنه في نهاية القصة يُرجع كل ما فعله إلى الله فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] كلمة : كل ترسم سُوراً كُلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخُذ كل سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجةَ له في المعيبة الغير صالحة ، وكأن في سياق الآية صفة مُقدَّرة : أي يأخذ كل سفينة صالحة غَصْباً من صاحبها .

والغَصْب : ما أُخذ بغير الحق ، عُنْوةً وقَهْراً ومُصادرة ، وله صور

متعددة منها مثلاً السرقة : وهي أَخْذ المال من حرْزه خفية ككسر دولاب أو خزينة ، ومنها الغَصْب : وهو أخْذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفي هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخْذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلة ما ، يخطف الشيء ويفرّ به دون أن تتمكّن من اللحاق به ، فالخَطْفُ - إذن - يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تستره .

وما دام الأمر هنا غَصْباً فلا بُدَّ لمالك الشيء أنْ يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حَقِّه ، وقد يتوسل إليه أنْ يترك له ماله ، فالمسألة - إذن - فيها كلام وأخْذٌ ورَدٌّ .

إذن : خَرْق السفينة في ظاهره اعتداء على ملك مُقوّم ، وهذا منهيّ عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً في نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو علِم موسى - عليه السلام - هذه الحكمة لَبادرَ هو إلى خَرْقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلينا أن نُحوِّل السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعيبها بخَرْقها ، أو بخلْع لَوْح منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أخْذها .

وكلمة (وَرَاءَهُمْ) هنا بمعنى أمامهم ؛ لأن هذا الظالم كان يترصَّد للسفن التي تمر عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو في الحقيقة أمامهم ، على حدِّ قوله تعالى : ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦)﴾ [إبراهيم] . وهل جهنم وراءه أم أمامه ؟

وتستعمل وراء بمعنى : بَعْد ، كما في قوله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود]

وتأتي وراء بمعني : غير . كما في قوله تعالى في صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

وفي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. ۝ ﴾ إلى .. ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ .. ۝ ﴾ [النساء]

وقد تستعمل وراء بمعني خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

إذن : كلمة (وراء) جاءتْ في القرآن على أربعة معانٍ : أمام ، خلف ، بعد ، غير . وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات ، والملكة العربية قادرة على أن تُميِّز المعنى المناسب للسياق . فكلمة العَيْن - مثلاً - تأتي بمعنى العين الباصرة . أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذي يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه في قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفي عليه :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ ﴾

الغلام : الولد الذي لم يبلغ الحُلُم وسِنّ التكليف ، وما دام لم يُكلَّف فما يزال في سنِّ الطهارة والبراءة من المعاصي ؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً .. ۝ ﴾ [الكهف] أي : طاهرة ، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام في هذه السِّنّ خَيْر له ومصلحة قبل أنْ تلوّثه المعاصي ، ويدخل دائرة الحساب .

إذن : فطهارته هي التي دعتنا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه ؟

يقول تعالى : ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ .. (٨٠)﴾ [الكهف] وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ[1] فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤)﴾ [التغابن]

والفتنة بالأولاد تأتي من حرص الآباء عليهم ، والسعي إلى جعلهم في أحسن حال ، وربما كانت الإمكانات غير كافية ، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد علم الحق - سبحانه وتعالى - أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يُرد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكان قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أسدى إلى كليهما ، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أنْ يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التي ضاعتْ وشبابه الذي لم يتمتع به ، ونحن لا ندري ما أُعدَّ له من النعيم ، لا ندري أن مَنْ أُخذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحدَّد له مسكن في الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجري فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣٧٦/٤) : « بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح » وذكر ابن أبي حاتم في هذا أثراً عن ابن عباس رضي الله عنهما : « هؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهمُّوا أن يعاقبوهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [التغابن] .

وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد ، لذلك يُسمَّوْن « دعاميص[1] الجنة »[2] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف]

خشينا : خِفْنا . فالواحد منا يولد له ابن ، فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباهَ إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

ولا يفوت الخضر ـ عليه السلام ـ أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أحب هذا العمل وأريده ، إنما الذى يُبدِّل فى الحقيقة هو الله تعالى ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] أى : طُهْراً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] لأنهما أرادا الولد لينفعهما فى الدنيا ، وليكون قُرَّة عَيْن لهما ، ولما كانت الدنيا فانية لا بقاءَ لها ، وقد ثبت فى علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويْه ، وسيجلب عليهما المعاصى

---

(١) الدعاميص : جمع دعموص ، وهو الدخَّال فى الأمور أى أنهم سياحون فى الجنة دخَّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . [لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت مُحدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم ، صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٥١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والسيئات ، وسيجرهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة في أخذه بدل أنْ يتمتّعا به في الدنيا الفانية ، ويشقيا به في الآخرة الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ[1] وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ[2] لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(لِغُلاَمَيْنِ) أي : لم يبلغا سنّ الرشد ، وفوق ذلك هما يتيمان . وكان تحت هذا الجدار المائل كَنْز لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أنْ تتصوّر ما يحدث لو تهدّم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأوى ، إنّ أقل ما يُوصفون به أنهم لِئام لا يُؤتمنون على شيء . ولقد تعوّدنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إذن : فلا شكّ أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يُعَدُّ بمثابة صفْعة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكُّر وسوء استقبال ، وترد لهم الصّاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

---

(١) قال هنا الحق سبحانه : ﴿ فِى ٱلْمَدِينَةِ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] . وفي آية أخرى قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] . ولذلك قال ابن كثير في تفسيره (٣/٩٨) : « في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة » .

(٢) قال عكرمة وقتادة وغير واحد : كان تحته مال مدفون لهما . قال ابن كثير (٣/٩٨) : « وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله . وقال العوفي عن ابن عباس : كان تحته كنز علم » .

فعلّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أنْ يحفظ لحين أنْ يكبُرَ هذان الغلامـان ويتمكنا من حفظه وحمايتـه في قرية من اللئام . وكـان الحق سبحانه وتعالى أرسله لهذين الغلامين في هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار في التصدُّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقـوم بإصلاحه قبل أنْ يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه في حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجدار وردّه إلى ما كان عليه رَدَّ مَنْ علّمه الله من لَدُنْه ، فيقال : إنه بَنَاهُ بناءً موقوتاً يتناسب وعُمْرَ الغلامين ، وكأنه بناه على عمر افتراضي ينتهي ببلوغ الغلامين سِنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه في الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أُوتِيَ علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سياق الآية أنهما كانا في سِنٍّ واحدة توأمين لقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢) ﴾ [الكهف] أي : سوياً ، ومعنى الأشُدّ : أي القوة ، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوي ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - قال هنا : ﴿ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢) ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ رُشْدهما ، لأنْ هناك فرْقاً بين الرُّشْد والأشُدّ فالرُّشْد : حُسْن التصرُّف في الأمور ، أما الأشُدّ : فهو القوة ، والغلامان هنا في حاجة إلى القوة التي تحمي كَنْزهما من هؤلاء اللئام فناسب هنا ﴿ أَشُدَّهُمَا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٢) ﴾ [الكهف] أي : يستخرجاه بما لديهما من القوة والفُتُوَّة . والرحمة : صفة تُعطَى للمرحوم لتمنعه من الداء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ

مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء] فقوله : شفاء : أى : يشفى داءً موجوداً ويُبرِئه . ورحمة : أى رحمة تمنع عودة الداء مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما وحِفْظ حقِّهما ، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُرجِع الفضل لأهله ، وينفى عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢)﴾ [الكهف] أى : أن ما حدث كان بأمر الله ، وما علَّمتك إياه كان من عند الله ، فليس لى مَيْزة عليك ، وهذا درس فى أدب التواضع ومعرفة الفضلْ لأهله .

ثم يقول : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع[1] عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف] تأويل : أى إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

* * *

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التى سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود ، وهو السؤال عن الرجل الطَّواف الذى طاف البلاد :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾

ذو القرنين : هذا لقبه ؛ لأنه ربما كان فى تكوينه ذا قرنين ، أو

(١) فى هذه الآية قال : ﴿مَا لَمْ تَسْطِع .. (٨٢)﴾ [الكهف] . وقبل ذلك قال : ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع .. (٧٨)﴾ [الكهف] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٠) : « لما أن فسَّره وبيَّنه ووضَّحه وأزال المشكل قال (تسطع) وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلاً فقال (ما لم تستطع) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ .. (٩٧)﴾ [الكهف] . وهو الصعود إلى أعلاه . وقال : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] . وهو أشق من ذلك . فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم » .

يلبس تاجاً له اتجاهان ؛ أو لأنه بلغ قرنى الشمس فى المشرق وفى المغرب .

وقد بحث العلماء فى : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدونى الطواف فى البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان فى مقدونيا فى الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد ـ وزير المعارف الهندى ـ إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته فى الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حَصْرها فى شخص بعينه ؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعف من تأثيرها ، ويصبغها بصبْغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فنرى مَنْ يقول بأنها مسألة شخَصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم فى ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العمَل خاص بهذا الشخص ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يضرب لنا مثلاً يعُمُّ أى شخص ، ماذا سيكون مَسْلكه وتصرفه إنْ مكَّنَ الله له ، ومنحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حددَ القرآن هذه الشخصية فى الإسكندر أو قورش أو غيرهما لَقُلْنَا : إنه حَدث فردىّ لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأُسْوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان فى تعيينه فائدة لَعيَّنه الله لَنَا .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق ـ سبحانه ـ عندما ضرب مثلاً للذين

كفروا ، قال : ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ۝١٠ ﴾ [التحريم] ولم يُعَيِّنهما على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان أن الرسول المرسَل من الله لهداية الناس لم يتمكّن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ۝١١ ﴾ [التحريم]

ففرعون الذى أضلَّ الناس وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأن الحق سبحانه يُلمِّح للناس جميعاً أن رأيك فى الدين وفى العقائد رأى ذاتى ، لا يتأثر بأحد أيًا كان ، لا فى الهداية بنبى ، ولا فى الغواية بأضلّ الضالين الذى ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخَّصة لتكون نموذجاً وأسْوة يحتذى بها كل أحد ، وإلاَّ لو شخصتْ لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فنراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً فى بنات آدم ، لذلك عيَّنها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضرورى فى مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعنى أنها صالحة لأنْ تتكرر فى أىّ زمان وفى أىّ مكان ، كما رأينا فى قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه لبهمهم أسماءً ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين فى أىّ زمان ، وفى أىّ مكان ، وبأىّ عدد .

قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. ۝٨٣ ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن مادة السؤال لرسول الله ﷺ في القرآن أخذت حيزاً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبي من القوم ست عشرة مرة ، إحداها بصيغة الماضي في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما في : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ .. ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ .. ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ .. ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [المائدة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف] ثلاث مرات،[النازعات ٤٢]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجوابَ عليها مختلف ،

وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بُدَّ أنْ يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له ملْحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله - وقد نهاهم أنْ يسألوه حتى يهدأوا - إلحاحٌ منهم في معرفة تصرُّفاتهم وإنْ كانت في الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أنْ يعرفوا رأى الإسلام فيها ، فكأنهم نَسُوا عادات الجاهلية ويرغبون في أن تُشرَّع كل أمورهم على وَفْق الإسلام .

وبتأمل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدةً يأتي الجواب مباشرة دون (قُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء (فَقُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل (قُلْ) ، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء في هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب (قُلْ) فهذه إجابة على سؤال سُئِلَهُ رسول الله بالفعل ، أي : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتتْ في الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] سؤال لم يحدث بَعْد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قُلْتَ : فما الحكمة في أنْ يأتي الجواب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن (إذا) تقتضي الفاء في جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أنْ يُجيبهم عليه بانتفاء الواسطة من أحد ؛ لذلك تأتي الإجابة

مباشرة دون واسطة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾ [الكهف] أي : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التي قام بها ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

وأيُّ شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولّى التأريخ لهذا الرجل ، ويُؤرِّخ له في قرآنه الكريم الذي يُتلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة والذي يُتحدّى به ، ليظل ذكْره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، ويظل أثره فيما عمل أُسْوة وقُدْوة لمن يعمل مثله . إنْ دَلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أنْ يُذكَرَ عند الخلق .

فأيُّ ذكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذي القرنين وتاريخه ؟

و (منْهُ) أي : بعضاً من ذكْره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذِكْر) وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقي جميعها في الشرف والرفعة ، وفي التذكُّر والاعتبار . وإنْ كانت إذا أُطلقتْ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] وبعد ذلك تُستعمل في أيِّ كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذكر على ما يتبع هذا من الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : صيت حَسَن وشرف ورفعة كون القرآن يذكر هذا الاسم ؛ لأن الاسم إذا ذُكر فى القرآن ذاعَ صيتُه ودَوَّى فى الآفاق .

وقلنا فى قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أنْ خُطف من قومه وبِيع فى مكة لخديجة رضى الله عنها ، ثم وهبته لرسول الله ﷺ ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما علم أهله بوجوده فى مكة أتى أبوه وعمه ، وكلَّموا رسول الله فى شأن زيد فقال : خَيِّروه .

فلما خَيَّروا زيداً قال : ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك أكرمه النبى ﷺ وسمَّاه زيدَ بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبنى ، ونزل قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

فلا تقولوا : زيد بن محمد . وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حَزِنَ زَيْد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه علَماً يتردد فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو الصحابى الوحيد الذى ورد ذكره باسمه فى كتاب الله فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

فأىُّ شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها ، وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . وقوله عن زيد معناه : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٣] .

[الأحزاب] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله ﷺ بالجور ، فقال ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [الأحزاب] فما فعله الرسول كان أيضاً قِسْطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .

إذن : فذكْر ذى القرنين فى كتاب الله شرف كبير ، وفيه إشارة إلى أن فاعلَ الخير له مكانته ومنزلته عند الله ، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صِيته بين الناس فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ (١)

التمكين : أى أننا أعطيناه إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التى يريدها ؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ، كما قال تعالى فى آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ۝٥٦﴾ [يوسف]

فالتمكين يعنى إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور ، لكن لماذا مكنّاه ؟ مكنّاه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات .

وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ [الكهف] أى : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شىء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه .

فماذا صنع هو ؟


﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾

(١) أى : أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات . [تفسير ابن كثير ٣/١٠١] .

أتبع السبب ، أى : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له ، فلقد مكَّن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان ، بل كان قادماً إليه من المشرق . ومعنى (مغرب الشمس) هل الشمس تغرب ؟

هى تغرب فى عين الرائى فى مكان واحد ، فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً فى الجيزة ، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب فى مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأىَ عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهى دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة فى كل الأوقات ،

---

(١) قرأها ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى « حامية » أى : حارة . والباقون قرأوها « حمئة » أى : كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء . [تفسير القرطبى ٦/٤٢٦٨] .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٢) : « قال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارىء فهو مصيب . قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمئة فى ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره » .

فحين نصلى نحن الظهر مثلاً يصلى غيرنا العصر ، ويصلى غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور فى كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهى الظهر لله ، ولا ينتهى العصر لله ، ولا ينتهى المغرب لله ، بل لا ينتهى الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مَرِّ الزمن ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. (٨٦) ﴾ [الكهف] أى : فى عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذى اسودّ لكثرة وجوده فى الماء . وفى تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد[1] ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا .. (٨٦) ﴾ [الكهف] أى : عند هذه العين ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾ [الكهف] إذن : فهذا تفويض له من الله ، ولا يُفوِّض إلا المأمون على التصرُّف ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ .. (٨٦) ﴾ [الكهف] ولا بُدَّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بإله ، فإما أنْ تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذَ فيهم حُسْناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذى يريد الله أن يتخذه ؟ يعنى أنهم قد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فبيِّن لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فَمنْ آمن منهم فأحسن إليه ، ومَنْ أصرَّ على كُفْرِه فعذِّبه ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعِظَة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

---

(١) أبو الكلام آزاد : هو أحمد بن خير الدين ، الهندى الأب ، العربى الأم والثقافة ، ولد بمكة (١٣٠٢ هـ) وأصله من دهلى ، درس على علماء الأزهر ، مفسر من خطباء المسلمين وزعمائهم فى الهند أيام حركتها التحررية ، تولى وزارة المعارف فى الهند إلى أن توفى مشلولاً عام (١٣٧٧ هـ) [الأعلام للزركلى ١٢٢/١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التى سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعظهم ويُذكّرهم ويُفهّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف]

فلن نُعذّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذّبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، وردْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة فى غير المؤمن ؟ لذلكَ نرى الأمم التى لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرِّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ فى الآخرة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] والشىء النكر : هو الذى لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو ألفة ؛ لأننا حينما نُعذَّب فى الدنيا نُعذَّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله فى الآخرة فهو شىء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ .. (٨٨) ﴾ [الكهف] أى : نعطيه الجزاء الحسن ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعه ويحفزه ، وإنْ كلَّفناه كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدَّ وتعاقب المقصِّر مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أمِنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيَّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملَّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقْتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيُّب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

فما أجملَ أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى

فالحسن من باب أولى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس]

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾

أى : ذهب إلى مكان آخر.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَطْلِعَ الشَّمْسِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] كما قلنا فى مغربها ، فهى دائماً طالعة ؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينىَ الحر أو ليقينىَ البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل فى وسط افريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظِلّون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أى : ليس لهم ما يأويهم من حَرِّ الصيف أو بَرد الشتاء ، وهم أُنَاسٌ متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى فى جلودهم ما يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها ، فترى فى جلودهم ما يمنحهم الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف .

وهذا نلاحظه فى البيئات العادية ، حيث وَجْه الإنسان وهو

مكشوف للحر وللبرد ، ولتقلبات الجو ؛ لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقى الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديدَ الحساسية للحرِّ أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية فى جلودها تستطيع أنْ تعيش فى القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، لا تشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويرونَ الملابس ، وكيف أنها زينة وستْر للعورة فيستخدمونها .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ، وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإنْ قسْنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضَّرهم ووفَّر لهم أسباب الرُّقى .

وبعض المفسرين يروْنَ أن ذا القرنين ذهب إلى موضع يومُه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يَرَ لها غروباً فى هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يَرَ لها ستْراً يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب فى أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

كذلك : يعنى ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .



ذهب إلى مكان آخر .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1]

السد: هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : (بين السدين) فالبَيْن هنا يقتضي وجود فجوة بين السدين يأتي منها العدو .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] أي : تحتهما ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] أي : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول ؛ لأن الذي يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يُقَال لهم ، ومعنى : ﴿ لَّا يَكَادُونَ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفي عنهم الفَهْم ، بل مجرد القُرْب من الفهم ، وكأنه لا أملَ في أن يفهمهم .

لكن ، كيف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف] فأثبت لهم القول ؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شكَّ أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يُفهمهم ويَفْهم منهم ، وإلا فقد كان في وُسْعه أنْ ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٢٢٤/٦) : « هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان » . وقال ابن كثير (١٠٣/٣) : « هما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك » .

فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير ، والذى لا يألو جَهْداً فى نَفْع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصبحت الآن لغةً مشهورة ومعروفة ، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا(١) عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

المراد بالقول هنا : دلالة مُعبِّرة تعبير القول ، فلا بُدَّ أنهم تعارفوا على شيء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

ويأجوج ومأجوج قوم خَلْف السدين أو الجبلين ، ينفذون إليهم من هذه الفجوة ، فيؤذونهم ويعتدون عليهم ؛ لذلك عرضوا عليه أن يجعلوا له (خَرْجاً) أى : أجراً وخراجاً يدفعونه إليه على أنْ يسدَّ لهم هذه الفجوة ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن ذى القرنين أنه :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

والقَوْل هنا أيضاً قَوْل دلالة وإشارة تُفهِمهم أنه فى غنىً عن

---

(١) الخَرْج والخَرَاج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

الأجر ، فعنده الكثير من الخير الذى أعطاه الله ، إنما هو فى حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكَّن فى الأرض المالك للشىء يجب أن تكون حِسْبة لله ، وأنْ تُعين معونة لا تحوج الذى تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كأن تعلّمه أنْ يعمل بنفسه بدل أنْ تعطيه مثلاً مالاً ينفقه فى يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطنى سمكة ، ولكن علِّمنى كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمْر .

ولما كان ذو القرنين ممكّناً فى الأرض ، وفى يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو فى حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. (٩٥)﴾ [الكهف] أى : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)﴾ [الكهف]

ولم يقُلْ : سداً ؛ لأن السدّ الأصمّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجّة مثلاً فى ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردماً أى : يبنى حائطاً من الأمام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردماً من التراب ليكون السد مَرِناً لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السُّوست » التى تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرة مثلاً وتُسوّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أنْ يسمعَ ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ[1] حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوت ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل ليُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أي قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة ، والقطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه ، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلُون عليه .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ .. (٩٦) ﴾ [الكهف] الصدف :

---

(١) زُبَر الحديد : قطعه . والصدفان : الجانبان . [القاموس القويم ١/٢٨٣ ، ٣٧١] .

الجانب ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. (١٥٧)﴾ [الانعام] أى : مال عنها جانباً .

فمعنى : ساوى بين الصدفين ، أى : ساوى الحائطين الأمامى والخلفى بالجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا .. (٩٦)﴾ [الكهف] أى : فى الحديد الذى أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] وهكذا انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ، فأصبح لدينا حائطٌ صلْبٌ عالٍ أملس .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾

(أنْ يظهرُوهُ) أى : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] لأنه صلْب .

ثم يقول تعالى على لسان ذى القرنين :

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾

لم يفُتْ ذا القرنين ـ وهو الرجل الصالح ـ أنْ يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (٩٨)﴾ [الكهف] لأننى أخذتُ المقوِّمات التى منحنى الله إياها ، واستعملتها فى خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقوة مخلوقة لله ، المواد والعناصر فى الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لى أن أقول : أنا عملتُ كذا وكذا ؟